روايات الهلال

جسر على نهر درينا



إيفو أندريتش

الجزء الثاني

روايات الهلال

Rowayat Al-Hilal

تصدر عن مؤسسة « دار الهلال »

العدد ٣٣٧ يناير ١٩٧٧ — محرم ١٣٩٧
No. 337 January 1977

رئيسة مجلس الإدارة : أمينة السعيد

[illegible] موسى عبيد

المدير الفني : أحمد فاضل

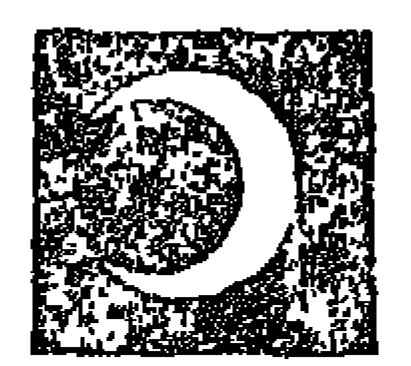
المشرف الفني : جمال قطب

بيانات ادارية

ثمن العدد : في جمهورية مصر العربية ١٢٠ مليما . من الكميات المرسله بالطائرة — في سوريا ولبنان ١٥٠ قرشا ، في الاردن ١٥٠ فلسا ، في العراق ٢٠٠ فلس — في الكويت ٢٢٥ فلسا — في السعودية ٢٫٥ ريال سعودي

قيمة الاشتراك السنوي : « ١٢ عددا » في جمهورية مصر العربية وبلاد اتحادي البريد العربي والافريقي ١٢٠ قرشا صاغا. في سائر انحاء العالم ٦ دولارات او ٢٫٥ جنيه والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : في جمهورية مصر العربية والسودان بحوالة بريدية . في الخارج بشيك مصرفي . والاسعار الموضحة اعلاه بالبريد العادي — وتضاف رسوم البريد الجوي والمسجل على الاسعار المحددة عند الطلب

الادارة : دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب بالقاهرة
تليفون : ٢٠٦١٠ « عشرة خطوط »





مجلة شهرية لنشر القصص العالمي

الغلاف بريشة الفنان
جمــــــــال قطب

جسر على نهر درينا

الجزء الثانى



بقلم

إيفو أندريتش

ترجمة

دكتور سامى الدروبى

دار الهلال

الفصل الرابع عشر

اصبحت الحياة فى المدينة قرب الجسر أزخر بالحركة والنشاط ، وأصبح يبدو أنها تزداد نظاما وثراء يوما بعد يوم ، واكتست مظهرا منسجما ، ونعمت بتوازن لم تعرفه قبل الآن ، وهو توازن تصبو اليه كل حياة فى كل زمان ومكان ، ولا تصل اليه الا نادرا ، على نحو جزئى مؤقت .

وفى البلاد البعيدة التى نجهلها ، البلاد التى تحكم بلادنا وتدير دفة الأمور فيها ، كان قد تحقق ابان هـذه الفترة ـ وهى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ـ عهد من تلك العهود الهادئة النادرة القصيرة فيما يتصل بالعلاقات الانسانية والأحداث الاجتماعية . فكان الناس فى مناطقنا التائهة هـذه ، يحسون هـذا الهدوء بعض الاحساس أيضا ، كما يحس المرء بالصمت الكبير الذى يرين على البحر ، وهو فى أبعد الخلجان .

تلك هى العقود الثلاثة من السنين التى شـاع فيهـا رخاء نسبى ، وسلام ظاهرى ـ على طريقة عهد فرنسوا جوزيف ـ والتى اعتقد خلالها كثير من الأوربيين أنهم وجدوا الصـورة الصحيحة لتحقيق الحلم القديم ، أعنى نمو الشخصية الانسانية نموا كاملا موفقا فى ظل الحرية الشاملة والتقـدم . كان القرن التاسـع عشر يبسط خيراته الكثيرة الوهميـة أمام أعين الملايين من البشر ، ويصور لهم سرابا من الرخاء والأمن والسـعادة يتمتع بها جميـع النـاس وينعم بها كل فرد ، بأسعار معقولة وبالتقسيط . ولكن لم يصل الى هـذه المدينـة التائهة بالبوسنة ، من كل حياة القرن التاسع عشر هـذه ، الا أصـداء ضعيفة ، فى حدود قدرة هـذه البيئة الشرقية المتخلفة عن استقبال هذه الأصداء ، وفى الصورة التى تناسبها ، ففهمتها على طريقتها الخاصة .

فبعد أن انقضت السنون الأولى التى سـيطر عليهـا الشـك

والتوقف والتردد والشعور بأن الأمر مؤقت الى حين ، أخذت المدينة تنلاءم مع الحياة الجديدة ، وأخذ الشعب يجد فيها النظام والربح والامن . وكان هذا كافيا من أجل أن تسير الحياة ، الحياة الخارجية ، فى طريق التحسن والتقدم ، هنا أيضا . أما كل ما عدا ذلك فحبس فى ذاك القاع المظلم من الشعور ، الذى تعيش فيه وتفور فيه العواطف الأولية والمعتقدات الراسخة ، معتقدات مختلف الأجناس والأديان والطبقات ، التى يبدو فى الظاهر انها ماتت ودفنت ، ولكنها فى حقيقة الأمر تهيىء لعصور مقبلة بعيدة تبدلات وكوارث يظهر أن الشعب لايستطيع الاستغناء عنها ، وخاصة شعب هذه البلاد .

بعد ضروب سوء التفاهم وأنواع الصراع التى قامت فى أول الأمر ، شعر الناس أن الحكومة الجديدة صلبة العود طويلة الأجل (وكانت الحكومة نفسها ممتلئة بهذا الوهم الذى لا يمكن أن تقوم بدونه سلطة ثابتة قوية) . كانت الحكومة غير شخصية ، وكانت تمارس السلطة على نحو غير مباشر ، فكان هذا وحده كافيا لأن يجعل احتمالها أسهل من احتمال النظام التركى . ان كل ما يشتمل عليه الحكم الجديد من قوة ومن شراهة ، كان متخفيا تحت ستار من الوقار والمهابة والتقاليد . كان الناس يخشون بأس السلطات ، الا أنهم كانوا يخشونها كما يخشى المرء الموت أو المرض ، لا كما يرتعد خوفا أمام الخبث والشقاء والعنف . وكان معظم ممثلى الحكومة الجديدة ، العسكريين منهم والمدنيين ، أجانب عن البلاد ، لايعرفون السكان .

وكان عددهم قليلا ، الا أن المرء يحس عند كل خطوة يقومون بها ، انهم دواليب صغيرة فى آلة ضخمة كبيرة ، وان وراء كل واحد منهم رجالا اقوى ومنظمات أعلى ، بأعداد كبيرة ودرجات لا حصر لها ولا عد . فكان هذا يهب لهم سلطانا يفوق شخصيتهم كثيرا ، ويهب لهم نفوذا سحريا يخضع له الناس بسهولة . وكانوا بألقابهم التى تبدو هنا ضخمة ، وبهدوئهم وبعاداتهم الأوروبية ، يفرضون على الشعب الذى يختلفون عنه كل الاختلاف ، يفرضون عليه الثقة والاحترام ، ولا يثيرون فى نفوس الأفراد حسدا ولا نقدا حقيقيا ، رغم أن هؤلاء الأفراد لا يشعرون نحوهم بشيء من المودة أو الحب .

ومن جهة أخرى ، فان هؤلاء الأجانب أنفسهم ، لم يستطيعوا ،

بعد مدة من الزمن ، أن يفلتوا افلاتا تاما من تأثير هـذه البيئـة الشرقية فيهم . لقد كان أولادهم يدخلون بين أولاد المدينة تعبيرات أجنبية وأسماء أجنبية ، وكانوا يحملون اليهم تحت الجسر أنواعا جديدة من اللعب واللعب ، ولكنهم كانوا فى الوقت نفسه يأخذون عن أطفال البلاد ، بمثل تلك السرعة ، أغانينا وأساليبنا فى الكلام . وطريقتنا فى حلف الايمان ، وألعابنا القديمة ، كالقفز فوق الظهر وغيره . وكذلك كان شأن الكبار . لقـد جاءوا هم أيضا بحياة جديدة ، وتعبيرات وعادات غير مألوفة ، ولـكنهم كانوا فى الوقت نفسه يضيفون الى لغتهم والى طريقتهم فى المعيشـة شيئا جديدا يستمدونه من أهل البـلاد يوما بعد يوم . الحق أن السكان ، وخاصة المسيحيين واليهود ، أخذوا يقلدون الأجانب الذين جاء بهم الاحتلال ، فى أزيائهم وفى سـلوكهم ، ولـكن هؤلاء الأجانب قـد تأثروا أيضا بالبيئة التى كان عليهم أن يعيشوا فيهـا . ان عددا من هؤلاء الموظفين ، مثل ماجيار العنيف أو بولونى المتكبر ، كانوا يجتازون الجسر قلقين أو يدخلون المدينـة مشمئزين ، وكانوا فى أول الأمر معتصبين منعزلين كقطرات زيت فى الماء ، ولـكن ما هى الا بضع سنين حتى أصبحوا يجلسون على الـكابيا سـاعات طويلة ، يدخنون سجائرهم الموضـوعة فى حمالاتها السـميكة من العنبر ، ويجعلون ينظرون فى الدخان وهو يتبـدد ويضيع تحت السماء الزرقاء فى الهواء السـاكن عند الغسق ، كأنهم سكان قدماء من سكان المدينة ، أو ينتظرون المساء فى صحبة وجهائنا وبكواتنا على سفح أخضر وأمامهم باقة صـغيرة من الريحان ، ويمضون يتحدثون حديثا بطيئا ليس بذى خطورة وليس له اتجاه خاص ، ويحتسـون شرابهم على مهل ويتناولون لقمـة طعـام من حين الى حين ، كما لا يحسن ذلك الا أهل فيشيجراد . ووجد بين هؤلاء الأجانب موظفون أو صناع تزوجوا فى مدينتنا ، وقرروا أن يقيموا فيها والا يتركوها مدى الحياة .

كانت هذه الحياة الجديدة لا تعنى فى نظر أى فرد من سـكان المدينة ، تحقيق ما يحمله فى دمه وما يشتهيه فى أعماق نفسه منذ الأزل . وبالعكس : ان جميـع النـاس سواء أكانوا مسلمين أم مسيحيين ، يدخلون هـــذه الحياة الجديدة بتحفظات متنـوعة مطلقة ، ولـكن هذه التحفظات ظلت مكتومة مختبئة ، بينما كانت الحياة مبسوطة أمام جميـع الأعين ، قوية بامكانياتها الجديدة التى

تبدو كبيرة .. وبعد ضروب من التردد الطويل أو القصير انساق أكثر الناس مع التيار الجديد ، وأخذوا يزاولون أعمالاً جديدة ، ويجنون أرباحا شتى، ويعيشون وفقا للآراء الجديدة ووفقا للأساليب الجديدة التى تحقق لكل فرد مزيدا من الحركة والاندفاع وتقدم له مزيدا من الفرص والحظوظ .

ولم تكن الحياة الجديدة أقل تقيدا او ارتباطا من الحياة القديمة فى عهد الأتراك ، غير أنها أسهل وأكثر انسانية ، كما أن هذه القيود وهذه الروابط قد وضعت فى بعيد على نحو بارع ، بحيث لا يحس بها الفرد احساسا مباشرا . لذلك كان كل انسان يشعر أن كل شيء قد أصبح حوله أوسع واملأ بالهواء وأكثر تنوعا وغنى .

كانت الدولة الجديدة ، بجهازها الادارى ، تستطيع أن تخرج الضرائب والرسوم من جيوب الناس بدون ألم أو خشونة ، خلافا للأتراك الذين كانوا يجبون هذه الأموال بأساليب فظة غريبة ، او بالنهب وحده . وان الدولة الجديدة تجبى من الأموال مثل ما كان يجبيه الأتراك بل أكثر، وهى تجبيه بمزيد من السرعة والضمان .

وكما وصل رجال الدرك فى حينهم بعد الجيش ، ثم وصل بعدهم الموظفون ، كذلك وصل بعد الموظفين التجار . وبدىء قطع أشجار الغابات ، وجاء مقاولون أجانب ومهندسون وعمال ، واتاح هذا فرصا مختلفة لأرباح يجنيها صغار الناس والبائعون ، وجاء بعادات جديدة وأحدث تبدلات جديدة فى الملبس واللغة بين أفراد الشعب . وبنى أول فندق (سنتحدث عن هذا الفندق فيما بعد) وقامت حانات ودكاكين كانت مجهولة الى ذلك الحين . والى جانب اليهود الاسبان (السفارديم) الذين يعيشون فى هذه البلاد منذ قرون ، لأنهم استقروا فيها من أيام بناء الجسر على نهر درينا تقريبا ، أخذ يتوافد الآن يهود جاليسنا (الأسكنازى) .

وأخذ المال يجرى مبالغ لا عهد للبلاد بمثلها من قبل ،كأنه دم جديد . وأهم من ذلك أن الناس يتداولونه الآن على رءوس الاشهاد فى جراة وصراحة . فكان كل امرىء يستطيع أن يدفىء يديه بنار هذا التداول للذهب والفضة وأوراق النقد ، أو أن يمتع بذلك بصره على الأقل ، لأن هذا التداول يوهم حتى أفقر فرد من الأفراد بأن فقره شيء مؤقت ، فيستطيع اذن أن يحتمله .

صحيح أن العهد الماضى كان فيه مال ، وكان فيه أغنياء ، غير

أن هؤلاء الأغنياء كانوا قلة قليلة ، وكانوا يخفون أموالهم كما يخفى الأفعوان قوائمه ، وكانوا يظهرون نبالتهم ويحملونها كصورة من صور السلطة والدفاع متعبة لهم ولغيرهم على السواء . أما الآن فالثراء (أو ما كان يعد ثراء أو يسمى ثراء) شائع بين الناس ، وما ينفك يعبر عن نفسه بمتع وملذات شخصية . لذلك كان أكثر الأفراد يستطيعون ان يملكوا شيئا من بريقه أو من قلاماته .

وكانت الحال على هذا المنوال فى سائر ما عدا ذلك . ان جميع الملذات التى كان يتذوقها الناس من قبل خفية واختلاسا ، أصبحوا يستطيعون الآن أن يقتنوها وأن يظهروها صراحة ، وكان ذلك يزيد ما لها من قوة الجذب ويضاعف عدد الذين ينشدونها ويسعون اليها . ان ما كان فى الماضى عزيز المنال ، بعيداً ، باهظ الثمن ، تحرمه القوانين وتحرمه اعتبارات قاهرة ، أصبح الآن فى كثير من الحالات ممكنا يستطيع أن يصل اليه كل واحد من اولئك الذين يملكون المال أو المكر . ان كثيرا من الميول والشهوات والمطالب التى كانت حتى ذلك الحين تختبىء فى مواضع مختفية ، او لا ترتوى البتة ، أصبحت الآن تستطيع أن ترتوى وتجرؤ على طلب الارتواء صراحة ، فان لم تحصل ارتواء كاملا ، حصلت بعض الارتواء فى اقل تقدير . والواقع أنه دخل على هذا كله مزيد من النظام والترتيب والحواجز المشروعة ، فالرذائل يعاقب عليها ، والملذات أصعب وابهظ ثمنا ، غير أن القوانين والأساليب قد اختلفت ، فأصبحت تدع الناس فى هذا المضمار وفى غيره ، أن يتوهموا أن الحياة غدت اكثر اتساعا واكثر ترفا وحرية .

الحق أن الملذات الحقيقية ، والسعادة خاصة ، لم تزدد عما كانت عليه فى الماضى ، ولكن مما لا شك فيه أن الوصول الى بعض الملذات أصبح أسهل ، وأصبح يبدو للناس أن هناك متسعا لسعادة كل فرد من الأفراد . ان ما فى انفس اهل فيشيجراد من ميل فطرى قديم الى حياة اللهو والمتع أصبح يجد الآن ما يحفزه وما يهيىء له امكان التحقق ، فى العادات الجديدة وفى الأشكال الجديدة من التجارة والربح التى أدخلها الأجانب الوافدون حديثا.

وكان اليهود البولنديون الذين هاجروا الى البلاد مع أسرهم الكثيرة العدد يقيمون جميع أنواع نشاطهم على هذا . فهذا شرايبر يفتح سوقا أو محل بقالة ، وهذا جوتنجلان يفتح حانة للجنود ، وهذا تسالر يدير فندقا ، وهذه عائلة شبرلنج تقيم مصنعا

لصناعة الصودا وورشة للتصوير الفوتوغرافى ، وهذا تسفيهر يفتح محلا للساعات والصياغة .

وبعد الثكنة التىحلت محل النزل الحجرى ، شيد بالحجارة المتبقية مبنى اقامت فيه الادارة المحلية والمحكمة . وكان فندق تسالر اكبر مبنى فى المدينة بعد هذين المبنيين . ان فندق تسالر يقوم على الضفة قريبا كل القرب من الجسر . كانت هذه الضفة اليمنى معززة بجدار قديم يدعم شفير النهر من جهتى الجسر ، وقد بنى هذا الجدار يوم بنى الجسر نفسه . وبذلك كان ينبسط على يمين الجسر وعلى شماله سهلان كأنهما رصيفان يعلوان النهر. فعلى هذه الأرض التى كان يسميها الشعب ميادين السباق كان يلعب أطفال المدينة جيلا بعد جيل . ان سلطات المديرية قد احتلت الآن السهل الأيسر ، وأحاطته بسياج وغرست فيه أشجارا مثمرة وأدغالا وجعلته أشبه بمشتل للمنطقة .

وعلى السهل الأيمن بنى الفندق . قبل ذلك كان خان زاريا أول بناء عند مدخل الحى التجارى . وكان هذا الخان حسن الموقع ، لأن المسافر المتعب الظمآن الذى يدخل الى المدينة من الجسر كان يقع عليه أول ما يقع . أما الآن فان الخان القديم المنخفض أصبح يبدو أشد انخفاضا ومذلة يوما بعد يوم،كأنما هو يغور فى الأرض.

ان الفندق الجديد يحمل ، رسميا ، اسم الجسر الذى بنى قربه . ولكن الشعب يطلق على جميع الأشياء أسماء تتفق مع منطقه الخاص ، وتتفق مع المعنى الحقيقى الذى تدل عليه هذه الأشياء فى نظره ، وقد امحت الكتابة التى سطرت على لافتة فوق فندق تسالر (وهى باللغة الالمانية Hotel Zur Brucre ومعناها « فندق الجسر ») ، وكانت قد كتبت أحرفا قائمة بدهان مائى ، وتولى كتابتها جندى خبير فى هذه الأمور ، فأطلق الناس على الفندق اسم فندق لوتيكا ، وظل الفندق يسمى بهذا الاسم الى الأبد . ذلك أن تسالر ، صاحب الفندق ، وهو يهودى ضخم بارد. له زوجة ممراض وبنتان صغيرتان (منيا ، وايرين) ، لم يكن له بالفندق شأن ، وانما كانت أخت زوجته هى صاحبة الفندق حقا والروح التى تسرى فيه ، وهى امرأة شابة على جانب عظيم من الجمال ، أرملة ذربة اللسان صريحة الكلام ، ذات نشاط أشبه بنشاط الرجال .

كان الطابق الأعلى من الفندق يحتوى على ست غرف نظيفة

مرتبة ، مخصصة للزبائن ، وكان الطابق الأرضي يحتوي على قاعتين ، احداهما واسعة والأخرى ضيقة . أما القاعة الكبرى فيرتادها الناس العاديون المتواضعون ، من صف الضباط وأصحاب الحرف . وأما الصغرى فيفصلها عن الكبرى باب ذو مصراعين من زجاج غير شفاف ، فعلى المصراع الأول كتبت كلمة Exta وعلى المصراع الثاني كتبت كلمة Zimmer ـ (١) . ان هذه الحجرة هي مركز الحياة الاجتماعية للموظفين والضباط واثرياء المدينة . ان الناس ، في فندق لوتيكا ، يشربون ويلعبون الورق ، ويغنون ويرقصون ، ويديرون أحاديث جدية ، ويعقدون صفقات ، ويأكلون طيب الطعام ، وينامون على سرر نظيفة . وكثيرا ما كان يتفق لهذا المجتمع نفسه من البكوات والتجار والموظفين أن يصلوا الليل بالنهار والنهار بالليل وهم يشربون ويمرحون الى أن يأخذ منهم التعب والخمر كل مأخذ ، والى أن يبلغ بهم الاعياء من اللعب أنهم يصبحون عاجزين عن رؤية الورق (أن المقامرين لا يلعبون الآن خفية وسرا في الحجرة الصغيرة الحالكة الخانقة بخمارة أوستاموئتش) .

وكانت لوتيكا تطرد في أدب وظرف أولئك الذين أسرفوا في الشراب أو خسروا كل ما يملكون ، وتستقبل الزبائن الجدد الذين لم يسكروا بعد والذين هم في شوق شديد الى الخمر واللعب. لم يكن يعرف أحد ، ولم يكن يتساءل أحد متى ترتاح هذه المرأة ، ومتى تنام ، ومتى تأكل ، ومتى تجد من الوقت ما تنفقه في ارتداء ملابسها والعناية بجمالها . ذلك انها حاضرة دائما (أو هذا ما كان يبدو) تخدم كل فرد ، وتتودد الى جميع الزبائن ، لا تفرق بين أحد وأحد منهم ، ولا تتخلى عن جسارتها وحشمتها في لحظة من اللحظات .

انها فارعة القامة ، ممتلئة الجسم ، عاجية اللون ، سوداء الشعر ، حادة العينين . وهي تعرف كيف تحسن التصرف مع هؤلاء الزبائن الذين يتركون في الفندق مالا كثيرا ، ولكن يدفعهم الشراب الى العنف والوقاحة في كثير من الأحيان . انها تتحدث الى الجميع حديثا حلوا ، جسورا ، فكها ، قارصا ، ملاطفا ، مهدئا ، صوتها أجش متفاوت ، لكنه يستحيل في بعض اللحظات الى سجع كسجع الحمام عميق مدغدغ . وهي ترتكب في كلامها أخطاء ،

(١) أي غرفة باللغة الالمانية .

لأنها لم تحسن تعلم العربية ، فهى تتكلم لغة لذيذة اشارية : لا تحفل بالاعراب أبدا ، ولا تفرق بين مذكر ومؤنث ، ولكنها رغم كل هذا تتفق بالنبرة والمعنى كل الاتفاق مع الطريقة الشعبية فى الكلام) .

وكان كل واحد من الزبائن ينتفع بحضورها فيغازلها ويذكى نار شهواته ما ظل ينفق فى الفندق من ماله ووقته . غير أن هذين الشيئين — أعنى انفاق المال وانفاق الوقت — هما الأمران الوحيدان الدائمان المضمونان ، أما كل ما عداهما فانه يبدو موجودا ، لكن وجوده غير مضمون . كانت لوتيكا ، عند جيلين من المبذرين أو الأثرياء أو البكوات ، أشبه بسراب ، أشبه بطيف ساطع ، باهظ التكاليف ، بارد ، يعبث بحواسهم . وفى الحكايات التى يرويها الناس بعضهم لبعض ، كانت تذكر أسماء عدد قليل نادر من الأفراد استطاعوا أن يحظوا بعطفها ، ولكن هؤلاء انفسهم لايستطيعون أن يقولوا ما الذى حصلوا عليه حقا ، وماهى حدوده .

ولم يكن بالأمر البسيط أو اليسير أن تصطرع هذه المرأة مع هؤلاء الرجال الأثرياء السكارى الذين كثيرا ما كانت تستيقظ فيهم غرائز وحشية ليست فى الحسبان . غير أن لوتيكا ، هذه المرأة التى لا يعرف التعب اليها سبيلا ، هذه المرأة الحاذقة ، الباردة الحواس ، الحاضرة الذهن ، التى يشبه قلبها أن يكون قلب رجل ، كانت تكبح كل حنق وتسكت كل شهوة فى نفوس هؤلاء الرجال الهائجين ، وذلك بتعاون عجيب بين جسدها الجميل ومكرها العميق وحذقها البارع ، فكانت تستطيع دائما ان تجعل بينها وبين كل فرد من هؤلاء الأفراد . مسافة ما ، تزيد فى تأجيج شهواتهم وترفع قيمتها فى نظرهم . كانت تتلاعب بهؤلاء الرجال الهائجين ،فى أشد لحظات سكرهم وفى أعنف لحظات حنقهم ، كما يتلاعب مصارع الثيران بالثور ، ذلك لأنها سرعان ما عرفت هذا العالم واهتدت بسهولة الى سر هذه الشهوات المعقدة فى ظاهر الأمر. انها تعرف جميع الجوانب الضعيفة فى هؤلاء الرجال العاطفيين القساة الشهوانيين . كانت تعرض لهم كل شىء ، وتعدهم بكل شىء ، ولكنها لا تعطيهم الا قليلا ، أو قل لا تعطيهم شيئا البتة ، لأن رغباتهم كانت بطبيعتها لا يمكن أن تشبع ، فكان لابد لهم أخيرا من الاكتفاء بالقليل . كانت تسلك مع أكثر زبائنها سلوكها مع مرضى، سلوكها مع أناس تنتابهم ازمات واضطرابات من حين الى حين .

ويمكن أن يقال على وجه الاجمال انها رغم أن مهنتها ليست بالمهنة الجميلة ولا بالمهنة الشريفة جدا بطبيعة الحال ، كانت امرأة ذات حس سليم وقلب طيب وطبع لطيف ، فهى تعرف كيف تواسى وتساعد رجلا أسرف فى الشراب فوق ما ينبغى له أن يسرف ، أو خسر فىاللعب فوق ما ينبغى له أن يخسر . كانت تجن زبائنها ، لأنهم كانوا مجانين بطبيعتهم ، وكانت تخدعهم لأنهم يريدون أن يخدعوا ، وكانت لا تسلبهم فى آخر الأمر الا ما هم على استعداد لأن يبذروه ويضيعوه . وصحيح أنها جنت مالا كثيرا ، وأنها كانت حريصة على أموالها ، وانها لذلك جمعت منذ السنين الأولى ثروة لا بأس بها ، ولكنها كانت تعرف فى الوقت نفسه كيف تتنازل عن دين من الديون ، أو كيف تنسى خسارة من الخسائر فى كرم وبدون كلام . وكانت تتصدق على المتسولين والمرضى ، وتساعد الأسر الغنية التى أخنى عليها الدهر ، تساعدها فى لباقة وحذر ولطف ، دون كبير ضجة ، وتعين اليتامى والأرامل من أبناء البيوت الكريمة ، وتنجد كل أولئك الفقراء الخجولين الذين لا يسألون صدقة ويؤذيهم أن يقبلوا صدقة ويترددون فى قبولها .

كانت تفعل ذلك كله بحذق كحذقها فى ادارة الفندق ، وكانت تنأى عن السكارى والمتدعرين والوقحين من زبائنها ، تأخذ منهم كل ما تستطيع أخذه ، ثم لا تعطيهم شيئا ، ولكنها لا تصدهم صدا كاملا الى الأبد .

وكان الذين يعرفون الناس ويعرفون التاريخ يقولون فى كثير من الأحيان انها لخسارة حقا أن القدر لم يهب لهذه المرأة الا هذا المجال الضيق الواطىء من مجالات العمل . فلو أن هذه المرأة العاقلة الانسانية التى لا تفكر فى نفسها ، هذه المرأة الطماعة الغيورة فى آن واحد ، هذه المرأة التى تمتاز بالجمال والاغراء من جهة ، وتمتاز بالعفة والبرودة من جهة أخرى ، هذه المرأة التى تدير فندقا من فنادق الريف وتفرغ جيوب اللاهين من أبناء المدينة ، لو أنها كانت غير ما كانت ، ولو أن الظروف وضعتها فى غير هذا الموضع ، لكان يمكن أن يكون لها شأن آخر ، ولكان يمكن أن تحقق أعمالا لاتخطر ببال أحد .. فلربما أصبحت واحدة من تلك النساء الشهيرات اللاتى يتحدث عنهن التاريخ ، اللاتى يتحكمن بمصائر أسر كبيرة ، وبمصائر عروش ودول ، ويسرن بالأمور دائما نحو ما هو أفضل .

فى ذلك العهد ، فى نحو عام ١٨٨٥ ، بينما كانت لوتيكا فى أوج

قوتها ، كان هناك شباب من ابناء الأثرياء يقضون أيامهم ولياليهم في تلك القاعة الصغيرة ذات البابين الزجاجين غير الشفيفين . كانوا يجلسون هنالك عند الفسق قرب المدفأة ، وقد ذبلت عيونهم من النعاس والوسن ، لم يستيقظوا تماما ولا صحوا من سكر الليلة البارحة ، نسوا من فرط التعب والنعاس أين هم من الدنيا وماذا ينتظرون . فكانت لوتيكا تنتهز هذه الهدنة ، فتنسل الى الطابق الأول من الفندق ، الى غرفة صغيرة مخصصة للخادمات ، اتخذتها لوتيكا مكتبا لها ، ومنعت أن يدخلها أحد . ان الغرفة مزدحمة بأنواع شتى من الأثاث ، والصور الفوتوغرافية ، والأشياء الذهبية والفضية والبللورية . وفي هذه الغرفة كان يختبىء ، وراء ستارة ، صندوق حديدي مدهون بلون أخضر ، ومكتب صغير غارق في أوراق وبطاقات وايصالات وحسابات وجرائد المالية وقصاصات من اسعار البورصة وقوائم بأرقام أوراق اليانصيب الرابحة .

ففي هذه الحجرة الصغيرة الضيقة ، المزدحمة الخانقة ، التي تطل نافذتها (وهي أصغر من سائر النوافذ) اطلالا قريبا مباشرا على القنطرة الأولى أضيق قناطر الجسر ، كانت لوتيكا تقضي ساعات فراغها ، وتعيش ذلك النصف الآخر السري من حياتها الذي لاشأن به لأحد غيرها .

هنالك كانت لوتيكا ، أثناء لحظات الحرية التي تختلسها من عملها ، تقرأ أخبار البورصة ، وتدرس الاعلانات ، وتنظم حساباتها ، وتجيب على رسائل البنوك ، وتتخذ قراراتها ، وتصدر أوامرها ، وتعد أموالها ، وترسل ودائع جديدة . هناك كان يتم الجانب المجهول من عملها ، هناك كان ينقضي الجزء الخفي الحقيقي من حياتها ، لا يعلم به أحد تحت ، ولا يعلم به أحد من سائر الناس .

هنالك كانت تخلع عن وجهها القناع الباسم ، فاذا بالوجه قاس ، واذا بالنظرات حادة مظلمة . من تلك الغرفة كانت تكتب رسائلها الى أفراد أسرتها الكبيرة العدد ، أفراد أسرة آبفلماير بمدينة تارنوفو ، من اخوة متزوجين وأخوات متزوجات ومن أقرباء وقريبات ، وهم جميعا يهود فقراء جدا يرجع أصلهم الى جاليسيا الشرقية ، وقد تفرق شملهم الآن ، فبعضهم في جاليسيا ، وبعضهم في النمسا ، وبعضهم في المجر . كانت توجه من هذه الغرفة مصير اثنتي عشرة عائلة يهودية ، تتدخل في ادق التفاصيل من حياة

أفرادها ، تقضى فى شئون زواجهم ، وترسل الأولاد الى المدرسة أو الى تعلم صناعة من الصناعات ، وتداوى المرضى ، وتوبخ الكسالى والمبذرين ، وتثنى على المقتصدين والعاملين النشيطين ، وتفض ما يشجر من خصومات بين أعضاء الأسرة ، وتسدى بالنصح فى حالات الخلاف أو الحيرة ، وتحض الجميع على أن يسلكوا فى الحياة سلوكا أعقل وأحسن وأكرم ، وتهيىء لهم فى الوقت نفسه أسباب ذلك ، اذ تشفع كل رسالة من رسائلها بحوالة تمكن من اتباع نصيحتها وتنفيذ وصاياها ، واشباع حاجة من الحاجات المادية أو الروحية ، واتقاء شر من الشرور . وكانت لوتيكا تجد فى رفع شأن أسرتها على هذا النحو وفى تسيير أمور كل فرد من أفرادها ، كانت تجد فى ذلك لذتها الحقيقية الوحيدة ، وتجد فيه ثوابها عن كل ما تتحمل من أعباء ، وعن كل ما تنازلت عنه من متاع هذه الحياة . كانت كلما ارتفع فرد من أفراد أسرة آبفلماير ، رجلا كان أو امرأة ، كلما ارتفع فى سلم المجتمع ولو درجة واحدة ، تشعر أنها هى التى ترتفع ، وتجد فى ذلك عزاء عن عنائها الكثير ، وحافزا الى بذل مزيد من الجهود فى المستقبل .

وكان يتفق فى بعض الأحيان أن تصعد من القاعة الصغيرة الى حجرتها ، وقد بلغت من التعب والاشمئزاز أنها لا تقوى على كتابة رسالة من الرسائل ، ولا على قراءة رسالة من الرسائل ، ولا على مراجعة حساباتها ، فكانت فى مثل تلك الأحوال تكتفى بالجلوس الى النافذة الصغيرة تستنشق ملء رئتيها الهواء الطرى الذى يتصاعد من النهر ويختلف كل الاختلاف عن هواء القاعة تحت . وكانت نظراتها تقع عندئذ على القنطرة الحجرية القوية الرشيقة التى تحجب الأفق كله ، وعلى الماء السريع الذى يجرى تحتها . ان القنطرة هى هى نفسها ، سواء فى وضح النهار ، وعند المساء ، وساعة طلوع الفجر ، وفى ضوء قمر الشتاء ، وتحت أشعة النجوم الهادئة . ان جانبى القنطرة يشد كل منهما الآخر إليه ، ويلتقيان فى ذروة حادة ، ويتساندان فى توازن كامل لا يتزعزع . وتعودت لوتيكا مع مرور السنين أن تكون هذه القنطرة أفقها الوحيد المألوف والشاهد الأخرس الذى تتجه اليه هذه اليهودية ذات الوجهين فى اللحظات التى تنشد فيها الراحة ، وحين تصل فى أعمالها وشئونها العائلية التى تحلها دائما وهى وحيدة ، حين تصل فى هذه الأعمال والشئون الى عقدة تستعصى على الحل ، أو الى طريق مسدودة غير نافذة .

غير أن لحظات الراحة هذه كانت لا تدوم مدة طويلة ، اذ كان يتفق دائما أن يقطعها صياح آت من المقهى تحت ، فاما أنه نداء زبائن جدد يطلبون حضورها ، واما أنه صياح سكير صحا وذهب سكره ، فهو يريد شرابا جديدا ، ويطلب اشعال المصابيح ، واستدعاء الموسيقيين ، وينادى لوتيكا . وعندئذ كانت لوتيكا تخرج من مكمنها ، وتحكم اقفال الباب بمفتاح خاص ، وتنزل لاستقبال الزبون أو لتهدئة السكير بابتسامتها المعهودة ولغتها الخاصة ، كما يهدأ طفل استيقظ ، ولتجلسه الى المائدة ، فيستأنف القصف ، والشراب ، والحديث ، والغناء ، وانفاق المال .

ذلك ان الأمور تكون قد فسدت أثناء غيابها ، وتشاجر الزبائن ، فهذا شاب من بكوات تسرنتشا ، شاحب الوجه ، متوحش النظرة ، يسفح على الأرض كل ما يقدم له من شراب ، ويتشكى ويتذمر من كل شيء ، ويشاجر الخدم والزبائن . انه منكب على الشرب فى الفندق منذ أيام الا فى فواصل قصيرة ، وما ينفك يرغب فى لوتيكا رغبة عنيفة ، الا انه يشرب شربا يتضح منه أنه مدفوع الى ذلك بألم يجهله هو نفسه : ألم أعمق كثيرا وأكبر كثيرا من حبه ليهودية تارنوفو الجميلة التى لا تبادله اياه ، وأكبر من غيرته عليها .

وهذه لوتيكا تقترب منه على غير وجل ، تقترب منه اقترابا يسيرا طبيعيا وتقول له :

ــ ماذا حصل يا ايوب ؟ لماذا تصرخ يا عزيزى ؟

فيقول لها السكير مدمدما ، وقد هدأ صوته وطرفت عيناه ، ونظر الى شبح ظهر له فجأة :

ــ أين كنت ؟ أريد أن أعرف أين كنت .. انهم يقدمون لى هنا سموما لأشربها .. انهم يسممونني .. ولكنهم لا يعلمون اننى أنا اذا ..

فتقول المرأة مهدئة ، وهى تحرك يديها البيضاوين المعطرتين قرب وجه البك :

ــ ابق جالسا ، ابق جالسا فى هدوء .. سأجيء لك بلبن العصفور اذا أردت .

وتنادى الخادم ، وتأمر للشاب بشيء باللغة الألمانية .

ــ لا تتكلمى أمامى بشيء لا أفهمه .. لا ترطنى .. فرتسين .. فوفتسين .. لأننى .. أنت تعرفينني ..

ــ أعرفك ، أعرفك ، يا أيوب . لا أعرف أحدا مثلما أعرفك .

ـ طيب .. مع من كنت ؟ قولى ..

ويستمر الحديث هكذا بين السكير والمرأة الموجزة ، يستمر هكذا بلا نهاية ، ولا هدف ، ولا نتيجة ، الى جانب زجاجة من الخمر انغالى الثمن وقدحين : قدح للوتيكا يظل ملآن ، وقدح لأيوب ما ينفك يمتلىء ويفرغ بغير انقطاع .

وهاهى ذى لوتيكا بينما يمضى الفتى التنبال مدمدما متمتما بلسانه الذى أثقلته الخمر ، هاذرا أنواعا من الهذر عن الحب والموت وعذاب الحب الذى لا دواء له وغير ذلك من أمور تعرفها لوتيكا عن ظهر القلب ، لأن كل واحد من سكارى البلد يرددها على هذا النحو نفسه ، ها هى ذى لوتيكا تنهض وتقترب من الموائد الأخرى التى يجلس اليها زبائن آخر ممن يجتمعون بالفندق عند المساء بغير تخلف .

ان حول مائدة من هذه الموائد عددا من الأثرياء الشباب الذين لم يبدأوا ارتياد المقاهى وتعاطى الشراب الا منذ عهد قصير . انهم ريفيون أدعياء ، رأوا أن خان زاريا أصبح مملا كثير الاملال وأصبح لا يليق بمقامهم ، ولا يزالون مع ذلك يشعرون فى الفندق بشىء من الخجل والحرج . وحول مائدة أخرى جلس عدد من الموظفين الأجانب ، وجلس ضابط ترك الحلقة العسكرية فى هذا اليوم وارتضى أن يهبط الى مستوى فندق المدنيين ، لأنه ينوى أن يطلب الى لوتيكا امداده بقرض مستعجل . وحول مائدة ثالثة جلس المهندسون الذين يمدون الخط الحديدى خلال الغابات لتصدير الأخشاب .

وفى الركن تماما جلس بافلى رانكوفتش وهو من أصغر الشباب سنا ، لكنه فى الوقت نفسه من أوسع المالكين ثراء ، وجلس معه مقاول نمسوى يعمل فى الخط الحديدى ، وقد انكب الاثنان على المائدة يحسبان .. ان بافلى يرتدى ثيابا من الزى التركى ، وعلى رأسه طربوش أحمر لا يخلعه فى المقهى . ان له عينين صغيرتين سوداوين (أشبه بشقين ملتمعين) مائلتين فى وجهه الضخم الشاحب ، لكنهما تستطيعان أن تتسعا اتساعا كبيرا وأن تصبحا كبيرتين متقدتين ضاحكتين ضحكا شيطانيا فى اللحظات النادرة من الفرح أو النصر . أما المقاول فهو يرتدى بدلة رمادية رياضية ، وينتعل جزمتين صفراوين عاليتين لهما بندان يصلان الى الركبة . انه يكتب بقلم مذهب ذى سلسلة من الفضة ، بينما يكتب بافلى بقلم ضخم من أقلام الرصاص كان قد نسيه فى دكانه منذ خمس سنين نجار من النجارين العسكريين حين كان يشترى منه مسامير ورزات . ان الرجلين يعقدان

اتفاقاعلىاطعام العمال الذين يعملون فى مد الخط الحديدى. انهماغارقان فى عملهما ، يضربان ويقسمان ويجمعان ، ويرتبان ارقاما بعضها يرى على الورق وهو ما يحاول كل منهما أن يقنع به صاحبه وأن يخدعه به ، وبعضها لا يرى وانمـــا يحتفظ به كل منهمـــا فى ذهنه ، وهو ما يحسب كل منهما لنفسه ، على أساسه ، بجهد وسرعة ، مايستطيع ان ينتهز من فرص وأن يحقق من أرباح .

طافت لوتيكا على هؤلاء الزبائن ووجدت لـكل منهم كلمة طيبة ، أو ابتسامة كريمة ، أو نظرة صـامتة مليئة بالادراك والفهم . ثم عادت الى البك الشاب الذى استأنف صياحه وعنفه .

وفى خلال الليل ، بينما القاعة تعج بالشراب مع كل ما يتعاقب أثناء الشراب من فترات الصياح العاصف والحماسة والتباكى والوحشية ، مما تعرفه لوتيكا أتم معرفة ، لابد ان توافى لحظة من هدوء تستطيع لوتيكا فى أثنائها أن تعود الى غرفتهـــا . فتستأنف راحتها فى الضوء الشاحب الذى ينشره مصباحها الخزفى ، أو تعاود كتابة رسائلها الى ان يقع حادث جديد يستدعيها الى تحت .

وتتـكرر الحـكاية نفسها فى الغد ، مع ذلك البك القاصف السكران ذى النزوات أو مع شخص آخر مثله.. ويستمر بالنسبة الى لوتيكا ذلك الهم نفسه الذى يجب أن تواجهه باشة مبتسمة ، وذلك العمل نفسه الذى يظل يبدو لعبا خفيفا لا يهدأ .

انه ليتراءى للمرء أن من غير المفهوم ومن غير المعقول ان تستطيع لوتيـــكا تدبير امورها ومواصلة القيام بعملها فى زحمة هذه الأعبـــاء المتنوعة التى تمـــلأ أيامها ولياليها ، وتقتضيها من سعة الحيلة ما لا تملكه امراة ومن القوة ما لا يطيقه رجل . ومع ذلك كانت لوتيكا تقوم بذلك كله دون شكاة ، وكانت فى معالجة أمورها لا تشرح لأحد شيئا ، ولا تحدث أحدا عما فعلته أو عما ستفعله . والى جانب هذا كله كانت تستطيع فى توزيع وقتها أن تقف ساعة من كل يوم على صديقها على بك باشتش .

ان على بك باشتش هو الرجل الوحيد الذى يقال فى المدينة انه حظى بمودة لوتيـــكا حظوة حقيقية لا شأن لها بأى حساب . ولـــكن هذا الرجل أشد النـــاس انطواء على نفسه واكثرهم صمتا فى المدينة كلها . انه أكبر أخوته الأربعة ، ولـكنه لم يتزوج (والناس فى المدينة يقدرون أن لوتيـــكا هى السبب فى بقـــائه بلا زواج) . وهو لا يعنى بشئون أعماله ، ولا يشارك فى الحياة العامة بالمدينة ، ولا يتعاطى

الشراب ، ولا يقصف ولا يلهو مع الأصـدقاء الذين هم فى سنه . يضاف الى ذلك ان مزاجه واحد لا يتقلب ، فهو لطيف محبب دائما ، متحفظ دائما ، مع جميع الناس على السواء ، بلا تفريق . وهو رغم سكوته وانطـوائه على نفسه ، لا يهرب من لقاء الناس ولا يتحـاشى الحديث معهم ، ومع ذلك لا يذكر له أحد رأيا من الآراء ، ولا ينقل احدعنه كلاماقاله. انه مكتف بنفسه، راض كل الرضا عن حاله وعن رأى غيره فيه . انه ليس فى حاجة الى أن يكون أو الى أن يبدو على غير ما هو عليه ، ولا ينتظر أحد منه ولا يطلب أحد منه شيئا آخر . انه واحد من أولئك الرجال الذين يحملون نبالتهم لقبا ثقيلا وقدرا بملأ حياتهم تماما ، وهى نبالة فطرية ، كبيرة ، جليلة ، تبريرها فى ذاتها ، ولا يمكن تعليلها ولا انكارها ولا تقليدها .

ولم يكن للوتيـكا كبير شأن بزبائن القـاعة الـكبرى . فانما كانت القـاعة الكبرى من اختصاص الساقية مالتشيكا والساقى جوستاف. اما مالتشيكا فهى معروفة فى المدينة كلها بأنها مجرية راجحة العقل اشبه بزوجة مروض من مروضى الحيوانات الكاسرة . وأما جوستاف فهو ألمانى من بوهيميا أحمر الشعر ، قصير القـامة ، نزق الطبع ، محتقن العينين بالدم ، متباعد السـاقين ، مسـطح القـدمين . ان هـذين الخادمين يعرفان جميـع الزبائن بل وجميـع سكان المدينة على وجه الاجمال ، يعرفان من يدفع ماعليه بانتظام ، ويعرفان مزاج كل واحد من الزبائن حين يستبد به السكر ، ويعرفان من يجب أن يستقبلاه فى فتور ، ومن يجب أن يستقبلاه فى حرارة ، ومن يجب أن يمنعاه من الدخول لأنه ليس أهلا لدخول « هـذا الفندق » . وهما يحرصـان على أن يشرب الزبائن كثيرا وعلى أن يدفعوا ما عليهم باطراد ، ولكنهما يحرصان أيضا على أن ينتهى كل شىء بحشمة كما يجب أن ينتهى ، لأن مبدأ لوتيكا هو : «لافضائح (١)» حتى اذا ما اتفق فى بعض الاحيان من قبيل الاستثناء أن خرج أحد عن صوابه من السكر ، أو حاول أحد أن يدخل الى الفندق عنوة بعد أن شرب فى خمارات أخرى من خمارات الطبقة الثانية ، فعندئذ كان يظهر الخادم ميلان ، وهو فتى فارع القامة عريض المنكبين بارز العضلات . ان ميلان هذا الذى يرجع أصله الى مدينة ليكا ، رجل يملك قوة هرقلية ، ويتكلم قليلا ، ولـكنه يقوم بجميع الأعمال . انه يرتدى دائما ما يليق بخادم فندق أن يرتديه من ثياب (ان لوتيكا

(١) باللغة الالمانية فى النص .

تسهر على كل شيء) : صدرة فوق قميص أبيض ، مئزر من جوخ أخضر فى الشتاء والصيف على السواء ، والـكمان مشموران الى الـكوعين بحيث يرى الزندان الضخمان الأشعران الأسودان كأنهما فرشاتان كبيرتان . ولميلان شاربان صغيران مصففان ، وشعر أسود خشن مدهن بعطر مما يتدهن به العسكريون . ان ميلان هو الذى يخنق كل فضيحة فى مهدها .

ولهذه العملية المزعجة الكريهة التي يقوم بها ميلان خطة وضعت منذ مدة طويلة واصبحت عادة معروفة . فاذا سكر احد الزبائن حتى أصبح عنيفا ، أخذ جوستاف يلاطفه الى أن يصل ميلان ، فيقترب عندئذ ميلان من وراء ظهره ، ويبتعد عنه جوستاف فجأة ، فيمسك ميـلان بالرجل السكران من حزامه باحدى يديه ، ويمسك باليـد الأخرى ياقته ، وهو يبلغ من البراعة والسرعة فى ذلك أن احدا لم يستطع يوما أن يرى كيف « ينشب » ميلان يديه فى الرجل ، ثم اذا بالسكران ، ولو كان أقوى أقـوياء المدينة ، يطير كعروسة من عرائس القش نحو الباب الذى تفتحه مالتشيكا فى اللحظة المناسبة ، ثم اذا هو يمضى من الباب الى الشارع راسا ، فيرمى اليه جوستاف بطاقيته أو عصاه أو غير ذلك مما يكون قد بقى من متاعه ، ويندفع ميلان بكل ثقله ، فيرخى ستارة الباب الحديدية . يتم ذلك كله بغمضة عين ، على نحو متسق منسجم ، فما يكاد يلتفت الزبائن حتى يكون الزائر المطرود قد أصبح فى الشارع ، فلا يسمعه ، اذا كان قـد جن جنونه تماما ، الا أن يأخذ يضرب الستارة الحديدية بسكينة أو بحجر ، كما تدل على ذلك آثار باقية فى الستارة ، غير أن الفضيحة لاتكون عندئذ فى الفندق بل فى الشارع ، ويكون اخمادها عنـدئذ من شأن رجال الشرطة ، ومنهم من يقف دائما قرب الفندق على كل حال .

ولم يحدث لميلان يوما ما يحدث لغيره من عمال الفنـــادق الآخرين ، كأن يقاومه السكران الذي يراد طرده ، فاذا هو يقلب وراءه الموائد والكراسى أو يبلغ من قوة التشبث بالباب بيديه وقدميه أن زوجين من الثيران لا يستطيعان عندئذ أن يجراه الى الخارج . وكان ميلان لا يظهر فى هذه العملية لا حماسة شديدة ولا مزاجا عكرا ولا ميلا عنيفا الى القتال ، ولا زهوا شخصيا . لذلك كان يتمها على هذا النحو من الاحكام والاسراع . وما أن تنقضى دقيقة واحدة على طرد الزبون ، حتى يكون ميلان قد عاد الى مكانه فى المطبخ أو المغسل ، كأن شيئا لم يقع .

ولكن جوستاف كان يجتاز الباب عندئذ الى القاعة الصغرى ، كأنما يفعل ذلك عرضا ، فينظر الى لوتيكا الجالسة الى احدى الموائد مع زبائن أرقى ، ويغمض عينيه فجأة ، فتفهم لوتيكا أن شيئا ما قد وقع ، وأن الأمر قد سوى ، فتطرف لوتيكا عندئذ بكلتا عينيها ، دون أن تقطع حديثها ودون أن تفارقها ابتسامتها ، تطرف بسرعة كسرعته ، لا يفطن اليها أحد ، وكان ذلك يعني : « طيب شكرا ، ولتظل يقظا منتبها الى النهاية » .

ولا يبقى بعد ذلك الا أمر ما شربه الزبون المطرود وما كسره . فكانت لوتيكا تعفى جوستاف من المبلغ ، حين يجردان حساب النهار في ساعة متأخرة من الليل وراء حاجز أحمر .

الفصل الخامس عشر

ثمة طرق عدة يمكن أن يلجأ اليها الزبون الصاخب الذى طرد من الفندق على ذلك النحو البارع — اذا هو لم يقتد من الفندق الى السجن رأسا — ليسترد قواه ويهدأ مما وقع له. فاما أن يمضى مترنحا الى الكابيا يبترد بطرواة الهواء الذى يتصاعد من النهر ويهب من الروابى المجاورة ، واما أن يستبدل بالحانة التى كان فيها حانة أخرى ، فيذهب الى خان زاريا الذى لا يبعد عن الفندق بميدان البلدية ، وهناك يأخذ يصر بأسنانه على ما يشاء له هواه ، ويهدد ويشتم اليد التى أمسكت به على غفلة وطردته من الفندق ذلك الطرد الغادر الخئون الذى لم يستطع دفعه . فى هذا الخان ، بعد أن يهبط الظلام ويتفرق ارباب الأسر والرجال العاملون الذين لا يجيئون الى هذا المكان الا ليشربوا النصيب الذى اعتادوا أن يشربوه من الخمر ، لا تقع فضيحة من الفضائح ولا يمكن أن تقع ، لأن كل انسان هنا يشرب ماشاء له هواه أن يشرب فى حدود قدرته على دفع الثمن ، وكل انسان هنا يتصرف كما يحب ، ويقول ما يشتهى أن يقول . هنا لا يطلب من الزبائن أن ينفقوا وأن يسكروا شريطة أن يتصرفوا تصرف من لم يشرب . واذا جاوز أحد الحدود ، كان هنالك زاريا ، الرجل الثقيل الصموت ، المتجهم الوجه المعتكر المزاج ، الذى يفل سلاح السكارى والمتشاجرين ويثبط عزائمهم مهما بلغوا من شدة الهياج ، فهو يهدئهم بحركة بطيئة من ذراعه الثقيلة ، وبصوته المنخفض .

— هيا .. هيا .. دع هذا .. لا تلعب بالنار .. دع هذا الامر السخيف .

ولكن حتى فى هذه الخمارة العتيقة التى ليس لها قاعة منفصلة ، وليس فيها « جرسون » مقهى (لأن فتى من السنجق هو الذى يتولى الخدمة فيها دائما بملابس الفلاحين) حتى فى هذه الخمارة كانت تختلط العادات الجديدة بالعادات القديمة اختلاطا غريبا .

ان المشهورين والقدامى من شاربى الراكيا ينزوون هنا فى أركان مظلمة صامتين ، يكرهون الضوضاء والفوضى ، ويحبـــون الظـل والصمت فى هذا الركن الذى يجلسون فيه الى قدح الراكيا جلوسهم الىشيء مقدس. انهم جالسونجلستهم هذه يشربون وقد احترقت معدهم والتهبتاكبادهموتوترتأعصابهم وطالتلحاهم ورثتملابسهم ولم يحفلوا بأحد واشمأزوا حتى منأنفسهم، يشربون وهم ينتظرون أن يشتعل فى نفوسهم أخيرا ذلك الضياء المعجز العجيب الذى يحمله الشراب لمن انقطعوا اليه انقطاعا كاملا ، ذلك الضياء الذى يستعذبون فى سبيله العذاب والسقوط والموت ، والذى كلمـا انقضت السنون أصبح انبجاسه ــ وا أسفاه ــ أندر وأضعف .

ولكن المبتدئين اميل الى الثرثرة والصخب ، وخاصة أبناء الأثرياء الشباب الذين يجتازون السن الخطرة ، الذين يخطون فى طريق الشر خطواتهم الأولى ، الذين يدفعـــون ضريبة يدفعها جميع الناس لآفة الشراب وآفةالفراغ ، فبعضهم الى حين ، وبعضهم الى الأبد . على أن أكثر الناس لا يبقون فى هذه الطريق مدة طويلة ، بل يتحـــولون عنها ، وينشئون أسرة ، ويسعون الى الربح ، والعمل ، والحياة البرجوازية ، والرذائل المتخفية ، والأهواء المتوسطة . ولا يبقى فى هذه الطـريق الا قلة قليلة من الأشقياء الذين كتب عليهم الشقاء ، فهؤلاء يواصلون خطاهم فيها ، لأنهم آثروا على الحياة الخمر، وهى فى هذه الحياة القصيرة الخادعة وهم أقصر وأخدع . انهم يعيشون للخمر ويفنون فيها ، الى أن يصبحوا كهؤلاء الجالسين هنا فى الركن قاتمين بلهاء متورمين .

منذ استقرت هذه العادات الجديدة ــ الحيـاة التى لا نظـام فيها ولا مراعاة ، والتجارة التى ازدادت حركة ونشاطا ، والأرباح التى ربت وارتفعت ــ أصبح يجىء الى حانة زاريا ، عدا الفجرى سومبو الذى يرافق جميع احتفالات المدينة بشبابته البدائية ، منـذ ما يقرب من ثلاثين عاما ، أصبح يجىء الآن فرانتس فورلان ويعزف على الأكورديون . انه رجل نحيل أحمر ، فى اذنه اليمنى قرط من ذهب . ان مهنته هى التجارة ، ولـكنه يحب الموسـيقى والخمر حبا جما . والجنود والعمـــال الأجانب يحبون أن يستمعوا الى موسيقاه .

ويتفق فى كثير من الأحيان أن يكون فى الحانة عازف على الجوزلا، هو رجل من الجبل الأسود ، نحيـــل كناسك ، رث الملبس لـكنه

منتصب القامة مضيء النظرة ، جائع ولكـنه متحفظ ، متكبر متغطرس ولـكنه مضطر أن يعيش على الصدقات . انه يظل خلال بعض الوقت جالسا فى ركن من الأركان ، منزويا عن الناس صراحة لا يطلب شرابا وينظر الى أمام ، يتظاهر بأنه لا يلاحظ شيئا ، ولا يحفل بشيء ، ومع ذلك يدرك المرء أن فى ذهنه أفكارا أخرى ونيات أخرى تختلف كل الاختلاف عن تلك التى يوحى بها مظهره .

ان عددا من العواطف المتناقضة يصطرع فى نفسه ، وخاصة عظمة ما يحمله فى قلبه وبؤس ما يمكن ان يظهره للناس . وهو لذلك يحس دائما أمام الناس بشيء من الاضطراب والخجل والحرج . انه يجلس فى مكانه متكبرا صبورا ، ينتظر أن يطلب أحدهم أغنـــــية ، حتى اذا طلب أحدهم أغنية ما ، سل شـــبابته من كيسه فى تردد ، ثم نفخ فيها ، وتأكد من أن القوس لم ترتخ من الرطوبة ، واخذ « يدوزن » الآلةالموسيقية ، راغبا رغبة واضحة فى ألا يلفت انتباه أحد الى اعداداته الفنية هـذه . وحين يسحب القوس على الوتر أول مرة ، لا يسمع المرء الا صوتا مرتجفا ، متفاوتا كطريق بللته مياه الأمطار . ولكنه يأخذ يصاحب الجوزلا بغناء رقيق من أنفه مع بقـاء فمه مطبقا ، مكملا بذلك صوت الجوزلا موفقا بينه وبين صوته ، حتى اذا انصهر الصوتان انصهارا تاما فى صوت شاك مطرد ينسج للأغنية فراشا مظلما ، رأيت هذا الشيطان البائس يتحول تحولا مفاجئا بما يشبه السحر ، فالخجل الأليم يزول ، والتناقضـــات الداخلية تهدأ وتمحى ، والصعوبات الخارجية تنسى جميعا . ان العازف يرفع رأسه عندئذ دفعة واحدة ، كرجل ينزع عن وجهـه قناع التواضع لأنه لم يعد فى حاجة الى أن يخفى عن النـــاس من هو وماذا يصنع . ويبدأ يغنى بصوت لا يتوقع المرء أن يكون على هذا القدر من القوة ، منشدا بعض الأبيات الاستهلاكية :

اخذ فرع الريحان يبكى قائلا :

يا أيها الندى الرقيق ، لماذا لا تسقط على ؟

فيسكت الزبائن فجأة ، بعد ان كانوا يتظاهرون بأنهم لا يلاحظون شيئا بل يتحدثون . انهم منذ سمعوا هذين البيتين الأولين ، قـد سرت فى نفوسهم جميعا رعدة واحدة ، لا فرق فى ذلك بين أتراك ومسيحيين ، من شدة ظمئهم الى ذلك الندى الذى يعيش فى الأغنية كما يعيش فى أنفسهم ، دون فرق أو تمييز :

ولكن حين اردف المغنى يقول بصوت أخفض :

لم يكن هذا فرع ريحان .
وحين نزع حجاب الاستعارة والتشبيه ، واخذ يعـــدد الرغبات والمصـــائر الحقيقية ، التركية والصربية ، التى تختبىء وراء صورة الندى وصورة فرع الريحان انقسمت العواطف لدى المستمعين وسارت فى طرق مختلفة باختلاف ما يشعر به كل فرد وما يرغب فيه ومايعتقد به . ومع ذلك فانهم جميعا يصغون الى الأغنية بهدوء حتى النهاية . وفقا لقانون غير مكتوب ، ويصبرون ويكتمون ما فى انفسهم ولا يظهرون شيئا مما يعتلج فى صدورهم ، وانما يكتفى كل منهم بالنظر الى القدح الصغير الذى أمامه حيث يتراءى له على صفحة الراكيا الرائقة النصر الذى يرغب فيه ، وتتراءى له المعارك والأبطال ، والمجد والسنا ، وغير ذلك مما لا وجود له فى اى مكان بالعالم .
وحين يظل السادة الصغار وأبناء الأثرياء يشربون مدة طويلة ، تبلغ الحركة اوجها فى الحانة . وعندئذ يكون هناك عمل لسومبو ، وفرانتس فورلان ، والأعور وشيخا الغجرية .
ان شيخا غجرية حولاء ، مسترجلة ، وقحة ، تشرب مع جميع من يستطيعون أن يدفعوا ، ولكنها لا تسكر أبدا ، ولا يمكن أن يتصور المرء حفلة من حفلات السكر تخلو منها ومن أمازيحها البذيئة .
ان الناس الذين يتسلون مع الأعور وسومبو وشيخا يتغيرون من حين الى حين ، ولـــكن الأعور وسومبو وشـيخا لا يغيبون . انهم يعيشون بالموسيقى والمزاح والراكيا . ان عملهم الذى يقومون به هو تسلية الآخرين ، وان الربح الذى يجنونه هو ما يبدده الآخرون ، وان حياتهم الحقيقية هى أثناء الليل ، فى تلك الساعات الشـــاذة التى يخلد فيها الأصحاء والسعداء الى النوم ، فى تلك الساعات الشاذة التى تخلق فيها الراكيا والغرائز المكبوحة الى ذلك الحين حالة نفسية عاصفة براقة ، وحماسات غير متوقعة ، تظل هى نفسها فى كل مرة ، ولـكنها تبدو فى كل مرة ايضا جديدة ، وتبدو فى كل مرة أجمل منها فى اى وقت مضى . ان أولئك الثلاثة هم الشهود الصامتون المأجورون الذين يتجرأ كل انسان أن يظهر أمامهم على حقيقته (أو كما يقول التعبير الصربى الكروانى أن « يظهر الدم الذى تحت جلده ») دون أن يشعر بعد ذلك بندامة أو خجل . ان كل شىء مباح معهم وأمامهم ، كل شىء مما لو ظهر لغيرهم لعد فضيحة وعارا ، ومما لو قارفه المرء فى بيته نفسه لكان اثما ولـكان شيئا مستحيلا . ان جميع أولئك الآباء وأولئك الأبناء ، الموسرين ، المعتبرين ، الذين ينتمون الى أسر

طيبة ، يستطيعون بالتستر وراء اسم هؤلاء المسلمين ووراء مسئولية هؤلاء المسلمين ، يستطيعون خلال لحظة من اللحظات أن يظهروا بما لا يجرءون ان يظهروا به امام احد من الناس . وهم عندئذ يظهرون على حقيقتهم أو على جزء من حقيقتهم من حين الى حين فى أقل تقدير : فالقساة يستطيعون أن يسخروا بهم وان يضربوهم ، والهيابون يستطيعون أن يشتموهم ، والمبذرون يستطيعون أن يقدموا اليهم الهدايا ، والمزهوون يستطيعون ان يشتروا منهم الثناء والمديح ، والمكتئبون وأصحاب النزوات يستطيعون أن يتمتعوا بامازيجهم واعمالهم الشاذة ، والفجر والعهرة يستطيعون أن يتلذذوا بتصرفاتهم الجريئة أو بما يقدمون لهم من خدمات أخرى .. انهم حاجة أبدية لا يعترف بها أولئك الذين كبحت حياتهم الروحية وتشوهت من سكان المدينة . انهم أشبه بفنانين فى بيئة لا تعرف الفن والمدينة لا تخلو يوما من رجال ونساء من هذا الطراز، مفنين أو ماجنين أو شاذين او مهرجين ، حتى اذا اهترأ أحد منهم ومات ، حل محله غيره . اذ الى جانب المعروفين منهم والمشهورين ينشأ ويترعرع دائما جدد يساعدون على قتل الوقت ويشيعون المرح فى حياة الأجيال الجديدة . ولكن سينقضى وقت طويل قبل أن يظهر رجل مثل سالكو الأعور .

حين وصل الى المدينة بعد الاحتلال أول « سيرك » ، توله الأعور بفتاة كانت ترقص على الحبل ، وبسبب هذه الفتاة ارتكب أنواعا من الحماقات وضروبا من الشذوذ سجن من أجلها وضرب ، كما أن الأغنياء الذين لم يمنعهم خلق من التفرير به ودفعه الى تلك التصرفات فرضت عليهم غرامات كبيرة .

وقد انقضت الآن على تلك الأيام بضع سنين ، وتعود الناس امورا كثيرة ، وأصبح وصول الموسيقيين والبهلوانات والحواة من الأجانب لا يحدث اثارة عامة شاملة معدية كما كان الأمر فى الماضى يوم وصول أول سيرك ، غير ان الناس لايزالون يتحدثون عن غرام الاعور بالراقصة .

ان الأعور لايزال منذ مدة طويلة يفنى فى خدمة الناس ، يخدمهم فى النهار جميعا فى كل شأن من الشئون ، وفى الليل يخدم البكوات منهم بتسليتهم اذ يشرب ويطيش صوابه ويتصرف تصرفات تحدث الفوضى . وهكذا دواليك من جيل الى جيل ، فكلما هجر بعضهم هذا النوع من الحياة واحتل مكانته فى المجتمع وتزوج وهدأ ، شبت أجيال

جديدة تتبع هذه المراحل نفسها . وقد ضوى الأعور الآن، وشاخ. وهو الآن ينفق من وقته فى الحانة أكثر مما ينفق منه فى العمل ، ويعيش على ما يجنيه من ربح أقل مما يعيش على ما يقـدمه اليه الأغنياء من صدقات وشراب وفتات .

والناس المجتمعون فى خمارة زاريا فى الليالى الممطرة من ليالى الخريف ، يغرقون فى الملل والضجر . وهؤلاء بعض الأغنيـاء قد جلسوا الى احدى الموائد . ان فكرهم بطيء ، ما ينفك يدور حول أمور حزينة مزعجة ، وكلامهم ثقيل محنق يدوى فى فراغ ، ووجوههم باردة غائبة مرتابة . ان الراكيا نفسها عاجزة عن تنشيط مزاجهم . وهذا هو الأعور قد جلس على مقعد فى ركن من الخمارة ، وراح النعاس يغمض جفنيه . انه مهدود القوى من التعب ومن الحر الرطب ومن أولى أقداح الراكيا . لقد تبلل اليوم بمياه المطر حتى العظام وهو يحمل بعض الأشياء الى أوكولشته .

وهذا أحد الزبائن المكتئبين على مائدة الأغنياء يذكر الغرام القديم الشقى الذي وقع فيه الأعور ، ويذكر راقصة السيرك . انه يذكر ذلك كأنما بمصادفة . وهذه هي النظرات جميعا تتجه الى الركن الذى يقبع فيه الأعور . غير ان الأعور يظل ساكنا ويتظاهر بأنه لايزال غافيا . فليقولوا ما يشاءون أن يقولوا : لقد قرر الأعور جازما ــ وذلك فى صباح هذا اليوم نفسه اثناء صداع شديد ألم به ــ انه لن يجيب بشيء على تهكمهم وعلى استهزاءاتهم المرة ، وانه لن يسمح بعـد الآن بأن تدبر له « مقالب » قاسية كتلك التى دبرها له هؤلاء الأغنياء فى الليلة البارحة فى الخمارة نفسها .

قال أحدهم :

ــ أظن انهما لا يزالان يتراسلان .

واضاف ثان :

ــ انظر الى هذا الزنيم : يكتب رسائل غرامية الى امرأة ، وله فى الوقت نفسه امرأة أخرى قريبة منه .

ويحاول الأعور أن يظل ساكنا ، غير أن هـذا الحديث عنه يهزه ويؤثر فيه . وكأن الشمس أخذت تدغدغ وجهه ، فعيناه تريدان ان تتفتحا عنوة ، وعضلات وجهه تسترخي فى ابتسامة سعيدة. انه لايطيق أن يظل ساكنا صامتا . وها هو ذا يحرك يده فى أول الأمر حركة من لا يبـالى الأمر ولا يحفل به ، ولـكنه ما يلبث أن يقـول أخيرا :

ـ كل هذا مضى وانقضى ..

ـ مضى وانقضى ؟ هه .. اسمعوا ياجماعة ، الا ان هذا الأعور لمجرم غريب . هناك ، فى بعيد ، تضوى من اجله امراة ، وهنا تجن بسببه امراة أخرى . مضت وانقضت الأولى ، وستمضى وتنقضى الثانية ، ثم تجىء ثالثة .. الى اين يمكن أن تذهب روحك أيهـا التسقى ، اذا كنت تذهب بعقولهن بعضا وراء بعض ؟

كان الأعور قد وقف واقترب من مائدة الجماعة . لقد نسى النوم ، ونسى التعب ، ونسى العهد الذى قطعه على نفسه ألا ينجر الى حديث . وها هو ذا يضع يده على قلبه مؤكدا لهؤلاء السراة انه ليس بالعاشق ولا بالمغوى الذى يتصورون . ان ثيـابه لا تزال مبتلة ، ولا يزال وجهه مخضلا قذرا (لأن طربوشه من نوع ردىء يحول لونه) غير انه غارق فى ابتسامة جذلى منفعلة . وها هو ذا يجلس الى جانب مائدة الأثرياء .

صاح سانتو بابو ، وهو يهودى سمين خفيف الحركة ، ابن منتو وحفيد موردبابو ، وهما تاجران مشهوران من تجار الأوانى المعدنية ، صاح يقول :

ـ هات كأس روم للأعور ..

ذلك أن الأعور اصبح فى الأيام الأخيرة يشرب الروم بدلا من الراكيا كلما استطاع الى ذلك سبيلا . فهذا الشراب الجديد انما وجد لأناس مثله ان صح التعبير ، فهو اقوى من الراكيا ، وأسرع تأثيرا ، وأطيب مذاقا . ان الروم يقدم فى زجاجات صغيرة سعة الواحدة منها عشر لتر ، وعلى الورقة الملصقة بهـا صورة امراة خلاسية شابة ، غليظة الشفتين ملتهبة العينين على رأسها قبعة كبيرة من قش ، وفى اذنيها قرطان كبيران من ذهب ، وقد كتب تحت هـذه الصـورة بأحرف حمراء : جامايكا (وذلك شىء يذكى الميل الى الغـربة لدى اهل البوسنة حين يكون أحدهم فى مرحلة الادمان قريبا من الهذيان . وهو من صنع آيسلر وسيروفاتكا وشركاؤهما فى سلافونسكى برود) . ان الأعور ما يكاد يرى صورة المراة الخلاسية حتى يشعر بنار الشراب الجديد وعطره وحتى يتصور انه لو مات قبل هذا الوقت بسنة واحدة لحرم من تذوق هـذه النعمة من نعم الحياة (وما أكثر ما فى العالم من جمال كهذا الجمال !) . وما ان يتصور هذا حتى يرق قلبه ، ولذلك فهـو حين يفتح زجاجة من الروم يتلبث دائما خلال بضع لحظات سادرا يفكر . وبعـد اللذة التى يستشعرها من هذا

التصور ، تأتى متع الشراب نفسه .
انه الآن ممسك بالزجاجة أمام وجهه كأنه يتحدث اليها حديثا مداعبا غير مسموع. وها هوذا الشخص الذى بدأ باستدراجه الى الحديث وظفر به ، يسأله بقسوة :
ـ ماذا تنوى أن تصنع بالفتاة أيها الشقى؟ أتنوى أن تتزوجها ام أنت تعبث بها كما عبثت مع غيرها ؟
ان الفتاة التى يعنيها السائل هى بنت من دوشتشه يقال لها باشا. انها أجمل فتاة فى المدينة ، مات عنها أبوها وهى تعمل طرازة كأمها .
وقد كان الشباب فى الصيف الماضى ، أثناء جولاتهم وسكرهم ، يتحدثون كثيرا عنها ، ويؤلفون الأغانى فيها ، وفى جمالها الذى لا سبيل اليه . فاذا بالأعور يتحمس لها معهم شيئا فشيئا ، دون أن يعرف لماذا ولا كيف .. وهكذا أخذوا يتندرون عليه .
وفى ذات يوم من أيام الجمعة أراد الشباب أن يقصفوا وان يلهوا فقادوا الأعور الى ضاحية يستطيعون فيها أن يسمعوا ضحكات مخنوقة وهمسات ووشوشات تخرج اليهم من خلال الأبواب والأسيجة .. ضحكات وهمسات فتيات لا يرون وجوههن . وانهم لفى ذلك اذا بباقة من الزهر ترمى من فناء كانت فيه باشا مع صاحباتها ، فتقع الباقة بين قدمى الأعور ، فيتوقف الأعور مضطربا حتى لايدوس الأزهار ، ولا يجرؤ على التقاط الباقة . وأخذ الفتيان الذين جاءوا به الى هذا المكان ، أخذوا يربتون على ظهره ، ويهنئونه على هذه الخطوة العظيمة التى نالها ، فان باشا قد اختارته من بين جميع الشبان ، واهتمت به اهتماما لم يسبق لأحد أن حظى منها بمثله .
وشربوا ، تلك الليلة ، فى ميزالين ، على شاطىء النهر تحت أشجار الجوز ، حتى الفجر . فكان الأعور جالسا قرب النار ، منتصب القامة متفخما ، فتارة يندفع فى فرح شديد حتى لكأنه خرج عن طوره، وتارة يطوف فى وجهه هم وحزن ويطرق مفكرا . ولم يقبل صحبه فى تلك الليلة أن يتولى تقديم الشراب والاهتمام بالقهوة والطعام .
قال له أحدهم :
ـ هل تعرف أيها المسكين ما معنى أن ترمى فتاة فتى بباقة من الزهر ؟ معناه أن باشا تقول لك : اننى أضوى حبا بك ، كهذه الزهرة المقطوعة ، وأنت لا تخطبنى ، ولا تدع لى أن أتزوج ؟ هذا هو المعنى .
وأخذ الشبان جميعا يحدثونه عن باشا ، عن هذه الفتاة الفريدة

العفة البيضاء ، التى تتثنى فى مشيتها تثنى العنقود الناضج فوق الجدار من فناء البيت ، ينتظر من يقطفه . وقالوا له : ان الشخص الذى تنتظر باشا أن يقطفها انما هو الأعور نفسه .

وتظاهروا بالغضب واخذوا يصيحون قائلين : كيف يمكن أن تلقى بنظراتها عليه ؟ ودافع عنه آخرون .

وظل الأعور يشرب ويشرب . فكان تارة يصـدق المعجزة ، وتارة يكذبها قائلا لنفسه : ان ذلك مستحيل . وكان فى اثناء الحديث يدفع عن نفسه تهكم صحبه من السراة ، ويحاول أن يفهمهم ان هذا الحب ليس له ، فما هو الا قرد فقير عجوز لا يغرى . ولكنه كان فى لحظات الصمت يحلم هو نفسه بالفتاة ، وبجمالها ، وبالسعادة التى يمكن أن تهبها له دون أن يتساءل هل يمكن ان يصل اليها أو لا . غير أن كل شىء ممكن فى مثل هذه الليلة الرائعة من ليالى الصيف التى توسع الراكيا والأغانى والنار آفاقها الى غير نهاية . ولئن لم يكن ثمة شىء واقع ، فليس ثمة شىء غير ممكن ، وليس ثمة شىء مستبعد استبعادا تاما . ان الأعور يعرف ان هؤلاء الأثرياء يتندرون عليه ويتفكهون به . ان هؤلاء السادة لا يستطيعون ان يعيشوا بلا ضـحك ، ولا بد لهم من مناكدة أحد الناس ، فليكن هو المهرج الذى يضحكهم ، فلقد كان لهم كذلك ولا يزال الى الآن . ولكن لئن كان ذلك كله مزاحا لا أكثر ، فهناك شىء ليس بالمزاح البتة ، هو تلك المرأة الفاتنة ، وهذا الحب العسير المنال الذى طالما حلم به ولا يزال يحلم به الى الآن . وليست بالمزاح أيضا تلك الأغانى التى يعيش فيها الحب واقعيا وغير واقعى معا ، تلك الأغانى التى تبدو فيها المرأة قريبة بعيدة فى آن واحد ، كما هى فى خياله . كل شىء ، حتى هذا ، كان فى نظر هؤلاء السراة مزاحا ، أما فى نظره فقد كان هو الحقيقة ، وكان شيئا مقدسا انطوت نفسه عليه دائما ، ووجد وجودا واقعيا بصرف النظر عن تسليات هؤلاء الأغنياء ، وعن الشراب والأغانى ، وعن كل شىء ، وعن باشا نفسها .

انه يعرف هذا كله ، ولـكنه أيضا ينسى هذا كله . لأن نفسه تذوب ، وعقله يسيل كما يسيل الماء .

هكذا ، بعد انقضاء ثلاث سنين على حبه العظيم وقصته الفاضحة مع النمسوية التى كانت ترقص على الحبل ، وقع الأعور فى سحر غرام جديد .. ووجد الأغنياء والمتعطلون لعبة جديدة فيهـــا من القسوة والاثارة ما يكفى لتوفير المرح لهم خلال أشهر وسنين .

وقع ذلك فى منتصف الصيف . ثم انقضى الصيف وجاء الشتاء ، والمزاح حول غرام الأعور بباشا الحسناء يملأ السهرات ويقصر الأيام للنـــاس فى مركز المـدينة . أصبح الأعور لا يسمى الآن الا باسم « العريس الشاب » أو باسم « العـاشق » . وكان الأعور ، اثنـاء النهـار ، حين يمضى يشترى من الدكاكين مصـدوعا تعسا ما يكلف بشرائه ، ويطوف من مكان الى مكان حاملا أشياء شتى ، كان يدهشه أن يسمى بهذا الاسم ، وكان يحنقـــه أن يسمى بهذا الاسم ، وكان لا يزيد على أن يرفع كتفيه ساخرا . حتى اذا هبط الليل ، واشتعلت الانوار فى خمارة زاريا ، وصاح أحدهم يطلب كأس روم « للأعور » ، واخذ ثان يغنى بصوت خافت كأنما هو يغنى عرضا ومصادفة :

حانت صــلاة المغرب . وغابت الشمس
فهى لا تســـطع الآن فى وجهــــك

تغير عندئذ كل شىء على حين فجأة . فلا احمال الآن ولا أثقال ولا اكتاف ترتفع ، ولا مدينة ، ولا خمارة ، بل ولا أعور . . لا أعور جمده البرد وطالت لحيته ، وتدثر بأسمال بالية ومزق من ثياب غيره . . لا شىء من هذا كله الآن . لا شىء الآن فى خيال الأعور الا شرفة عالية ، تضيئها اشعة الشمس الغاربة ، وتزينها كرمة وفتاة تنظر وتنتظر الرجل الذى سترميه بباقة الأزهار . صحيح أن حوله أيضا ضحكات صاخبة وملاحظات شتى وامازيح فظـــة ، غير أن ذلك كله بعيد ، كأنه فى ضباب ، فى حين أن الشخص الذى يغنى قريبا منه كل القرب ، هنا الى جانب اذنه :

ليتنى أســـتطيع أن أستدفىء
بأشـــعة الشمس ، قربك .

وها هو ذا يستدفىء بأشعة الشمس ، التى غربت منذ مدة ، كمـا لم يستدفىء فى حياته كلها بأشعة الشمس الواقعيـــة التى تطلع على المدينة وتغرب عنها كل يوم .

ـ كأس روم للأعور .

هكذا انقضت ليالى الشتاء . وفى آخر الشتاء حدث أن تزوجت باشا . ان طرازة دوشتشه المسكينة ، الفاتنة الجمال ، التى لم تكمل التاسعة عشرة من عمرها ، قد تزوجت حاجى عمر الذى يسكن وراء القلعة (وهو رجل غنى محترم ، فى الخامسة والخمسين من عمره) تزوجته على ضرة .

ان حاجى عمر متزوج منذ ثلاثين عاما . وزوجته من أسرة كبيرة .

وقد اشتهرت ببراعتها وذكائها . ان الأرض التى يملكها حاجى عمر وراء القلعة لهى قرية حقيقية زاهرة ملأى بجميع أنواع الثروات . وان دكاكينه التى فى المدينة مبنية بمواد متينة ، وهى تدر عليه أرباحا ضخمة مضمونة. وهذا كله ليس بفضل حاجى عمر، الرجل الهادىء البطىء الذى يكتفى بالنزول من القلعة الى المدينة مرتين فى النهار ويعود منها ، بقدر ما هو بفضل امرأته النشيطة ، الذكية ، الدائمة الابتسام ، التى كانت جميع النساء التركيات بالمدينة تعد رأيها فى كثير من الأمور القول الفصل ومقياس كل شىء ..

ان هذه الأسرة هى من جميع النواحى أحسن الأسر واكثرها حظوة باعتبار الناس . ولكن هذين الشخصين اللذين تقدما فى السن لم يرزقا أولادا ، لقد ظلا مدة طويلة يأملان أن ينجبا ، حتى أن حاجى عمر حج الى مكة ووزعت امرأته صدقات كثيرة على الفقراء ، أملا فى أن يمن عليهما الله بالولد . ثم انقضت السنون ، وزادت ثروتهما ، وادزهرت أملاكهما ، ولم ينعم عليهما بما كانا يرغبان فيه ، وصبر حاجى عمر ، وصبرت زوجته الراجحة العقل ، غير أن الأمل قد زال الآن ، فقد بلغت المرأة الخامسة والأربعين من عمرها .

ان الثروة الضخمة التى سيخلفها حاجى عمر بعد مماته هى الآن فى خطر . وذلك أمر لا يشغل بال أقربائه وأقربائها الكثر فحسب، وانما يشغل بال المدينة كلها تقريبا . فبعض الناس يتمنى أن يظل هذا الزواج بلا ولد الى الأبد ، وبعضهم يرى أنها خسارة أن يموت رجل كهذا الرجل دون أن يكون له وريث ، فتنقسم ثروته وتتبعثر بين عدد من أقربائه ، لذلك كان هؤلاء يحاولون أن يقنعوه بالتزوج من امرأة أخرى شابة ، مادام فى الوقت متسع ، وما دام ثمة أمل فى الخلف . هكذا كان أتراك المدينة منقسمين فى الأمر فريقين .

وجاءت امرأة حاجى عمر العاقر ، فحلت بنفسها المشكلة . قالت فى عزم وصدق ، على عادتها فى كل شأن من الشئون ، قالت لزوجها المتردد :

ـ لقد وهبنا الله كل شىء .. حمدا له وشكرا .. وهب لنا الوفاق والصحة والغنى .. ولكنه لم يهب لنا ما ينعم به على كل فقير من الفقراء : وهو أن نرى لنا ابنا ، وأن نعرف لمن سيؤول هذا كله بعدنا . ولكن اذا شاءت ارادة الله أن أصبر انا على هذا العذاب، فليس عليك أن تصبر أنت . وانى لأرى أن المدينة قد انتوت أن تزوجك ، وأن تحمل عنا ما تحمل من هموم ، فاذا كانوا يريدون أن يزوجوك ، فأنا

احق ان أفعل ذلك ، لانني خير صديق لك .

قالت له زوجته هذا الكلام ، ثم عرضت عليه الخطـــة التى فى ذهنها . مادام الأمل فى أن تلد له ولدا قد زال ، فيجب أن يتزوج عليها امرأة أخرى شابة يمكن أن تنجب له ذرية . ان الشرع يبيح هذا . وستظل هى فى بيته ربة المنزل تسهر على أن تجرى الأمور على خير حال .

ظل حاجى عمر يتمنع مدة طويلة ، قائلا : انه لا يريد صحبة غير صحبتها ، وانه ليس فى حاجة الى امرأة أخرى شابة . غير أن زوجته لم تصر على خطتها فحسب ، بل أنبأته باسم المرأة التى اختارتها له . قالت : ما دام الغرض من الزواج هو الأولاد فخير شىء أن يقع الاختيار على فتاة صحيحة الجسم جميلة فقيرة ، تنجب له أولادا صحاحا ، وترضى بما قسم لها مدى الحياة ، وانها قد اختارت له الحسناء باشا ، بنت طرازة دوشتشه .

وذلك ما تم . فبارادة الزوجة القديمة وبمعاونتها ، تزوج حاجى عمر الفتاة الجميلة باشا . وبعد أحد عشر شهرا وضعت باشا غلاما جميلا . وهكذا حلت مشكلة الوريث ، وتبددت الآمال الكثيرة التى كان أقرباء حاجى عمر يمنون أنفسهم بها وسدت أفواه الناس بالمدينة . وسعدت باشا ، ورضيت ربة البيت القديمة ، وعاشت المرأتان على وفاق ، كأم وابنتها .

ذلك الحل السعيد كان للأعور بداية آلام مبرحة . وكانت آلام الأعور فى ذلك الشتاء بسبب زواج باشا هى التسلية الرئيسية التى يدور عليها مزاح المتعطلين فى خمارة زاريا . ان العاشـــق المخفق يشرب كما لم يشرب من قبل ، والأغنياء الذين يدفعون ثمن شرابه يستطيعون بهذا الذى يدفعـــونه أن يضحكوا حتى الدموع . ان الساخرين يحملون اليه من باشا رسائل ملفقة ويؤكدون له أنها تبكى ليل نهار ، وأنها تضوى شوقا اليه ، ولـكنها لا تطلع أحدا على سر ما تعانى من عذاب . والأعور يجن جنونه ، ويغنى ، ويبكى ، ويجيب عن جميع الأسئلة جادا بتفصيل ، ويندب حظه على أن القدر جعله دميما كل هذه الدمامة ، فقيرا كل هذا الفقر .

ــ قل لنا يا أعور ، أنت أصغر من حاجى عمر بكم سنة ؟

هكذا كان يبدأ أحـــد الأثرياء الحديث . فيجيب الأعـور قائلا بمرارة :

ــ لا أعلم ، ولكن ماذا ينفعنى أن أكون أصغر منه سنا ؟

ويقول آخر :

ــ لو كان الحكم على أساس القلب والحب ، لما نال حاجى عمر ما نال ، ولمـا بقى الأعور حيث هو الآن .

وليس الأعور فى حاجة الى أكثر من هـــذا حتى تتأثر نفسه وترق عواطفه . وها هم أولاء يصبون له روما فوق روم ، ويؤكدون انه ليس فقط أصغر سنا وأجمل وأقرب الى باشا بالقلب من حاجى عمر ، ولـكنه ايضا ، فى آخر الأمر ، ليس فقيرا الى الحد الذى يتصوره الناس ، بل ليس فقيرا كما يتراءى للناس . لقد اختلق هؤلاء المتعطلون ، خلال الليالى الطويلة التى يقضونها أمام أقداح الراكيا ، اختلقوا قصة طويلة عريضة ما ينفكون يروونها . ان أبا الأعور ضابط تركى مجهول لم يره ابنه ابدا . فقالوا ان هـــذا الضابط قد ترك فى الأناضول لابنه غير الشرعى الموجود فى فيشيجراد، وهو وريثه الوحيد ، قد ترك له مساحات كبيرة من الأراضى التى يملـكها ، ولـكن أقرباء له هناك قد حالوا دون انفاذ وصيتـه . ويكفى أن يذهب الأعور بنفسه الى تلك المدينة الفنية البعيدة ، مدينة بروسه ، حتى يحبط مؤامرات ومكائد أولئك الورثة الكاذبين وحتى يحصل على حقوقه كاملة . فاذا فعل ذلك كان قادرا عندئذ على أن يشترى حاجى عمر نفسه وعلى ان يشترى كل ما يملـكه حاجى عمر من ثراء .

ان الأعور يصغى الى كلام هؤلاء الناس ، ويشرب ، ولا يزيد على أن يتنهد . ان هذا كله يحزنه أشد الحزن ، غير انه يسره فى الوقت نفسه أن يحس وأن يتصرف احساس وتصرف رجل خدع وسرق هنا فى هذه المدينة وخدع وسرق هناك فى تلك البلاد البعيدة الجميلة التى جاء منها أبوه المجهول . وها هم هؤلاء النـــاس يهيئون له سفره المزعوم الى بروسه . ان تهكماتهم تطول وتقسو ، وتتنـاول أدق التفاصيل .

ففى ذات ليلة جاءوا بأوراق سموها جواز سفر ، ودفعوا الأعور الى وسط الخمارة ، واخذوا هنالك يديرونه ويفحصونه ويسجلون على جواز السفر علاماته المميزة بمزاح فظ وضحك صاخب . وفى مرة اخرى حسبوا ما سيحتاج اليه من مال حتى يصل الى بروسه وأخذوا يتساءلون عن طريقة السفر وعن المـكان الذى سيبيت فيه ليلته . وبهذا انقضى جزء من الليل الطويل .

ان الأعور يعترض ما دام لم يشرب : انه يصدق ولا يصدق هذا الـكلام الذى يقال له . انه يشك أكثر مما يصدق ، أو قل انه

لا يصدق شيئا البتة ما دام لم يسرف فى الشراب . ولـكنه متى سكر اخذ يسلك سلوك من يصدق . انه حين تطيش الخمر بلبه ؛ لا يتساءل عما هو حقيقة وعما هو مزاح وكذب . انه بعد أن يشرب الزجاجة الثانية من الروم ، يحس بهواء معطر يأتى اليه من بروسه البعيدة ، ويرى ـ نعم يرى ـ حدائقها الخضراء ومبانيها العالية . اجل ، انه امرؤ غدر به وعذب منذ ولادته فى كل أمر من الأمور ، فى أسرته ، وفى ماله ، وفى الحب . لقـــد أسيء اليه ، أساء اليه البشر وأساءت اليه السماء . ومن المؤكد أنه ليس كما يبدو ، وليس كما يعده الناس . وكلما شرب الأعور كأسا جديدة قويت حاجته المعذبة الى ان يعلن ذلك لمن حوله من الناس، رغم انه يدرك مدى الصعوبة فى البرهان على حقيقة هى عنده واضحة جلية لـكن كل ما فيه وما حوله يكذبها . ومع ذلك فانه ما يكاد يشرب أول قدح من الراكيا حتى يصارح بذلك كل واحد ، طوال الليل ، بكلمات متقطعة وحركات ثقيلة ، من خلال دموع السكر . وكلما اوغل فى المصارحة أغرق الذين حوله بالضحك ، وامعنوا فى السخر منه . انهم يبلغون من الضحك ويبلغون من التلذذ بالضحك أن خواصرهم تنتفخ ، وأن فكاكهم تأخذ تصر صريرا من تلك القهقهة المعدية التى لا سبيل الى مقاومتها ، والتى هى ألذ من كل طعام ومن كل شراب . انهم ينسون بالضحك ضجرالليل فى الشتاء ، ويأخذون يشربون الى جانب الأعور على غير قصد واعتدال .

وقال له مكى آغا سراج الذى يعرف اكثر من غيره كيف يثير الأعور وكيف يحنقه بأسلوبه البارد ومظهره الوقور :

ـ انتحر .. انتحر يا اعور .. فانك لا تستحق الحياة ما دمت لم تستطع أن تنتزع باشـا من ذلك العاجز حاجى عمر ! انتحر يا اعور ، فتلك نصيحتى اليك .

فيقول الأعور متفجعا :

ـ هه .. انتحر .. انتحر .. اتظن اننى لم افكر فى هـذا ؟ لقد ذهبت الى الـكابيا مائة مرة لألقى بنفسى فى نهر درينا ، ومائة مرة صدنى عن ذلك شيء ما ..

ـ ما الذى صدك ؟ لاشك انه الخوف يا أعور . ان فرائصك ترتعد خوفا يا أعور .

ـ لا والله .. ليس هو الخوف .. ليس هو الخوف .

ويقفز الأعور وسـط الضجيج والضحك ، ويضرب صـدره ، ويقتطع كسرة من الخبز الذى أمامه ، ويحملهـا الى وجه مكى آغا الساكن البارد ، ويقول له :

ـ هل ترى هذه ؟ أحلف لك بهذه النعمة أنه ليس الخوف .

وفى هذه اللحظة ينطلق احدهم يغنى بصوت رقيق :

غابت الشمس

فهى لا تسطع الآن فى وجهك .

وتمضى الجماعة كلها تصـدح بالأغنية جوقة واحدة ، فيغطى صوتها صوت مكى آغا الذى يصيح بالأعور قائلا :

ـ انتحر .. انتحر ..

واذ كانوا ينطلقون فى هـذا الغناء ، كان يستبد بهم هم أنفسهم ذلك الهياج الذى يريدون أن يدفعوا اليه ذلك المسكين ، ثم اذا بكل شىء يستحيل أخيرا الى هرج ومرج وجنون مطبق .

وفى ذات ليلة من ليالى شـبـاط ، ظلوا على حالهم تلك الى الفجر ، وقد استبد بهم الجنون كما استبد بضحيتهم ، حتى اذا طلع الصباح خرجوا جميعا من الحانة ، ومضوا الىالجسر وقد دفئت اجسامهم وخرجوا عن أطوارهم وامتلأت أوردتهم بالشراب .. كان الجسر شبه خال من الناس تغطيه غشاوة من جليد .

وفى وسط الصياح العالى والضجيج العاصف والضحك الصاخب، تراهنوا هذا الرهان : من ذا الذى يجرؤ أن يجتاز الجسر سـائرا على الافريز الحجرى الضيق الذى تلتمع عليه غشاوة الجليد ؟

قال أحد السكارى :

ـ الأعور يجرؤ .

فصاح آخر :

ـ الأعور ؟ مستحيل ..

فصرخ الأعور وهو يلطم صدره بيده :

ـ من لا يجرؤ ؟ انا ؟ سترى يا مسكين .. اننى أجرؤ على ما لايجرؤ عليه رجل .

ـ لا تجرؤ .. هيا افعل ان كنت تجرؤ ..

ـ صحيح والله .

ـ الأعور يجرؤ .. نعم يجرؤ ..

ـ لا .. كذاب .

هكذا كان يتبارى هؤلاء السكارى صائحين متفاخرين ، رغم انهم

كانوا يجدون عناء فى الثبات على أقدامهم فوق الجسر العريض . انهم يترنحون ويتأرجحون ويتشبث بعضهم ببعض .

ولم ينتبهوا الى اللحظة التى صعد فيها الأعور على الافريز الحجرى ، وانما رأوه فجأة يترنح فوقهم عليه ، سكران مكشوف الصدر ، يحاول أن يحتفظ بتوازنه ، وأن يتقدم فى سيره فوق البلاطات على الجدار .

ان عرض الافريز الحجرى لا يزيد على شبرين . والاعور يسير مائلا الى اليسار تارة والى اليمين تارة أخرى ، على شماله الجسر، وعلى الجسر تحت ساقيه جمهرة من السكارى ترافق كل خطوة من خطواته ، وتصيح بكلمات لا يكاد يميزها ، فهى أشبه بضوضاء غير مفهومة .

اما على يمينه فليس ثمة الا الفراغ ، وفى هذا الفراغ ، فى مكان ما فى أعماق هذا الفراغ ، تحت ، يهدر النهر الذى لايرى. ومن النهر يتصاعد بخار كثيف يشبه أن يكون دخانا أبيض ينتشر فى الفضاء فى هذا الصباح البارد .

وتوقف المارة القلائل مذعورين وحملقت عيونهم وهم ينظرون الى الرجل السكران الذى لا يمشى على الجسر ، بل يسير فوق الافريز الضيق الزلج المرتفع فوق الهاوية ، وهو يحرك ذراعيه فى اضطراب ليحافظ على توازنه . وبين هذا الحفل من السكارى ، تجمد بعضهم فى أمكنتهم كأنهم يفيقون من حلم ، وجعلوا ينظرون الى هذه اللعبة الخطرة وقد امتقعت وجوههم خوفا . ان هؤلاء هم الذين لم يبلغوا من السكر ما بلغه الآخرون ، فهم لايزالون يحتفظون بشىء من صحو الذهن . أما الآخرون فكانوا لايدركون الخطر ، وهم يسيرون فى محاذاة الافريز ، ويرافقون بصياحهم ذلك السكران الذى يترنح ويتراقص فوق الهوة محاولا أن يتوازن .

واحس الأعور فجأة أنه انفصل عن رفاقه بحكم وضعه الخطر . انه الآن أشبه بعفريت ضخم يعلوهم جميعا . ان خطواته الاولى محاذرة بطيئة . وان نعليه الثقيلين ينزلقان فى كل لحظة على البلاطات التى تغطيها غشاوة رقيقة من الجليد . انه يحس أن قدميه تركضان تحته ، وان الهاوية تجذبه جذبا لا سبيل الى مقاومته ، وأنه يهم أن يسقط ، وانه يسقط حقا .

غير ان هذا الوضع الغريب ، واحساسه بأن خطرا كبيرا يهم به، قد بثا فيه قوى جديدة ، وقدرة لا عهد له بمثلها من قبل. وأصبح

فى كفاحه من أجل الاحتفاظ بتوازنه : يقفز قفزات قصيرة ما تنفك تزداد قوة ونشاطا ، واصبح يزداد انحناء عند مستوى الجذع والركبتين . وبدلا من ان يمشى أصبح يرقص رقصا بخطوات قصيرة ، لايدرى هو نفسه لماذا ، اصبح يرقص هذا الرقص بدون اهتمام ، كأنما هو فى فسحة من غابة ، فسحة عريضة خضراء ، لا على حافة ضيقة مغطاة بجليد . وفجاة ، اصبح خفيف الحركة مرنا كما يصبح المرء كذلك فى الاحلام . ان جسمه الكبير المتعب قد تخلص الآن من ثقالته . ان الأعور السكران يرقص الآن رقصا ، ويتموج ويتثنى فوق الهاوية كأن له جناحين. انه يحس أن جسمه يخرج موسيقى يرقص هو على نغماتها ، وأن من جسمه تنبع قوة فرحة تهب له الأمن وتمده بالتوازن . ان الرقص يمضى به الى حيث لايستطيع المشى ان يقوده . وأصبح لا يفكر فى الخطر ، ولا يخطر بباله أن من الممكن أن يسقط ، وراح يقفز من ساق الى ساق ، ويغنى مباعدا ذراعيه كأنما هو يرافق رقصه بالضرب على طبل .

— ترلم ترلم تر تر تر ترلم ، ترلم ترلم ..

ان الأعور يغنى، ويوجد لنفسه ايقاعا يرقص عليه ، فيجتاز طريقه الخطر فى امان . انه يحنى فخذيه على ركبتيه ، ويميل برأسه تارة الى يسار وتارة الى يمين .

— ترلم ترلم .. آ .. آ ..

انه الآن وقد علا فوق الجميع فى هذا الوضع الفذ الفريد المحفوف بالأخطار ، ليس ذلك الأعور الذى يسلى اهل المدينة ويضحك رواد الخمارة . انه لا يحس أن ما تحته هو ذلك الافريز الحجرى ، الضيق الزلج من جسر يعرفه وطالما مضغ خبزه عليه الاف المرات ، وطالما غفا فى ظل الكابيا منه وهو يفكر فى موت عذب بين الأمواج . لا ، وانما هو الآن فى تلك الرحلة البعيدة العسيرة التحقق ، التى يحدثونه عنها كل يوم فى الخمارة هازئين به هزءا فظا وضاحكين عليه ضحكا ساخرا .. هو الآن فى تلك الرحلة التى استطاع اخيرا أن يمضى فيها . انه الطريق اللاحب المنشود ، طريق المشروعات الكبرى ، فهناك ، فى نهاية هذا الطريق ، تتراءى له مدينة بروسه العظيمة ، وثرواتها الكبيرة ، وارثه المشروع ، والشمس التى غربت ، وباشا الجميلة مع ابنها ، زوجته مع ابنه .

هكذا ظل يتراقص على الافريز فى نشوة فوصل الى الكابيا ، ثم

اجتاز الجزء البارز الذى يحيط بالصوفا ، ثم أكمل اجتياز الافريز كله حتى نهاية الجسر . فلما وصل الى خاتمة المطاف وثب عن الافريز فصار على الجسر ، واخذ ينظر حوله منفعلا أشد الانفعال ، يدهشه ان المغامرة قد انتهت بسلام ، ويدهشه اشد الدهشة أن يجد نفسه مرة اخرى على الطريق المأمون المعروف ، طريق فيشيجراد . واستقبله الحفل الذى كان يرافقه صائحا ومشجعا ومازحا . وسرعان ماخف اليه أولئك الذين كانوا قد توقفوا عن السير خائفين وجلين ، فأخذوا يقبلونه ، ويربتون على كتفيه ، وعلى طربوشه الحائل لونه . ويصيحون جميعا بصوت واحد :

ـ مرحى للأعور ، مرحى للصقر ..

ـ مرحى للمنتصر ..

وصرخ سانتو بابو يقول بصوت اجش ولهجة اسبانية ، وهو يظن انه فى الخمارة ويباعد ذراعيه كما لو كان يصلب :

ـ كاس روم للأعور .

وفى غمرة هذا التصادم وهذا التزاحم اقترح احدهم الا يتفرق الشمل ، والا يعود كل واحد الى بيته ، وانما يستمرون على الشراب احتفالا بمأثرة الأعور .

ان الأطفال الذين كانوا أيامئذ فى السنة الثامنة أو التاسعة من اعمارهم ، وكانوا فى ذلك الصباح مسرعين الى مدارسهم البعيدة عبر الجسر الذى تفطيه غشاوة الجليد ، قد توقفوا وأخذوا ينظرون الى ذلك المشهد الفريب ، وفغرت أفواههم التى يخرج منها بخار أبيض من فرط الدهشة . انهم حين وقفوا وقفتهم تلك صغارا مقمطين بالفراء متأبطين الواحهم الحجرية ، وكتبهم ، لم يفهموا شيئا من هذه اللعبة التى يلعبها الكبار ، ولكن صورة الأعور فوق افريز الجسر بقيت ماثلة فى أذهانهم مدى الحياة .

نعم ، لم تبارح خيالهم صورة هذا الأعور الذى يعرفونه حق المعرفة ، والذي استحال يومئذ انسانا آخر خفيفا رشيقا ، يثب وثبات قصيرة جريئة ، فيمشى فرحا ، كأنما يحمله سحر ، يمشى فى مكان يحظر فيه المشى . وليس يمشى فيه أحد بوجه عام .

الفصل السادس عشر

انقضت عشرون سنة على اليوم الذى أخذت فيه اوائل العربات النمسوية المطلية باللون الأصفر تجتاز الجسر . انقضت عشرون سنة على أول الاحتلال . انها سلسلة طويلة من الأيام والشهور . ان كل يوم من هذه الأيام وكل شهر من هذه الشهور يبدو متحيرا موقتا اذا نظر اليه على حدة ، لكن هذه الأيام والشهور كانت أطول فترة تتذكرها المدينة من فترات الأمن والتقدم المادى ، وكانت أكبر شطر من حياة الجيل الذى كان قد بلغ سن الرشد عند أول الاحتلال .

كانت تلك السنين عهد ازدهار ظاهر وربح مضمون وان يكن لايزال صغيرا فى كثير من الأحيان . وكانت الأمهات أثناء تلك الفترة اذا تحدثن عن أبنائهن أضفن قولهن : « أسأل الله أن يطيل عمره وأن يمتعه بالعافية ، وأن ينعم عليه بخبزه سهلا ميسورا » . وفى ابان تلك السنين انما كانت امرأة فرحات (وهو رجل طويل القامة ، أبدى الفقر ، يشعل مصابيح الشوارع ويتقاضى أجره على هذا العمل من البلدية اثنى عشرة فلورينة فى الشهر) تقول فى اعتزاز وفخر : « الحمد لله .. زوجى موظف بالبلدية » .

هكذا انقضت السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر ، دون انفعالات كبيرة ودون أحداث ضخمة ، فكانت أشبه بنهر هادىء يفيض قبل أن يصل الى مصبه المجهول . كان يبدو أن الفواجع قد اختفت من حياة الشعوب الأوروبية ، كما اختفت من هذه المدينة قرب الجسر ، فاذا وقع منها شىء فى مكان ما من العالم ، لم تصل أصداؤه الينا ، أو بدا لنا بعيدا غير مفهوم .

وهكذا ، فى ذات يوم من أيام الصيف ، بعد ذلك العدد الكبير من السنين ، ظهر مرة أخرى على الكابيا ، اعلان رسمى بلون أبيض . ان الاعلان قصير محاط هذه المرة بسواد حالك ، ينعى للناس

صاحبة الجلالة الامبراطورة اليصابات التى توفيت بمدينة جنيف فى حادث اغتيال أتيم على يد فوضوى ايطالى اسمه لوكينى. ويعبر الاعلان بعد ذلك عن الاستنكار الشديد والحزن العميق من قبل جميع شعوب مملكة النمسا المجر الكبرى ، ويطلب الى جميع المواطنين المخلصين أن يزدادوا التفافا حول العرش ، فذلك خير عزاء للملك الذى طعنه القدر هذه الطعنة القاسية .

لقد علق الاعلان تحت المسلة البيضاء التى عليها الكتابة التركية ، كما علق فى الماضى بيان الجنرال فيليبوفتش الذى اعلن احتلال البلاد . وقرأ الناس هذا الاعلان فى تأثر ، لأن القتيل امبراطورة ، لأن القتيل امرأة ، ولكنهم لم يفهموا حق الفهم ، ولا أشفقوا عميق الاشفاق .

وفى خلال بضع امسيات ، لم تشهد الكابيا غناء ولا مرحا صاخبا ، فكذلك كانت أوامر السلطات .

هناك رجل واحد فى المدينة أصابه النبأ اصابة قاسية . انه بيتروسولا ، الايطالى الوحيد بين سكان فيشيجراد ، وهو مقاول وبناء ونحات ودهان ، أى هو المعلم الاخصائى فى مدينتنا . ان المعلم بيرو (بهذا الاسم كانت تسميه المدينة كلها) قد وفد الى المدينة أيام الاحتلال ، واستقر فيها ، لأنه تزوج فتاة منها يقال لها ستانا ، وهى فتاة فقيرة لم تكن على جانب عظيم من حسن السمعة . ان ستانا امرأة حمراء سمينة ، أطول من زوجها مرتين ، والناس يصفونها بأنها سليطة اللسان ثقيلة اليد ، يحسن بالمرء الا يشاجرها. أما المعلم بيرو فهو رجل صغير الجسم مقوس الظهر طيب الطبع ذو عينين زرقاوين متواضعتين وشاربين متهدلين . وكان يجيد العمل ، ويجنى منه مالا كثيرا ، وقد أصبح بمضى الزمن مواطنا حقيقيا من مواطنى فيشيجراد ، غير أنه لم يتوصل أبدا الى امتلاك ناصية اللغة والنطق ، شأنه فى ذلك شأن لوتيكا . وكان جميع الناس فى المدينة يحبونه لبراعته فى عمله ، ولما يمتاز به من بساطة . وكانت امرأته ، القوية كأنها بطلة من أبطال الرياضة ، تقوده فى الحياة كما تقود الأم ابنها الطفل فى قسوة .

فلما عاد المعلم بيرو من عمله مغطى بغبار الحجارة وملطخا بألوان الدهان فقرأ الاعلان المعلق على الكابيا ، أغطس قبعته حتى غطت الدهان وقرأ الاعلان المعلق على الكابيا ، أغطس قبعته حتى غطت عض عليه فى شىء من التشنج . وصار كلما لقى أحدا من وجهاء

القوم ، يمضي يبرهن له على انه ، رغم انه ايطالى ، لا شأن له البتة بالقاتل لوكينى ، ولا بالجريمة المنكرة التى اقترفها . فكان الناس يصغون اليه ، ويهدئون من روعه ، ويؤكدون له أنهم يصدقونه ، وأنه لا يخطر ببالهم أن ينسبوا اليه شيئا مما وقع ، ولكنه كان يظل يشرح لكل واحد من الناس انه أصبح يستحى من الحياة ، وانه لم يقتل طوال عمره دجاجة ، فكيف يقتل انسانا ، وخاصة اذا كان هذا الانسان امراة ، واذا كان شخصية لها تلك المنزلة السامية التى للامبراطور .

واستحال خوفه اخيرا الى مرض حقيقى . فأخذ سكان المدينة يسخرون من قلقه وحماسته وأقواله الكثيرة التى يؤكد بها أنه لا صلة له بالمجرمين والفوضويين . وسرعان ما ابتكر أطفال المدينة لعبة قاسية ، فكانوا يختبئون وراء حاجز من الحواجز ، حتى اذا مر أخذوا يصيحون : « لوكينى » . فكان المسكين يدفع عن نفسه تلك الصيحات كأنها زنابير صغيرة لا ترى ، ويغطس قبعته حتى تلامس عينيه ، ويهرول عائدا الى بيته ، فاذا وصل اخذ يبكى وينتحب فى حضن زوجته الواسع العريض .

كان الرجل الصغير ينشج قائلا :

ــ انا خجلان ، خجلان .. اننى لا أجرؤ ان انظر الى عينى أحد من الناس .

فكانت زوجته تقول له :

ــ دعك من هذا ياغبى . مم انت خجلان ؟ من أن ايطاليا قتل الامبراطورة ؟ ان ملك ايطاليا هو الذى يجب عليه أن يخجل. أما انت ، فمن انت حتى تخجل ؟

ــ خجلان ، خجلان .

هكذا كان المعلم بيرو يردد شاكيا لزوجته التى تهزه وتحاول أن تبث فيه الشجاعة والعزم وأن تعلمه كيف يجتاز المركز التجارى بالمدينة رافع الراس منطلقا دون أن يغض طرفه أمام أحد من الناس.

وفى ذلك الوقت ، كان يجلس على الكابيا رجال متقدمون فى السن ، يصغون وقد سكنت وجوههم وانخفضت ابصارهم ، الى الأنباء المستمدة من الصحف عن مقتل امبراطورة النمسا . لم تكن هذه الأنباء الا فرصة لأحاديث عامة عن مصير الهامات المتوجة ، والشخصيات الكبيرة . وكان حسين أفندى ، مدرس فيشيجراد، يشرح لطائفة من وجهاء الأتراك ، المستطلعين الجهلة من سكان الحى

التجاري . من هم هؤلاء الفوضويون وما شأنهم .

ان المدرس لايزال حتى الآن على ما كان عليه فى الماضى من تفخم ، وتصلب ، ونظافة ، وعناية بهندامه .. انه لايزال على تلك الحال نفسها التى كان عليها منذ عشرين عاما ، يوم استقبل على هذه الكابيا نفسها النمسويين الأوائل ، بصحبة ملا ابراهيم والقس نيقولا اللذين يرقدان منذ مدة طويلة ، كل فى مقبرته .

لقد ابيضت لحيته . لكنها لا تزال كما كانت مقصوصة مدورة فى كثير من العناية . ولايزال وجهه كله هادئا مترقا ، لأن الرجال الذين اوتوا عقلا متصلبا وقلبا جامدا يدلفون الى الشيخوخة فى بطء . والراى العظيم الذى كان يراه فى نفسه دائما قد ازداد ترسخا خلال هذه السنوات العشرين الأخيرة. ويجب أن نذكر عابرين ان « سحارة » الكتب التى يستند اليها الجزء الأكبر من شهرته كعالم ، لا تزال على حالها ، ما نفدت ولا قرئت ، كما ان التاريخ الذى يكتبه عن مدينة فيشيجراد لم يزد عدد صفحاته أكثر من أربع صفحات ذلك ان صاحبنا كان كلما تقدم فى السن يزداد اعجابه بشخصه وتاريخه ، ويقل تقديره للأحداث التى تجرى من حوله . وها هو ذا يتكلم الآن بصوت منخفض بطىء ، كأنه يقرأ فى مخطوطة غامضة ، وفى كلامه تكبر وتصنع وقسوة. انه يتخذ مصير الامبراطورة «الكافرة» مناسبة للحديث لا أكثر ، فليس لذلك المصير أى شأن بما يسوق من كلام . قال يشرح (وليس هذا الشرح من عنده ، وانما هو وجده فى كتب قديمة ممتازة ورثها عن استاذه الشهير عرب خجا). قال : ان هؤلاء الذين يسمون الآن باسم : الفوضويين قد وجدوا منذ الازل ، وسيظلون موجودين الى الأبد . ذلك لأن حياة البشر قد كتب عليها هذا ، ولأن مشيئة الله الواحد الآحد قد أرادت ذلك ، فكل درهم من خير يقابله درهمان من شر ، ما من نبل الا ويقابله كره ، وما من عظمة الا ويقابلها حسد ، كما انه ما من شىء مهما يكن صغيرا الا وله ظل ، وهذا يصدق خاصة على عظماء الناس وتقاتهم والمشهورين منهم ، فكل واحد من هؤلاء يتربص به سفاك ، فتارة يتأخر انقضاضه عليه وتارة يتقدم . انظروا مثلا الى ابن هذه المدينة محمد باشا الذى يسكن الجنة منذ زمان بعيد (قال المدرس ذلك وهو يشير بيده الى المسلة الحجرية فوق الاعلان الأبيض) : لقد خدم ثلاثة سلاطين ، وكان أحكم الحكماء ، وبنى هذا الجسر الذى نجلس عليه الآن بما كان له من حول وطول

وما كان يملك من روح البر وحب الخير ، لقد مات هو أيضا بسكين واحــد من هؤلاء الفوضويين . انه رغم قوته كلها ، ورغم حكمته كلها ، لم يستطع أن يتفادى تلك اللحظة . ان أولئك الذين كان الوزير الأكبر يحبــط خططهم ــ وكانوا حزبا كبيرا قويا ــ قــد استطاعوا أن يسلحوا وأن يرشوا درويشــا مجنونا ، فدفعوه الى قتله لحظة خرج للصلاة فى ظهر يوم من أيام الجمعة . استطــاع الدرويش ، وهو يتدثر بمعطف خلق ويمسك بيديه سبحة كبيرة ، استطاع أن يسـد الطريق وراء الوزير ، وتظاهر بطلب الصدقة فى مذلة ومكر ، فلما أراد الوزير أن يضع يده فى جيبه ليتصدق عليه طعنه بسـكينه . هكذا هلك محمد باشا شهيدا من الشهداء .

ان الرجال يصــغون الى كلام المــدرس ، وهم ينفثون دخــان سجائرهم ، وينظرون تارة الى المســلة الحجرية التى عليهــا كتابة تركية ، وتارة الى الاعلان الأبيض المحفوف بالسواد . انهم يصغون الى شروح المدرس بانتباه ، رغم انهم لا يفهمون جميعــا كل كلمة من كلماته . لــكنهم كانوا ، وهم يتابعون انطلاق الدخان الى بعيد، وراء الــكتابة التركية ووراء الاعلان الأبيض ، يتخيلون فى مكان ما من العالم ، حياة أخرى مختلفة عن حياتهم ، حياة فيها صعود كبير وهبوط عميق ، حياة تمتزج فيها العظمة بالــكوارث ، حيــاة هى نقيض هذه الحياة البسيطة الهادئة الرتيبة التى يعيشونها هم هنا على هذه الــكابيا .

وانقضت هذه الأيام كما انقضت قبلها ايام أخرى. وعادت الحياة تجرى على الــكابيا كما كانت تجرى مع احاديثها المألوفة الصاخبة، ومع أمازيحها وأغانيها ، وانقطع الــكلام عن الفوضويين . والاعلان الذى انبأ بموت تلك الامبراطورة الأجنبية المجهولة حال لونه بتأثير الشمس والمطر والغبار ، ثم مزقته الرياح وبددته قطعا قطعا على طول الشــاطىء .

وظل العابثون من الناس ، خلال مدة من الوقت ، يطلقون وراء المعلم بيرو صرختهم : « لوكينى » ، دون أن يعلموا هم أنفسهم ما معنى هــــذه الصرخة ، ولا لماذا يطلقونها ، تدفعهم الى ذلك تلك الحاجة الصبيانية الى معاكسة المخلوقات الضعيفة الحساسة والى تعذيبها . ظلوا يطلقون صرختهم تلك ، الا انهم كفوا عنها بعد ذلك لأنهم وجدوا تسلية أخرى غيرها . وقد أسهمت ستانا فى انقــاذ زوجها ، اذ أمسكت باثنين من اشـــــد الصبية صخبا ، وجعلت تضربهما ضربا مبرحا .

ما أن انقضى شهر أو شهران حتى أصبح الناس لايشيرون بكلمة الى موت الامبراطورة ولا الى الفوضويين . كان يبـدو في نهاية القرن أن الحياة قد انكسرت حدتها وهدأت أحوالها الى الأبد . كانت هذه الحياة تغطى بمجراها العريض الرتيب كل شيء ، وتشعر الناس بأن عصرا جديدا يبدأ ، عصرا من نشاط هادىء يقود البشر الى مستقبل بعيد لا يستطيع البصر أن يبلغه .

لقد استطاع ذلك النشاط الدائم المستمر الذى كان يبدو أنه كتب على هذه الادارة الأجنبية ، والذى لم يستطع أهل مدينتنا أن يألفوه الا في كثير من العناء – رغم انهم يدينون له بما يحققون من ربح وما يتمتعون به من رخاء – استطاع ذلك النشاط ان يغير في خلال عشرين عاما كثيرا من الأمور فى مظهر المدينة وفى أزياء السكان وعاداتهم ، لكنه لم يمس الجسر القديم من قريب أو بعيد ، فلا يزال الجسر على حاله ، ولا يزال منظره كما كان لم يتغير .

وجاء عام ١٩٠٠ ، جاءت نهاية القرن السعيد وبداية القرن الجديد الذى كان يرى كثير من الناس ويحس كثير من الناس أنه سيكون احفل بالسعادة من القرن المنصرم . وفى تلك الفترة جاء مهندسون جدد ، فأخذوا يفتشون الجسر . كان الناس قد ألفوا منظر هؤلاء المهندسين ، وكان الأطفال يعرفون معنى وصول هؤلاء الذين يرتدون معاطف من جلد وتمتلىء جيوبهم الظاهرة بأقلام من شتى الألوان ويأخذون يدورون حول رابية من الروابى أو مبنى من المبانى . كان معنى وصولهم أن شيئا من الأشياء سيهدم أو سيبنى أو سيحفر أو سيبدل . ولكن لم يكن فى وسع أحد أن يقدر ماعساهم صانعين بالجسر الذى كان يبدو لجميع الأحياء فى هذه المدينة شيئا أبديا لا يمكن أن يتغير ، كالأرض التى يطأونها بأقدامهم وكالسماء التى تعلو هاماتهم .

أخذ المهندسون اذن يدورون ، ويقيسون ، ويسجلون ، ثم ذهبوا ونسى الأمر كله . ولكن ما ان حل منتصف الصيف ، وهو الفترة التى تكون فيها المياه أخفض ما تكون ، حتى وفد على حين فجأة مقاولون وعمال ، وأخـذوا يبنون خصاصا موقتة من خشب ليودعوها آلاتهم وأدواتهم . وما كاد يذيع فى المدينـة أن الجسر سيصلح حتى كانت أعمدة الجسر قد أحيطت بسقالات ، وحتى وضعت على الجسر آلات لرفع الأثقال ذات بكرات ، يتيح تحريكها للعمال أن يتنقلوا على طول الأعمدة فوق شرفة ضيقة من خشب ،

فيقفون من الجسر على المواضع التى توجد بها شقوق أو توجد بها كشش من العشب تنبت فى فروج الحجارة .

ما تركت فجوة صغيرة من الفجوات الا ملئت . وانتزع العشب ، وازيلت أعشاش الطيور . حتى اذا انتهوا من هذا العمل ، أخذوا يصلحون الأسس التى تلطمها المياه : اوقف مجرى الماء وحول ، فانكشفت الحجارة المسودة المتآكلة للأبصار ، وأصبحت ترى أوتاد السنديان مهترئة ولكنها متجمدة ، فى الماء الذى وضعت فيه منذ ثلاثين وثلاثمائة عام . وأخذت الروافع التى لا تتعب ، تنزل الأسمنت والحصي صندوقا بعد صندوق ، فتملأ بهما الأعمدة المركزية الثلاث المعرضة لفعل التيار السريع أكثر من غيرها ، تملأ بهما عند اسسها كأنها أضراس أصيبت بالنخر عند الجذور .

لم يستطع الناس فى ذلك الصيف أن يجلسوا على الكابيا ، وانقطعت الحياة المألوفة التى اعتادوا أن يعيشوها حول الجسر . اصبح كل شيء يعج بالخيول والعربات التى تنقل الأسمنت والرمل . وأصبحت صرخات العمال وأوامر المراقبين تسمع فى كل مكان . وجعلت الكابيا نفسها مستودعا الألواح الخشب .

ان الناس ينظرون الى الأعمال الجارية على الجسر الكبير ، فيدهشون ويظلون من أمرهم فى حيرة ، فبعضهم يلقى نكتة من النكت ، وبعضهم يكتفى بحركة من يده ، ولكنهم جميعا يحسون ان هؤلاء الأجانب يقومون بهذا العمل كما يقومون بسائر الأعمال لا شيء الا لأن عليهم أن يقوموا بعمل من الاعمال أيا كان ، فذلك لهم ضرورة لا غنى عنها ، وهم لا يستطيعون أن يعيشوا بغير ذلك . لم يكن أحد يقول هذا ، ولكنهم كانوا يحسونه جميعا .

ان جميع الذين اعتادوا أن يقضوا أوقاتهم على الكابيا ، يجلسون الآن أمام فندق لوتيكا او خمارة زاريا ، أو أمام أبواب الحوانيت الموجودة على مقربة من الجسر : يشربون هناك الشاى ويتحدثون منتظرين أن تتحرر الكابيا ، وأن يبرأ الجسر من هذه الهجمة التى نزلت عليه ، كما ينتظر المرء نهاية مطرة وابلة أو نهاية أى عائق آخر من هذا القبيل .

ولقد اجتمع فى هذا الصباح ، امام حانوت على خجا المنحصر بين النزل الحجرى وخمارة زاريا بحيث يرى الجسر من هناك رؤية مواربة ، اجتمع فى ساعة مبكرة من هذا الصباح تركيان متعطلان ممن يتحدثون عن كل شيء وخاصة عن الجسر .

ان علی خجا يصغی الی كلامهم صامتا مقطبا . وينظر سادرا الى الجسر الذی يتحرك عليه العمال كأنهم النمل .

لقد تزوج علی خجا فی خلال هذه السنين العشرين الأخيرة ثلاث مرات . وله الآن امرأة أصغر منه فی السن كثيرا . والسنة السوء فی حی السوق تقول ان هذا هو السبب فی أنه يظل معتكر المزاج دائما قبل الظهر . وقد أنجب من هذه النساء الثلاث أربعة عشر ولدا يحدثون فی البيت من الصخب الشديد طول النهار ما يصم اذنی علی خجا . ويقول الناس فی حی السوق علی سبيل المزاح ان علی خجا لايعرف جميع أولاده بأسمائهم . حتى لقد لفقوا ورووا هذه القصة وهی ان احد أولاده لقيه مرة فی زقاق من الأزقة فتناول الصبی يد ابيه ليقبلها فقال له علی خجا : « صباح الخير .. صباح الخير .. ولكن من أی عائلة أنت ؟ » .

لم يتغير علی خجا كثيرا . لكنه ازداد سمنة ، وازداد وجهه احمرارا . انه لا يسير الآن سيرا خفيفا كما كان يسير فی الماضی . انه يصعد الآن الی بيته الواقع فی حی الميدان بخطى بطيئة . لأنه أصبح يحس منذ مدة باختناق فی قلبه يراوده من حين الى حين ، ويراوده حتی أثناء النوم . ومن أجل هذا انما ذهب يستشير طبيب المقاطعة الدكتور ماروفسكی الذی كان ، بين جميع الوافدين الجدد ، الشخص الوحيد الذی يعترف به علی خجا ويقدره . وقد وصف له الطبيب دواء لا يشفی من المرض ، ولكن يساعد المريض علی احتماله . وتعلم علی خجا من الطبيب الاسم اللاتينی الذی يسمی به مرضه : Angina pectoris (1) .

ان علی خجا واحد من الأتراك القلائل الذين لم يقبلوا شيئا من الاشياء الجديدة ومن التبدلات التی جاء بها الأجانب ، لا فی ملبسه ، ولا فی آرائه ، ولا فی اللغة ولا فی التجارة والأعمال . وكما اعترض فی الماضی علی مقاومة لا جدوى منها اعتراضا عنيدا ، كذلك هو يعارض معارضة عنيدة ، منذ سنين ، كل ما هو نمسوی وأجنبی ، ويقاوم كل هذه الأمور التی تزداد من حوله قوة انتشار يوما بعد يوم . ومن أجل ذلك تشاجر مع بعض الناس عدة مرات ، واضطر الی أن يدفع غرامات للشرطة . ولئن تعب الآن بعض التعب ، وصحا بعض الصحو ، فان طبعه لايزال طبعه ، لا يختلف الآن عما كان عليه يوم فاوض قره مانليا علی الكابيا . انه رجل عنيد ذو آراء

(1) الذبحة الصدرية .

خاصة دائما وفى كل أمر من الأمور . غير ان صراحته التى كانت مضرب المثل قد استحالت الآن الى حدة ، كما أن روح المشاكسة والقتال قد صارت عنده الى مرارة قاتمة لا تكفى أعنف الألفاظ للتعبير عنها ، ولا تهدأ الا فى الصمت والعزلة .

وشيئا فشيئا هبط الخجا الى نوع من التأمل الهادىء لا يحتاج فيه الى أحد ، بل يزعجه ويضايقه فيه وجود شخص آخر، سواء أكان هذا الشخص من متعطلى الحى التجارى أم كان من الزبائن أم كان امرأته الشابة ، أم كان ذلك العدد الفقير من أولاده الذين يضج بهم البيت . انه يهرب من بيته قبل شروق الشمس ، يمضى الى حانوته فيفتحه قبل أن يفتح سائر التجار حوانيتهم . وهناك يصلى . وهناك يؤتى اليه بطعامه . حتى اذا أضجرته الأحاديث وأضجره المارة . وأضجرته الأعمال ، أغلق باب دكانه ، وانزوى فى ركن صغير بآخر الحانوت كان يسميه «تابوته» . انه موضع مختبىء ، ضيق ، واطىء ، مظلم ، يكاد الخجا يملؤه كله حين يندس فيه . ان به مقعدا من الواح خشبية عليها سجادة ، يستطيع المرء أن يجلس فوقه متربعا . وان به عددا من الرفوف وضعت عليها علب فارغة وأوراق، قديمة وأشياء صغيرة كثيرة لم يجد لها الخجا مكانا فى الدكان . ففى ذلك المكان الضيق المظلم كان الخجا يسمع من خلال جدار حانوته الرقيق صخب الحياة بحى السوق ، ووقع حوافر الخيل ، وصراخ الباعة .. يصل ذلك كله الى أذنيه كأنه يصل من عالم آخر .. بل انه ليسمع صوت بعض المارة يقفون أمام دكانه المغلق فيقولون عنه بعض الملاحظات اللاذعة ، ويتندرون عليه . ولكنه يصغى الى كلامهم هادئا ، لأن هؤلاء الناس هم فى نظره أموات لم يسكنوا بعد . انه ما يكاد يسمعهم حتى ينساهم فى اللحظة نفسها . انه فى ملجئه ذاك بين ألواح الخشب ، تحميه أفكاره حماية قوية من كل ما يمكن أن تأتى به هذه الحياة التى فسدت فى رأيه منذ مدة طويلة وسارت فى سبيل ضالة . ان الخجا يجد هنا نفسه ويعود الى آرائه عن مصير العالم وسير الأمور الانسانية وينسى كل ما عدا ذلك : ينسى حى السوق ، وينسى همومه الناشئة عن ديونه ، وينسى الهموم التى يسببها له أقنانه الذين لا يردون اليه ما اقترضوه ، وينسى الهموم التى تولدها له امرأته الشابة المسرفة فى شبابها ، امرأته التى يستحيل شبابها وجمالها فجأة الى مزاج سيىء أحمق جهنمى ، وينسى همومه الناشئة عن ذلك القطيع من

الاولاد الذى يمكن أن تنوء بحمله ثروة السلطان نفسه . والذى لا يفكر فيه الخجا الا وينتابه ذعر .

حتى اذا رجع اليه هدوءه وارتاح ، عاد ففتح حانوته كأنه عائد من مكان آخر .

ان الخجا يصغى الآن الى الحديث الفارغ الذى يجرى بين جاريه .

قال أحدهما (وهو من الكسالى المعروفين فى حى السوق) قال يتفلسف بينما هو يحتسى قهوة على خجا :

ـ هل ترى آثار الزمن وعطايا الله ؟ لقد اهترأ الحجر بالماء كما يهترىء الجراب بالحذاء . لكن النمسويين لا يرضيهم ذلك . فهم يبادرون الى ترقيع كل ما يتهشهم .

فأجابه الثانى الذى يعنى بنفس الشئون التى يعنى بها الأول :

ـ دعك من هذا الكلام يا مسكين . ما ظل نهر درينا هو نهر درينا فسيظل الجسر هو الجسر . وهب النمسويين لم يمسوا الجسر بأيديهم ، فسيبقى ما كتب له أن يبقى . لا فائدة من هذه النفقات كلها ، ومن هذا الاضطراب كله .

ولولا أن على خجا قاطعهما لظلا فى هذا الحديث مدة طويلة . قال على خجا :

ـ وأنا أقول لكم انه ليس من الخير أن يمسوا الجسر . سترون أن هذا الاصلاح لن يخرج منه خير . لئن أصلحوا الجسر اليوم ، لسوف يخربونه غدا . لقد حدثنى ملا ابراهيم انه قرأ فى الكتب أن من يعترض الماء المتدفق ويحول مجراه ، ولو يوما واحدا أو ساعة واحدة ، فقد أثم . ولكن النمسوى لا يحس انه يحيا ان لم يطرق شيئا من الأشياء . يود النمسوى لو يدق الأعين نفسها .. يود النمسوى لو يقلب الأرض نفسها اذا استطاع ..

قال أحد الرجلين المتعطلين :

ـ انه ليس شرا ، فى نهاية الأمر ، أن يصلح النمسويون الجسر ، فذلك لن يضر بالجسر ، هذا اذا لم يطل عمره .

قال على خجا فى غضب :

ـ وكيف عرفت أن ذلك لن يؤذى الجسر ؟ من قال لك هذا ؟ هل تعلم أن كلمة واحدة يمكن أن تدمر مدنا برمتها ، فكيف بهذا الاضطراب كله ؟ لو كنت تعرف القراءة والكتابة ، لو كنت عالما ـ وما أنت بعالم ـ لأدركت أن هذا المبنى ليس كغيره من المبانى ،

وانما هو من تلك الأبنية التى شيدت فى سبيل الله وبارادة الله .
شاده بعض الناس فى عصر من العصور ، وها هم أولاء ناس آخرون يهـــدمونه فى عصر آخر . أنت تعلم ما يرويه الشـــيوخ عن النزل الحجرى . لم يكن بالمملكة كلها نزل آخر من نوعه ، فمن الذى هدمه مع ذلك ؟ انه من ناحية متانة البناء وفن البناء كان ينبغى أن يعمر ألف سنة ، ومع ذلك زال كأنه كان من شمع .. وفى المكان الذى كان فيـه النزل ، تهمهم الآن الخنـــازير ، وتدوى أبواق النمسويين .

فاعترض الرجل يقول :

ــ أما أنا ، فأقول .. فأرى أن ..

ــ أنت مخطىء .. ولو صدق رأيك لما بنى فى المستقبل شىء ولما تهدم فى الماضى شىء . اعود فأقول لك ان ذلك كله ليس من الخير ، وليس يبشر بخير لا للجسر ولا للمدينة ولا لنا نحن الذين نراه بأم أعيينا .

قال الآخر مذكرا فى خبث بالآلام التى تحملها على خجا قديما على الـكابيا :

ــ صحيح .. ان الخجا يعلم ما هو الجسر أكثر من أى شخص آخر .

فقال الخجا :

ــ لا تظنن أننى لا أعلم ..

ثم أخذ يقص ، هادئا فى هذه المرة ، حكاية من تلك الحـكايات التى يستخف بها الناس ، ولـكنهم يحبون أن يسمعوها ، بل يحبون ان يسمعوها مرات كثيرة ، **قال :**

ــ قديما سمع المرحوم والدى من الشيخ داريه قصة الجسور فى هذا العالم من أين جاءت وكيف بنى أول جسر منها . وقد قص على المرحوم والدى هذه القصة أيام كنت صبيا . قال : حين خلق الله القدير هذا العالم كانت الأرض مسطحة ملساء كطبق جميل منقوش. فاستاء من ذلك ابليس الذى حسد الانسان على هذه الهبة من هبات الله . فما ان خرجت الأرض على ذلك النحو من بين يدى الله رطبة لينة كالعجين ، حتى تسلل ابليس فأخذ يخدش بأظافره وجه الأرض التى خلقها الله ، يخدشها أعمق خدش يستطيعه ، وهكذا ظهرت الأنهـار العميقة والوديان التى تفصل البـلاد بعضهـا عن بعض ، وتفصل البشر بعضهم عن بعض ، ومنعت هؤلاء البشر من أن يجوبوا

فى هذه الأرض التى وهبهـا لهم الله بستانا يطعمهم ويعيلهم ، وقد غضب الله حين راى ما صنعت يد الشيطان الرجيم ، لـكنه لم يشأ أن يعيد خلق هــذه الأرض التى أفسدها ابليس ، فأرسل ملائكته يساعدون البشر وييسرون لهم الأمور . فلما رأت الملائـكة أن البشر البؤساء لا يستطيعون أن يجتازوا تلك الهوات والأعماق السحيقة ولا يستطيعون أن يقوموا بأعمالهم فى سهولة ويسر ، وانما هم يتعذبون وينظرون آسفين وينادى بعضهم بعضا من ضفة الى اخرى ، بسطت الملائـكة أجنحتهـا فوق تلك الأماكن ، فاستطاع الناس بذلك أن يجتازوها على أجنحة الملائـكة . وهكذا تعلم البشر من ملائـكة الرحمن كيف تبنى الجسور . ومن أجل ذلك كان بناء جسر من الجسور أقرب الأعمال الى البر والتقوى بعد عيون الماء ؛ ومن اجل ذلك أيضا كان مد الأيدى الى الجسور انما من الآثام . لان كل جسر ، مهما يـكن شأنه ، من أبسط جذع من جذوع الأشجار التى توضع لاجتياز سيول الجبال الى هذا الجسر العظيم الرائع الذى بناه محمد باشا ، له ملاك يحـرسه ويصونه ما شـاءت ارادة الله أن يبقى .

قال الرجلان فى ادب وقد انتشيا من سماع هذا الـكلام :

ـــ الله .. الله ..

هكذا كان يزجى هؤلاء الرجال أوقاتهم ، بينما العمـل يتقــدم هناك على الجسر الذى تأتيهم منهم أصوات صريف العجلات وقرقعة الآلة التى تخلط الأسمنت بالرمل .

لقد انتصر الخجا فى هذه المناقشة كما ينتصر فى مثلها دائما . اذ ما من أحد يريد أو يستطيع أن يتابع مجادلته الى النهاية ، وخاصة امثال هذين المتعطلين السخيفين اللذين يشربان قهوته ويعرفان انهما سيقضيان فى الغد شطرا من يومهما فى حانوته .

وهكذا كان يتحدث الخجــا الى جميع الذين يقتربون من باب حانوته لعمل من الأعمال أو من قبيل المصادفة عابرين . وكانوا جميعا يصغون الى كلامه باستطلاع ساخر وانتباه ظاهر ، ولـكن ما من احد فى المدينة كان يشاركه الرأى أو يفهم تشاؤمه ، ويفهم هــذه المخاوف المظلمة التى كان هو نفسه لا يستطيع أن يعللهــا ولا أن يدعمها بالحجة والبرهان . ثم انهم جميعا قد تعودوا منذ مدة طويلة أن ينظروا الى الخجا نظرتهم الى انسان عنيد شاذ أصبح بتأثير تقدمه فى السن ، وبتأثير الظروف القــاسية التى يعيش فيها ، وبسبب

امرأته الشابة ، ينظر الى كل شيء نظرة سوداء . ويضفي على كل شيء معنى غيبيا يبعث على التشاؤم والتطير .

وكان معظم أهل المدينة لا يحفلون بما يجرى على الجسر ، كما كانوا لا يحفلون بكل ما يصنعه هؤلاء الأجانب فى المدينة وفيما يحيط بها منذ سنين . ان كثيرا منهم يكسبون الآن رزقهم من نقل الرمال والأخشاب أو من نقل الطعام للعمال . غير أن الأطفال قد خاب ظنهم حين رأوا العمال ينفذون من سقالات الخشب الى الفتحة المظلمة فى العمود المركزى ، أى الى « الحجرة » التى كان يعتقد جميع الأطفال ان الزنجى يعيش فيها . لقــد خاب ظن هؤلاء الاطفال حين رأوا العمال ينفذون الى هذه الفتحة ، فيخرجون منهـا قففا من زبل الطيور ، ثم لا شيء غير ذلك . ان الزنجى لم يظهر . لقد وصل الأطفــال فى ذلك اليوم الى المدرسة متأخرين ، لأنهم تلبثــوا على الضفة ساعات طويلة ينتظرون أن يخرج العبد من ظلماته المألوفة ، ليلطم صدر أول عامل يلقاه أمامه ، فاذا بالعامل يطير من قوة اللطمة فى الفضاء على خط منحن ويسقط فى النهر .. لقد انتظر الأطفــال خلال تلك الساعات الطويلة على غير طائل ، واحنقهم أن ما كانوا يتوقعون حدوثه لم يحدث .. وحاول بعض صغارهم أن يقصوا أن الحادث وقع فعلا ، لـكن حكاياتهم لم تحمل لهجة مقنعة ، حتى ان الصبية الـكبار هزأوا بهم .. ولم تجدهم ايمانهم شيئا .

ولما انتهى اصلاح الجسر ، بدأت أعمال أخرى لجر المياه الى المدينة بالانابيب . لم يكن بالمدينة حتى ذلك الحين الا عينان اثنتان خشبيتان تأتيان بمياه النبع الى حى الميدان . أما سائر العيون فكانت فى المدينة السفلى وكانت مياهها من مياه أحد النهرين ، درينا أو رزاف ، فكانت هذه المياه تعتكر متى اضطرب أحد النهرين ، وتغيض فى موسم الحر الشـــديد من الصيف حين ينخفض مستوى الميــاه فى النهــر . وقد وجد المهندسون أن هذه المياه ليست صحية . لذلك جرت المياه من مكان بعيد فى الجبل ، تحت كابرنيك ، وهو مكان واقع على الضفة الثانية من نهر درينا ، فـكان لابد اذن من أن تمر بالجسر .

لذلك شهد الجسر فترة أخرى من الاضطراب والصياح . نزعت منه بلاطــات ، وحفر عليه مجــرى للأنابيب ، وأضرمت فــوقه مواقــد يغـلى عليهــا القطران ويصب الرصاص . فكان النــاس ينظرون الى هذه الأعمال مرة أخرى فى سوء ظن وفى حب اطلاع ، كما نظروا قبل ذلك الى الأعمال التى سبقتها . وكان على خجا

يقطب حاجبيه من الدخان الذى يصل الى دكانه من خلال ساحة السوق ، وكان يتحدث فى احتقار عن هذا الماء « النجس » الذى يجرى فى أنابيب من حديد ، فلا يصلح لا للشراب ولا للاغتسال . هذا الماء الذى سترفض الخيول أن تشربه اذا كان قد بقى الى هذا الزمان خيول أصائل . وكان على خجا يبرهن لجميع الذين يريدون أن يصغوا الى كلامه ، على أن جر المياه هذا بالانابيب انما هو نذير كوارث مجهولة ستحل بالمدينة عاجلا أو آجلا .

وما جاء صيف السنة التالية حتى كانت الأنابيب قد مدت ، وحتى انتهت أعمال جر المياه كما انتهت قبلها أعمال أخرى ، فاذا بماء نقى غزير يتدفق من عيون حديدية جديدة ، ماء لا شأن له بالجفاف ولا شأن له بالفيضان . وجر عدد كبير من أهل المدينة الماء الى أفنية البيوت ، وجره بعضهم الى البيوت نفسها .

وفى خريف تلك السنة ذاتها شرع فى مد سكة حديدية . وذلك مشروع أطول مدى ، وأعظم خطرا ، ولم يكن له فى ظاهر الأمر صلة بالجسر .

انها تلك السكة الحديدية الضيقة التى أطلقت عليها مقالات الجرائد والمراسلات الرسمية اسم « السكة الحديدية الشرقية » . وكان عليها أن تربط سارايفو بحدود الصرب ، وفارتشته ، وحدود السنجق التركى فى نوفيبازار الى أوفاتس . وكان على هذا الخط الحديدى أن يمر بمدينة فيشيجراد التى ستكون أهم محطاته .

لقد كتبت مقالات كثيرة وقيل كلام كثير فى العالم كله عما لهذا الخط من شأن سياسى واستراتيجى خطير ، وعن الحاق البوسنة بالهرسك قريبا ، وعن الأهداف البعيدة التى تهدف اليها النمسا المجر عبر السنجق نحو سالونيك ، وعن جميع المشكلات المعقدة التى يطرحها هذا المشروع . أما هنا ، فى هذه المدينة ، فقد كان كل شىء يبدو بسيطا وجذابا ، مقاولون جدد يصلون ، وجماهير جديدة من العمال تعمل ، ومصادر رزق جديدة لكثيرين .

وكان كل شىء فى هذه المرة من مقياس كبير . ان مد هذا الخط الذى يبلغ طوله ١٦٦ كيلو مترا ، والذى يمر بزهاء مائة جسر ومعبر وبنحو مائة وثلاثين نفقا ، والذى كلف الدولة ٧٤ مليونا من الكورونات الذهبية قد استمر العمل فيه أربع سنين . كان الناس ينطقون بهذا الرقم الضخم وهم يسرحون طرفهم فى غموض الى مكان بعيد ما ، كأنما يبذلون جهودا عقيمة من أجل أن يلمحوا هنالك ذلك الجبل من

الذهب الذى لا يعد ولا يحصى . « ٧٤ مليون » .. هكذا كان يردد كثير من سكان فيشيجراد بمظهر العالم العارف ، كأن المبلغ قد عد على رحات أيديهم .. ذلك أن الناس ، حتى فى هذه المدينة التائهة التى كانت الحياة فى ثلثى مظاهرها لا تزال شرقية تماما ، كانوا قد اخذوا يصبحون عبيدا للأرقام ، وكانوا قد أخذوا يصدقون الاحصاءات . « ٧٤ مليون » أى أقل قليلا من نصف مليون كورون للكيلو متر الواحد ، أو بالضبط : ٤٤٥٧٨٢ . هكذا كان الناس يتمضمضون بالأرقام الضخمة ، دون أن يصبحوا بسبب ذلك أكثر غنى أو أقرب الى التعقل .

وقد أحس الناس فى الفترة الأولى من مد الخط الحديدى ، احسوا لأول مرة انهم ليسوا بصدد ذلك النوع من الأرباح السهلة المضمونة الخالية من الهموم ، التى جنوها فى الأوقات الاولى من الاحتلال . ثم ان الأسعار ، أسعار البضائع والغلال الضرورية ، قد وثبت منذ السنين الأخيرة وثبات كبيرة . كانت هذه الأسعار ترتفع ثم لا تنخفض ، ثم ترتفع مرة أخرى بعد مدة تطول أو تقصر . صحيح أن الناس كانوا يكسبون ، صحيح أن أجور العمل كانت طيبة ، غير أن هذه الأجور كانت دائما دون أثمان الحاجات الحقيقية بما يعادل عشرين فى المائة على الأقل . وكانت تلك لعبة مجنونة خفية ، تسمم حياة عدد من الناس ما ينفك يزداد ، ولكن لا حيلة لأحد فى دفعها ، لأنها تستمد أصولها من مكان بعيد جدا ، لأنها تأتى من تلك المصادر البعيدة المجهولة نفسها التى جاءت منها خيرات السنين الأولى . ان كثيرا من أرباب العمل الذين اغتنوا بعد الاحتلال فورا ، منذ خمسة عشر عاما أو عشرين عاما ، قد حل بهم الفقر ، وأصبح أبناؤهم يعملون عند آخرين . صحيح أن هناك وافدين جددا قد أصابوا ثراء ، غير أن المال كان ينزلق من أكفهم هم أيضا انزلاق الزئبق ، حتى لكأنهم فى لعب من تلك الألعاب التى يمكن أن يجد المرء نفسه بعدها وقد صفرت يداه وتلطخ شرفه .

واتضح للناس شيئا بعد شىء أن الأرباح وما تجىء به من حياة سهلة ، لها وجهها السيىء ، وأن المال والذى يملك المال ، ليسا الا رهانا فى مقامرة كبرى متقلبة لا يعرف أحد قواعدها ولا يستطيع أحد أن يتنبأ بنتائجها ، وأنهم يشاركون فى هذه المقامرة دون أن يدركوا ذلك ، يشاركون فيها بمبالغ قد تكون كبيرة وقد تكون صغيرة ، لكنها معرضة للخسران بغير انقطاع .

وفى صيف السنة الرابعة اجتاز المدينة القطـــار الأول مزدانا بالأوراق الخضراء والرايات . كا نمرور القطار فرحة شعبية كبرى، واولمت للعمال وليمة فاخرة فتحت فيها براميل من البيرة . والتقطت للمهندسين صور فوتوغرافية قرب القاطرة الأولى . وجعل السفر فى ذلك اليوم بالمجان . وقال على خجا معقبا على ذلك « يوم بالمجان .. وطوال الحياة بأجر » ، قال ذلك ساخرا بأولئك الذين ركبوا القطار الأول .

وعندئذ فقط ، بعد أن مد الخط الحديدى واخذ يعمل ، أدرك الناس قيمته بالنسبة الى الجسر ودوره فى حياة المدينة وفى مصيرها جملة . ان الخط الحديدى يصعد الآن نهر درينا على طول الضفة المنحدرة تحت جبل الميـــدان . وهو يدور حول المدينة مخترقا الرابية ، ويهبط فى السهل قرب آخر البيوت الى ضفة نهر زراف . وهنالك توجد المحطة . فجميع المواصلات التى تؤدى الى سارايفو وتؤدى عن طريق سارايفو الى سائر العالم الغربى تبدأ الآن على الضفة اليمنى لنهر درينا ، سواء بالنسبة الى الناس أو بالنسبة الى البضائع . ومعنى ذلك أن الضفة اليسرى والجسر اصبحا الآن معطلين تماما ، فليس يجتاز الجسر بعد اليوم الا فلاحون قادمون من القرى الواقعة على الضفة اليسرى من النهر مع خيولهم الصغيرة المحملة أحمالا ثقالا ، ومع عرباتهم التى تجرها الأبقـــار ، أو مع دوابهم التى تنقل الأخشاب من الغابات الى المحطة .

ان الطريق الذى كان يصعد من الجسر على رابية ليسكا نحـو سيمتش ، ويمضى من هنـــالك الى ســارايفو مارا بجلاسيناتس ورومانيا ، ان هـذا الطريق الذى كانت تدوى فيه قديما أغنيـات السائقين وجلاجل خيول العــربات ، قد أخذت تغطيه الأعشاب واخذت تغطيه تلك الطبقة الرقيقة من الطحلب الأخضر الذى يصحب احتضار بعض الطرق وبعض المبانى احتضارا بطيئا . اصبح الجسر لا يسلك فى الأسفار ، واصبح لا يشيّع اليه أحد ، ولا يودع فيه المسافرون ، ولا يجتازه أحد على حصان ، ولا يصب فيه النـاس الخمر عند السفر ركوبا على خيولهم .

والحوذيون والخيول والعـربات المغطـــاة بسقوف من الجلد والمركبات القديمة التى كان الناس يسافرون عليها الى سارايفو ، ذلك كله أصــبح عاطلا عن العمـــل . وأصبحت الرحلة لا تستغرق يومين كاملين ، مع التوقف للمبيت فى روجاتيستا ، بل تستغرق أربع

ساعات لا أكثر من ذلك . واصبحت هذه الأرقام تدعو الناس الى التفكير والتأمل . أصبحوا يحسبون الفوائد وانواع التوفير التى تحققها السرعة للانسان ، يحسبون ذلك فى انفعال شديد . وسافر رجال من فيشيجراد الى سارايفو لبعض الأعمـــــال ، ثم اذا هم يعودون الى مدينتهم فى مساء ذلك اليوم نفسه الذى سافروا فيه ، فنظر الناس اليهم نظرتهم الى احداث فذة عجيبة ، الا على خجا الشكاك ، العنيد ، الصريح المسرف فى الصراحة ، المنفرد المسرف فى الانفراد ، سواء فى هذا الأمر وفى غيره من الأمور دائما ، فكان يجيب جميع أولئك الذين يغبطون أنفسهم على سرعتهم الآن فى القيـــــام بأعمالهم . والذين يحسبون ما يوفرونه من وقت وجهد ومال بفضل ذلك ، كان على خجا يجيب جميع هؤلاء مستاء بقوله : ليست العبرة فى مقدار الوقت الذى اقتصد وانما العبرة فى طريقة انفاق هذا الوقت فان كان ينفق فى الشر ، فخير للمرء الا يوفره . وكان يحاول أن يبرهن للناس على أن الأمر الأساسى ليس هـو أن يمضى الانسان بسرعة ، وانما أن يعـــــرف الى أين هـو ماض ، ومن أجل ماذا ، فالسرعة ليست اذن بالخير دائما .

قال ذات يوم لتاجر شاب ، فى مرارة :

ـ اذا كنت ذاهبا الى الجحيم ، فمن الخير أن تذهب اليه ببطء . ان من الغباء أن تظن أن النمسويين أنفقوا المال وادخلوا القطار من أجل أن تستطيع السفر بسرعة ، ومن أجل أن تستطيع قضـــــاء اعمالك بسرعة . أنت لا ترى من الأمر الا انك تنتقل من مكان الى مكان ، أما أن تتساءل ما الذى تأخذه هذه الآلة وما الذى بجلبه ، فيما عداك وفيما عدا أمثالك ، فذلك سؤال لا تلقيه على نفسك ، وذلك أمر لا يمكنك أن تفهمه . ســـــافر يا عزيزى ، سافر حيث تشاء ، ولـكنى أخشى أن يحمل اليك هذا السفر فى يوم من هذه الأيام القريبة خيبة مرة . لسوف يأزف الموعـد الذى ينقـلك فيه هؤلاء النمسويون بقطارهم الى مكان لن تحب أن تذهب اليه ولا خطر ببالك يوما أن من الممكن أن تذهب اليه .

وكان كلمـا سمع صفير القاطرة التى تدور حـول المنحدر الوعر وراء النزل الحجرى ، يقطب حاجبيه ، ويدمدم بـكلمات لا تفهم ، ويستمر يغزل فـكرته القديمة وهو ينظر من خلال باب دكانه الى الجسر الحجرى الذى يراه رؤية مواربة دائما ، يستمر يغزل فكرته القديمة : وهى أن كبرى المبانى قد شيدت بكلمة ، وأن طمأنينة مدن

برمنها وحياة مدن برمتهـــا يمكن أن نطوح بها وأن تطوح بسكانها صفرة .. أو هكذا كانت تبدو الأمور لهذا الرجل المضنى الذى يملك ذكريات كثيرة . والذى شاخ على حين فجاة .

غير أن على خجا كان فى هذا الأمر وفى غيره من الأمور شخصا منفردا ينظر اليه الناس نظرتهم الى انسان شاذ معقد . والحق أن الفلاحين انفسهم لم يألفوا السكة الحديدية بسهولة . كانوا يركبون القطار ولـكنهم لم يستطيعوا أن يعتـــادوه ولا أن يعرفوا مزاجه وعاداته . كانوا يهبطون التلال عند الفجر ، ويصلون الى المدينة عند شروق الشمس ، ويأخذون يسألون أول من يلقونه عرضا عند أولى الحوانيت :

ــ هل سافرت « الماكينة » .

فيجيبهم البائعون المتعطلون الذين لا يصدهم عن الكذب شيء :

ــ عافاك الله يا مسكين . لقد سافرت منذ مدة طويلة .

ــ والله ؟

ــ ولـكن ستسافر ماكينة أخرى غدا .

كان الفلاحون يلقون هذه الأسئلة دون أن يتوقفوا ، ويستمرون يغذون الخطى ويصيحون بالنساء والأطفال أن أسرعوا .

هكذا كانوا يصلون الى المحطة مهرولين . فيهدئهم هنالك احـد الموظفين قائلا لهم ان الناس قد كذبوهم الخبر ، وان القطار لن يتحرك قبل ثلاث ساعات ، فيتنفسون الصعداء ، ويجلسون على طول جدار المحطة ، يفرغون أكياسهم ويأكلون ويتحـــدثون أو يغفون قليلا ، ولـكنهم يظلون متأهبين ، فما ان تصفر قاطرة من قطر البضائع فى مكان ما حتى يهبوا واقفين واحدا بعـد آخر ، ويأخذون يجرون أمتعتهم صائحين معولين :

ــ هيا هيا .. الماكينة مسافرة .

فيصدهم الموظف الذى على الرصيف ويخرجهم من المحطـــة قائلا :

ــ ألم أقل لـكم ان القطار لن يسافر قبل ثلاث ساعات ؟ الى أين أنتم مسرعون ؟ أأنتم مجانين ؟

فيعودون الى أماكنهم يجلسون من جديد ، ولـكن الشك والحذر لا يبرحانهم : فما ان يسمعوا أول صفرة ، وما ان يسمعوا أول صوت مريب ، حتى يثبوا مرة أخرى ، وحتى يتدافعـــوا نحو الرصيف ، فيصـــدهم هنـــالك الموظف مرة ثانية ويطلب اليهم أن يصبروا وان

يحسنوا الاصغاء الى مايسمعون من أصوات . واذا كان هؤلاء الفلاحين يسلكون هذا المسلك فلأنهم كانوا فى قرارة نفوسهم ، رغم ما يبذل لهم من تطمينات ، لا يستطيعون أن يمتنعوا عن تصور هذه «الماكينة» على أنها آلة سريعة سحرية مراوغة اخترعها النمسويون ، فان لم يتأهب لها المرء كل التأهب أفلتت منه بمثل لمح البصر . انها ليس لها الا هم واحد : هو أن تخادع الفلاح المسافر وأن ترحل قبل أن يركبها .

على أن ذلك كله لم يكن الا أمورا تافهة ، سواء هذه السخافات التى تدور فى رءوس الفلاحين ، وذلك التشاؤم الذى يملأ قلب على خجا ، وتلك التمتمات التى تتحرك بها شفتاه . كان الناس يتندرون بذلك ، وكانوا فى الوقت نفسه يألفون القطار بسرعة ، كما كانوا يألفون سائر الأشياء الجديدة المريحة الممتعة . وظل الناس يذهبون الى الجسر ويجلسون على الكابيا ، كما كانوا يفعلون دائما . انهم يجتازونه الآن لشئونهم اليومية ، ولكنهم يسافرون فى الاتجاه الذى تمليه عليهم الأعصر الجديدة ، وبالطريقة التى تمليها عليهم هذه الأعصر الجديدة . وسرعان ما ألف الناس أن يتصوروا أن الطريق التى تسلك الجسر لا تؤدى الى العالم الكبير الواسع ، وأن الجسر نفسه ليس هو الآن ما كان فى الماضى ، ليس هو الآن الصلة التى تربط الشرق بالغرب .. أو قل انهم كانوا لا يفكرون حتى فى هذا .

وظل الجسر منتصبا كما كان دائما ، شابا أبدى الشباب .. شابا شباب عمل من الأعمال الكبيرة التى يحققها الانسان بعد أن يحسن تصورها ويحسن تنفيذها ، الأعمال لا تعرف ما هى الشيخوخة ولا تعرف ماهو التغير ، ولا تشارك ــ أو هذا ما توهم به على الأقل ــ فى مصير الأشياء العارضة فى هذه الحياة الدنيا .

الفصل السابع عشر

ولـكن ، هناك ، قرب الجسر ، فى المدينة التى ربطه القدر بها ، كانت ثمرات الأعصر الجديدة تنضج . وجاء عام ١٩٠٨ ، فجاء معه قلق كبير وتهديد غامض ظل جاثما على صدر المدينة منذ ذلك الحين .

الواقع أن هذا التغير قد بدأ قبل ذلك بكثير ، كان قد بدأ منذ الشروع فى بناء الخط الحـــديدى ، فى السنين الأولى من القرن الجديد . وحين أخذت الأســعار ترتفع ، وحين أخـذت العمـلة والايرادات والأموال تصعد وتهبط ، أخذ الناس يتحدثون فى شئون السياسة أكثر فأكثر .

كان الناس حتى ذلك الحين لا يعنون الا بما يتصل بهم من قرب والا بما يعرفونه من أمر ، كانوا يتحدثون فى الأرباح التى يجنونها وفى التسليات التى يتمتعون بهـا . كانوا لا يعنــون على وجــه الاجمال الا بالأمور التى تتصل بأسرهم أو أحبائهم او مدينتهم ، أو طائفتهم الدينية ، وكان حديثهم فى هذه الأمور كلها مباشرا محدودا لا ينظر كثيرا الى أمام ، ولا ينظر كثيرا الى خلف . أما الآن فان أحاديثهم تشتمل على نصيب متزايد من الاهتمام بشئون تتجاوز أفقهم المـألوف وتخرج عن دائرة تلك المشاغل .

لقد نشأت فى سارايبفو أحزاب ومنظمات دينيـة ووطنية ، فى صفوف الصرب وفى صفوف المسلمين ، وسرعان ما أنشئت لهـذه الأحزاب ولهذه المنظمات فروع فى المدينة . وأصبحت تصــل الى فيشيجراد جرائد جديدة تصدر فى ســارايبفو . ونشــأت قاعات للمطالعة ، وفرق للغناء . وقامت جمعيــات بين صفوف الصرب أولا ، فالمسلمين ثانيا ، فاليهود أخـــيرا . وأصبح تلاميذ المدارس الثانوية وطلاب جامعات فيينا وبراغ الذين يعودون لقضاء العطـلة الدراسية فى المدينة بين أهلهم يحملون كتبا جـديدة ، وكراســات مطبوعة وطريقة جديدة فى التعبير . كانوا بسلوكهم يضربون مثــلا

لمن هم أصغر منهم سنا من سكان المدينة ، على ان المرء يجب الا يسكت دائما ، والا يحتفظ بآرائه لنفسه ، كما يعتقد بذلك ويردد ذلك الكبار ، وظهرت أسماء منظمات جديدة ، منظمات دينية ووطنية - تقوم على أسس أوسع ، وتنادى بأهداف جريئة ، وظهرت بعد ذلك منظمات عمالية . وسمعت المدينة حينئذ لأول مرة كلمة « الاضراب » . واصطبغ سلوك جماعة من الشباب بطابع الجد ، واصبحوا يتحدثون فى المساء على الكابيا فى أمور لايفهمها الآخرون ، ويتبادلون كراسات غير مجلدة عناوينها : « ما هى الاشتراكية ؟ » ، « ثمانى ساعات عمل ، ثمانى ساعات راحة ، ثمانى ساعات ثقافة » ، « أهداف البروليتاريا العالمية وطرقها » .

وأصبح الحديث الى الفلاحين يدور على المشكلة الزراعية ، والعلاقات بالاقنان ، وأراضى البكوات . فكان الفلاحون يصغون الى هذه الأحاديث ، وقد مالت أعينهم تنظر الى جانب ، وأخذت شواربهم تتحرك حركة يسيرة لا ترى ، وراحت جباههم تتقبض ؛ كأنهم يبذلون جهدا من أجل أن يسجلوا فى ذاكرتهم كل شىء ، ليفكروا فيه بعد ذلك حين يخلون الى أنفسهم ، أو ليتكلموا فيه بعد ذلك مع ذويهم .

ولئن ظل كثير من الناس يلزمون الصمت من قبيل الحذر ؛ أو يرفضون هذه الآراء الجديدة ، أو يرفضون هذا التطرف فى الفكر والكلام ، فان الذين يقبلون هذه الأمور كلها ويعدونها بشائر خير ، كانوا أكبر عددا من أولئك ، وخاصة بين صفوف الشباب والفقراء والمتعطلين ، فقد كانت هذه الآراء تناسب حاجاتهم النفسية التى ظلت الى ذلك الحين صامتة مكبوتة ، وكانت تدخل الى حياتهم ذلك الشىء العظيم الموقظ للحماسة ، الذى أعوزهم الى الآن . فكان كل منهم ، حين يقرأ الخطب والمقالات والاحتجاجات والمذكرات التى تصدر عن المنظمات الدينية أو الأحزاب ، يحس أن شيئا فيه ينطلق من عقاله ، وان أفقه يتسع ، وأن أفكاره تتحرر ، وان قواه تنضم الى قوى أناس آخرين ، والى قوى أخرى بعيدة لم يفكر فيها قبل الآن ، وأصبح يبدو لهم ، فى هذا نفسه ، أن الحياة غدت أوسع وأغنى ، وان حدود المحرم والمستحيل قد تراجعت : وان آمالا جديدة وامكانيات لم يكن لها وجود قد أطلت الآن حتى على من لم يكن يملكها قبل ذلك الحين .

والحق أنهم لا يملكون الآن شيئا جديدا ، ولا يرون شيئا أفضل ، الا أنهم يستطيعون الآن أن ينظروا الى ما وراء حياتهم اليومية بالمدينة ، وأن يروا السعة والقوة بأوهامهم رؤية تذكى الحماسة . ولم تتغير عاداتهم ، ولا تغير طراز معيشتهم ، ولاتبدلت علاقات بعضهم ببعض ، الا ان جلستهم المتمطلة التقليدية على الكابيا ، لشرب القهوة وتدخين السجائر واحتساء الراكيا ، اصبحت تخالطها الآن مناقشات فكرية ، وكلمات جريئة ، وطريقة جديدة فى الحديث . أخذ الناس ينقسمون ويتكتلون ، ويتنابذون ويتجاذبون ، على أساس من معايير جديدة وقواعد جديدة ولكنهم يخضعون فى ذلك كله لتأثير أهواء قديمة ، وغرائز من غرائز الآباء والأجداد .

وفى تلك الفترة أيضا أخذت أحداث الخارج تتراجع اصداؤها فى المدينة . لقد تبدلت الأسرة الحاكمة فى الصرب عام ١٩٠٣ ، وتبدل نظام الحكم بعد ذلك فى تركيا (١) . ومدينة فيشيجراد التى تقع على حدود الصرب ولا تبعد عن الحدود التركية ، والتى كانت تربطها بهذين البلدين صلات عميقة لا ترى ، قد شعرت بهذه التبدلات وعاشتها وفسرتها ، رغم ان الناس لم يعلنوا بوضوح ولا عبروا بصراحة عن كل ما دار فى أذهانهم وقام فى نفوسهم بصدد هذه التبدلات .

واخذ الناس فى المدينة يحسون احساسا أقوى بما تقوم به السلطات من نشاط وتحدثه من ضغط ، السلطات المدنية أولا ، فالسلطات العسكرية بعدئذ ، وذلك فى صورة جديدة . كانت هذه السلطات قبلئذ تراقب ما يعمله كل فرد من الأفراد ، وتراقب سلوكه ، أما الآن فهى تسأل عما يعتقد به من آراء ، وعما يقوله من كلام . واصبح عدد رجال الدرك يزداد بغير انقطاع فى القرى المجاورة الواقعة على طول الحدود . وانضم الى قيادة المنطقة ضابط من ضباط المخابرات أصله من ليكا . وأصبحت الشرطة تعتقل الشباب وتفرض عليهم الغرامات ، لأنهم لم يتحفظوا

(١) على أثر قيام عدد من الضباط ببلجراد باغتيال الملك ألكسندر (من أسرة أوبرينوفتش) وزوجته دراجا ، فى اليوم العاشر من شهر يونية سنة ١٩٠٣ ، انتقل تاج الصرب الى أسرة قره جورجفتش بشخص بطرس الاول . وفى شهر يونية من عام ١٩٠٨ جاءت ثورة « تركيا الفتاة » ، فأنهت حكم السلطان عبدالحميد . ان الاتراك الشباب الذين تقودهم « جمعية الاتحاد والترقى » قد استمالوا اليهم حامية سالونيك وقاموا بثورة على السلطان عبدالحميد وخلعوه . وكان هؤلاء الشباب الاتراك يريدون بعث الامبراطورية ليجعلوها أقدر على مقاومة أوروبا .

فى كلامهم ، أو لأنهم غنوا أناشيد صربية ممنوعة . وأبعد الأجانب المشبوهون . وبين الوطنيين أنفسهم أصبحت الخلافات فى الرأى تؤدى أحيانا الى مشاجرات والى تماسك بالأيدى .

ولم يقتصر قيام الخطوط الحديدية على جعل الأسفار أقصر ، وعلى جعل نقل البضائع أسرع ، بل اصبحت الأحداث نفسها فى تلك الفترة تجرى جريانا متسارعا . وكان أهل المدينة لا يلاحظون هذا التسارع لأنه يتم تدريجيا ولا يلفت انتباههم جميعا . واعتاد الناس الأمور المثيرة . اصبحت الأنباء المثيرة شائعة غير نادرة ، بل أصبحت غذاء يوميا وحاجة حقيقيــة . غدت الحياة كلها حثيثــة الخطى واصبحت تتسارع على حين فجــأة تسارع السيل قبيل ان يتكسر فيهبط الصخور المنحدرة ويستحيل الى شلال .

كانت قد انقضت أربع سنين على بدء سير أول قطار ، حين علق فى ذات صباح من شهر اكتوبر (تشرين الأول) على الـكابيا ، تحت اللوحة التى عليها كتابة تركية ، اعلان أبيض كبير . لقد الصق الاعلان هنالك موظف من موظفى الادارة بالمنطقــة اسمه دراجو . فتجمــع الأطفال والمتعطلون حول الاعلان فى أول الأمر ، ثم أخذ يتوافد عليه الأشخاص الآخرون . فكان الذين يعرفون القراءة والـكتابة يقرأون الاعلان بصوت عال ، يتهجونه ويتوقفون منه عند التعابير الأجنبية والمصطلحات الجديدة ، وكان الآخرون يصغون صــامتين ، خافضى الطرف ، حتى اذا فرغوا من ســـماع الاعلان كله ، تلبثوا بضــع لحظات ثم انصرفوا دون أن يرفعوا ابصــــارهم عن الأرض ، وهم يضعون أيديهم على شـــواربهم ولحاهم ، كأنما هم يمسحون كلمــة هموا أن يلفظوها .

وصل على خجا بدوره بعد صلاة الظهر ، تاركا دكانه ، مكتفيا بأن يضع الحاجز على بابه ، اشارة الى أنه مغلق . ان الاعلان فى تلك المرة لا يشتمل على نص تركى ، والخجا لا يقرأ اللغــة الصربية ، وكان أحــد لصبية يقرأ الاعــلان بصوت عال ، قراءة آلية تماما كقراءته تماما فى المدرسة :

بيــــــــــان
لشعب البوســــــنة والهرســــــك

« نحن » فرنسوا جوزيف الأول ، امبراطور النمســــــا وملك

بوهيميا .. الخ ، والملك الرسولى للمجر ، نعلن لأهالى البوسنة والهرسك ما يلى :

« حين اجتاز جيشنا حدود بلادكم منذ جيل .. » .

سمع على خجا هذا الكلام فأحس بقرص فى أذنه اليمنى تحت العمامة البيضاء ، وطافت فى خياله صور مناقشته مع قره مانليا ، والعقوبة القاسية التى وقعت عليه ، والصليب الأحمر الذى كان يهتز أمام عينيه المغرورقتين بالدموع حين جاء أحد الجنود النمسويين فنزع المسمار فى حذر ، والاعلان الابيض الذى يشتمل على نداء موجه الى الشعب ، طافت فى خياله صور ذلك كله كأنما هو حدث بالأمس القريب .

واستمر الصبى يقرأ :

« لقد اكدنا لكم يومئذ أننا لم نأت اليكم اعداء بل اصدقاء ، وأننا نعزم عزما قويا على ازالة جميع الشرور التى اثقلت كا كا كاهل وطنكم خلال سنين » .

فأخذ الناس جميعا ينددون بالقارىء الأخرق ، فاضطرب الصبى واحمر وجهه ، وما لبث أن غاب فى صفوف الجمهور ، فحل محله شخص مجهول يرتدى سترة جلدية ، كأنه كان ينتظر هذه الفرصة ، فأخذ يقرأ فى تدفق سريع متصل . كأنما هو يتلو دعاء من الادعية حفظه عن ظهر قلب منذ مدة طويلة .

« ان ذلك الوعد الذى قطع لكم فى تلك اللحظة الحرجة قد نفذ فى الواقع تنفيذا صادقا . فقد جهدت حكومتنا طوال هذه المدة فى أن تسير بوطنكم الى مستقبل أسعد ، بالعمل المستمر فى ظل السلام والقانون .

« وانه ليسرنا كثيرا أن نستطيع اليوم أن نقول فى صراحة : ان البذور التى بذرت فى أرض أحسن حرثها قد انبتت نباتا طيبا كثيرا . ولا شك انكم تحسون بهذه الوقائع احساسكم ببركة حلت بكم . فبدلا من العنف والاضطهاد قام النظام والامن ، وأصبح العمل وأصبحت الحياة فى تقدم مطرد ، وانتشر التعليم انتشارا يدعو الى الفخر ، وصار فى وسع كل انسان أن يتمتع بثمرات عمله فى حماية ادارة نظامية .

« وانه ليقع على عاتقنا جميعا واجب مواصلة التقدم فى هذه الطريق .

« ومن أجل تحقيق هذا الهدف رأينا انه قد آن لنا أن نقدم

لسكان البلدين برهانا جديدا على ثقتنا بنضجهم السياسي فقررنا في سبيل أن نرفع البوسنة الى درجة من الحياة السياسية أرقى ، أن نمنح هذين البلدين انظمه دستورية ــ تتفق مع ظروفهم ومع مصالحهم العامة ــ وأن نضع بذلك أساسا شرعيا لتمثيل امانيهم ومصالحهم .

« فليسمع صوتكم حين تتخذ فى المستقبل قرارات تتصل بشئون وطنكم الذى ستكون له ادارة مستقلة كما كانت له ادارة مستقلة حتى الآن .

« ولكن الشرط الأول الضرورى لادخال هذا الدستور الوطنى هو أن يعين الوضع القانونى للبلدين تعيينا واضحا لا يتطرق اليه الشك . وعلى أساس هذا المبدأ ، وعلى أساس الاحتفاظ بذكرى الصلات التى كانت قائمة منذ ازمنة بعيدة بين هذين البلدين وبين أسلافنا الأماجد الذين تعاقبوا على عرش المجر ، فقد جعلنا حقوق سيادتنا تشمل البوسنة والهرسك ، ونريد أن يطبق على هذه البلاد نظام توارث الملك الذى هو من حقوق أسرتنا .

« وبذلك يستطيع أهالى هذين البلدين أن ينالوا نصيبهم من الخيرات التى يمكن أن يكفلها لهم هذا التعزيز الدائم للروابط التى كانت تجمعهم الينا حتى الآن ، فمن شأن هذا الوضع الجديد أن يضمن لوطنكم الرقى والرفاهية .

« يا أهالى البوسنة والهرسك .

« لن يكون اهتمامنا برخائكم المادى والمعنوى آخر الاهتمامات الكثيرة التى تشغل عرشنا . واعلموا أن المساواة بين الجميع أمام القانون ، والمشاركة فى وضع القوانين وادارة البلاد ، وحماية جميع الأديان وجميع اللغات وجميع الخصائص القديمة ، على حد سواء ، اعلموا أن كل هذه الخيرات العظيمة ، ستتمتعون بها كاملة غير منقوصة .

« حرية الأفراد ، وخير الجماعة ، ذلك هو النجم الهادى الذى سيقود خطوات حكومتنا فى هذين البلدين » .

كان على خجا فاغرا فمه قليلا ، مائلا برأسه الى أمام ، وهو يصغى الى هذه الكلمات التى لم يألف أكثرها أو هو يجهله كل الجهل ، وكذلك الكلمات الأخرى التى لم تكن فى ذاتها غريبة عنه ، لكن ورودها فى هذا السياق غريب لا يفهم « البذور .. فى أرض أحسن حرثها » ، « الشرط الضرورى لادخال هذه الدساتير

الوطنية » ، « تعيين الوضع القانونى تعيينا واضحا لا يتطرق اليه الشك » ، « النجم الهادى الذى سيقود خطى حكومتنا » . نعم، هذه هى « الـكلمات الامبراطورية » تعود مرة ثانية . كان الخجا ، حين يسمع كل كلمة من الـكلمات على حدة ، يطل بخياله تارة على أفق بعيد عجيب خطر ، ويرى تارة أخرى حجابا اســـود بلون الرصاص ينسدل امام حدقتيه . فهو حينا لا يرى شيئا البتة ، وحينا يرى شيئا لايفهمه ولا يبشر بخير . ولا شىء فى هذه الحياة مستحيل .. وكل معجزة فى هذه الحياة ممكنة . رب شخص يصغى الى بعض الـكلام فى انتباه فلا يفهم شيئا من التفاصـيل ، لـكنه يدرك المعنى ادراكا كاملا ، ويفهم جمـلة الأمر فهمـا صـحيحا . البذور ، والنجم الهادى ، واهتمامات العرش ، كل هـذا الـكلام يمكن أن يقـــال بلغة أجنبية ، دون أن يمنع الخجا من فهم المراد منه ، فيما يتراءى له ، ودون أن يمنعه من معرفة الغـــاية التى تستهدف من ورائه . ان هؤلاء الملوك يلقون النداء تلو النداء ، منذ ثلاثين عاما ، الى البلاد والمدن وأفراد الشعوب . وكل كلمة فى كل نداء لـكل امبراطور مثقلة بالنتائج . لقد تمزقت البلاد . وان الرءوس فى هذه البلاد لتطير بسبب هذه الكلمات الامبراطورية. فاذا قيل « البـذور والنجم الهادى واهتمامات العرش » ، فانما يقال ذلك حتى لا تسمى الأشياء بأسمائها ، وحتى لايعلن مايحدث فى حقيقة الأمر : وهو ان بلادا واقطارا ومن عليها من أحيـــاء وسكان ، تنتقل من يد الى يد ، انتقال العملة الصـغيرة ، وان الانسان الذى دان بدين الحق وحسنت نياته ، لن يجد بعـد الآن أمنـا على هـذه الأرض ، وان حاله وأملاكه تتبدل بغير ارادته على نقيض رغباته ونياته الصادقة .

كان على خجا يصغى الى هذا الـكلام فيحس أن هذه الكلمات هى تلك الـكلمات نفسها التى سمعها منذ ثلاثين عاما ، وأن مايجثم على صدره الآن من ثقل كالرصاص هو عين ما شعر به اذ ذاك . انه ذلك البلاغ نفسه الذى أعلن أن عهـد الأتراك قد ولى ، وان « الشـعلة التركية قد ذوت » . وانما هو يردد على مسامعهم ، لأنهم لا يريدون أن يفهموا ، ولا أن يدركوا الوقائع ، بل يخـادعون أنفسهم ويتجاهلون تجاهل العارف .

« وفى مقابل ذلك لاشك أنكم ستبرهنون على جدارتكم بهـذه الثقة التي نوليكم اياها ، وذلك حتى يكون الانســـجام بين الملك

والشعب ، هـذا الانسجام الذى هو أكبر ضمان لتقدم الدولة ، مصاحبا لعملنا المشترك على الدوام » .

صدر فى عاصمتنا ومقرنا الملكى بودابست .

فرانسوا جوزيف ، ش (١)

هكذا أتم الرجل الذى يرتدى ألستره الجنبيه قراءته ، ثم ما لبث أن صاح على حين فجأة صياحا قويا غير متوقع :

ــ عاش صاحب الجلالة أمبراطورنا .

فاذا بفرحات ، الرجل الطويل الذى يشعل قناديل البلدية ، يصيح وراءه كأنما كانا على خطة مبيتة :

ــ عاش .. عاش .. عاش .

وتفرق الآخرون فى تلك اللحظة نفسها صامتين .

ولم تهبط ليلة ذلك الروم الا وكان الاعلان الأبيض الكبير قد مزق ، ورمى فى نهر درينا . وفى الغداة ، اعتقل عدد من الشباب الصربيين اشتبه فى أنهم هم الذين فعلوا هذا الأمر ، وعلق على الكابيا اعلان ابيض آخر . وكلف خفير من خفراء البلدية بحراسته .

متى شعرت حكومة من الحكومات بحاجتها الى بذل وعود الأمن والرخاء لرعاياها عن طريق الاعلانات ، كان ينبغى أن يكون المرء على حذر وان يتوقع خلاف ذلك تماما . فما أن انتهى شهر تشرين الاول (اكتوبر) حتى أخذ الجيش يصل ، لا بالقطارات فحسب ، بل كذلك عن طريق الدرب القديم المهجور . وكما حدث منذ ثلاثين عاما ، كان الجيش يهبط عقبات الطريق الآتى من سارايفو ، ويدخل الى المدينة بواسطة الجسر مع معداته وذخائره . وكان يضم جميع أنواع الأسلحة ، عدا سلاح الفرسان . امتلأت جميع الثكنات . وعسكر بعض الجنود فى خيام . وظلت تصل الى المدينة وحدات جديدة ، فتمكث فيها بضعة أيام ، ثم تنتشر منها فى القرى الواقعة على طول الحدود المواجهة للصرب . وكان أكثر الجنود من جنود الاحتياط ، وهم ينتمون الى جنسيات مختلفة ، ويحملون مبالغ لابأس بها من المال . فكانوا يبتاعون مشترواتهم الصغيرة من الدكاكين ، ويبتاعون الفاكهة والحلوى من أركان الشوارع . وارتفعت الأسعار . حتى لقد نفد العلف والشوفان نفادا تاما وشرع فى بناء قلاع على الذرى المحيطة بالمدينة . وبدىء على الجسر نفسه

(١) اختصار لكلمة « شخصيا » ومفادها أن النداء كتب بيد الملك نفسه (المترجم) .

عمل غريب . ففي وسط الجسر ، بعد الكابيا رأسا ، في الاتجاه الذاهب من المدينة الى الضفة الثانية من نهر درينا ، أخذ عدد من العمال الذين جيء بهم لهذا الغرض خاصة ، أخذوا يحفرون في أحد الأعمدة حفرة مساحتها متر مربع . ان المكان الذي كان يتم فيه هذا العمل قد غطي بخيمة خضراء ، تسمع من تحتها ضربات الفئوس لا تنقطع وما تنفك توغل عمقا . والحجارة التي ينزعونها كانوا يرمونها فورا الى النهر من فوق الافريز . وعلم الناس في المدينة ، رغم ان العمل يتم في خفاء ، ان هؤلاء العمال يلغمون الجسر ، أي يحفرون في أحد أعمدته حفرة عميقة تصل الى قاعدته، ثم يضعون في قاع هذه الحفرة مواد متفجرة ، من أجل اليوم الذي تصل فيه الأمور الى نشوب حرب ، ويصبح فيه نسف الجسر ضرورة لابد منها . وقد أنزلوا في الحفرة سلالم حديدية طويلة ، حتى اذا فرغوا من عملهم كله وضعوا على فتحة الحفرة لوحا من حديد . وما مضت الا أيام معدودة ، حتى التصق لوح الحديد بالحجر والغبار ، وصارت العربات تمر فوقه ، وحوافر الخيل تقرعه ، والمارة يسيرون عليه مسرعين الى اعمالهم ، دون أن يفكروا في اللغم او في المتفجرات . غير أن الصبية كانوا يقفون على هذا المكان أثناء ذهابهم الى مدارسهم ، ويضربون هذا الباب الحديدي ضربات صغيرة مستطلعين ، ويحاولون أن يحزروا مايختفي وراءه ، ويتخيلون عبدا آخر مختبئا في الجسر ويتشاجرون وهم يتساءلون عن المفتجرات ما هي ؟ وما الآثار التي تنجم منها ؟ وهل يمكن أن تهدم بناء ضخما كهذا البناء تهديما كاملا ؟

ان علي خجا متولتش هو بين الكبار الشخص الوحيد الذي دار حول تلك الخيمة الخضراء في أول الأمر ، وحول لوح الحديد الذي بقي على الجسر بعد ذلك ، ينعم النظر ويدقق وقد أظلم وجهه وثارت الشكوك والريب فينفسه . وكان يصغي الىكل مايقال والى كل ما يتهامس به الناس ، وهو أن حفرة قد حفرت في هذا العمود وان متفجرات قد ربطت بالضفة بسلك كهربائي بحيث يمكن في أية لحظة من لحظات النهار أوالليل أن ينسف الجسر من وسطه كأنه من سكر لا من حجر . كان الخجا يصغي ، ويهز رأسه ، ويفكر .. يفكر نهارا حين يأوي الى « تابوته » ، ويفكر ليلا حين يستلقي على فراشه ساعة النوم . وكان تارة يصدق هذا الاحتمال، وتارة يرفضه لأنه جنون وكفر ، ولكن الأمر يشغل باله بغير

انقطاع ، حتى لقد كان يرى فى الأحلام أسلافه الذين تعاقبوا على ادارة وقف محمد باشا ، يأتون اليه ويسألونه فى قسوة عما يجرى ، وعما يصنع بالجسر . ان على خجا يحرك هذا الهم فى نفسه ، ولا يريد ان يسأل عن الامر احدا من أعيان المدينة ، لأنه يرى أن الانسان العاقل لم يبق له أحد يسأله النصح فى المدينة كلها منذ مدة طويلة ، ولم يبق له من يستطيع ان يناقشه مناقشة انسانية ، فان جميع الرجال فى المدينة أصبحوا أحد أثنين : أما رجل فقد الكرامة والعقل ، وأما رجل حائر مستاء مثل حيرته ومثل استيائه .

ومع ذلك عرضت له فى ذات يوم فرصة السؤال عن هذا الأمر . ان أحد بكوات برانكوفتش (من تسرفتشا) ، واسمه محمد ، قد قام بخدمته العسكرية فى فيينا ، ثم ظل منخرطا فى سلك الجيش فوصل الى رتبة رقيب أول (ان محمد هذا هو حفيد شمسى بك الذى حبس نفسه بعد الاحتلال فى بلدته تسرفتشا ، ومات فيها حزنا وأسى ، ولا يزال يذكر الى الآن بين شيوخ الأتراك مثلا رفيعا على سمو الخلق وسلامة الموقف). وقد جاء محمد بك فى تلك السنة الى المدينة فى اجازة . انه رجل طويل ضخم أحمر ، يرتدى بزة عسكرية زرقاء أنيقة ، عليها أشرطة صفراء ، وأهداب حمراء ، ونجوم صغيرة من فضة عند الياقة ، ويضع فى يديه قفازين جلديين أبيضين كالثلج ، ويضع على رأسه طربوشا أحمر . كان محمد بك يتجول فى الحى التجارى متلطفا مع الناس ، مبتسما ، نظيفا كل النظافة ، انيقا كل الأناقة ، يصدم الأرض بسيفه الطويل على استخفاء ، ويظهر المودة والثقة لكل واحد من الناس ، كشخص يأكل من خبز الامبراطور ، ولا يشك فى نفسه ولا يشفق من أحد .

فلما جاء محمد بك هذا الى دكان الخجا أيضا ، يسأله عن صحته ، ويجلس يشرب قهوته ، انتهز على خجا هذه الفرصة ليسأله عن هذا الأمر الذى يرهقه ، بصفته رجلا من رجال الامبراطور يعيش بعيدا عن فيشيجراد . ذكر له الأمر ، ووصف له ما جرى على الجسر ، وقال له ما يرويه الناس بالمدينة ، وسأله هل مثل هذا الأمر الخارق ممكن حقا : هل يمكن أن يهيأ ، وفقا لخطة ، تهديم مبنى خيرى ذى فائدة عامة كهذا المبنى .

فما أن سمع الرقيب الأول موضوع السؤال ، حتى ظهر عليه

الجد : اختفت ابتسامته العريضة ، وعبس وجهه الأحمر الحليق (كأنه فى استعراض ساعة اصدار هذا الأمر : استعد) ، وصمت خلال لحظه قصيره كأنه مرتبك ، ثم أجاب بصوت خافت :

ــ ما يروى لا يخلو من صحة . ولكن اذا أردت ان أعلن لك ما فى قرارة نفسى ، فاننى أقول لك ان من الأفضل الا يلقى المرء اسئلة من هذا الموضوع ، والا يتحدث عنه، لان ذلك من الاستعدادات الحربية ، والأسرار العسكرية ، الى آخره الى آخره .

ان الخجا يكره جميع هذه التعابير الجديدة ، وخاصة تعبير : « الى آخره » هذا ، لا لأن هذا التعبير يثير اعصابه فحسب ، بل لأنه يحس احساسا واضحا بأن هذا التعبير ينوب فى كلام الأجانب مناب الحقيقة التى يصمتون عنها ، فكأن كل ما قيل قبل ذلك لا قيمة له البتة .

ــ ناشدتك الله لا تستعمل معى تعبير « الى آخره ، الى آخره» هذا الذى يستعملونه هم ، بل قل لى ما الذى يعملونه على الجسر ، واشرحه لى ان استطعت . ثم ان الأمر ليس بسر . أى نوع من الأسرار يمكن أن يكون هذا الأمر الذى لا يجهله حتى أطفال « الكتاب » ؟

بهذا قاطع الخجا صاحبه فى حنق ، واضاف يقول :

ــ ثم أية علاقة للجسر بحربهم ؟

فأجاب برانكوفتش وقد عاد الى هيئته الباسمة ، يقول :

ــ طبعا له علاقة .

ثم أخذ يشرح له ، فى تودد وفى شىء من الملاطفة التى يخاطب بها الأطفال ، ان هذا كله ملحوظ فى القواعد العسكرية ، وأن له جنودا اختصاصيين ، وان لكل امرىء فى الجيش الامبراطورى عملا لا يعرف غيره ، وان على كل فرد فى هذا الجيش ألا يهتم بشئون غيره ، والا يتدخل فى شئون غيره .

فكان الخجا يصغى اليه ، وينعم النظر فيه ، لكنه لا يفهم كثيرا . ثم لم يطق صبرا ، فقال :

ــ طيب طيب .. كل هذا الكلام جميل ، ولكن هل يعرف هؤلاء الناس ان الجسر مبنى خيرى شاده الوزير فى سبيل الله ، وان من الاثم أن ينتزع منه أى حجر ؟

فلم يجب الرقيب الأول بكلمة ، بل باعد ذراعيه ، وهز كتفيه ، وعض على شفتيه ، واغمض عينيه ، فاكتسى وجهه تعبيرا عن المكر

واللباقة والسكون والعمى والصمم لا يقدر عليه الا اناس عملوا مدة طويلة فى الادارات المتعفنة التى تدهور فيها الكتمان حتى استحال الى بلادة فى الحس ، وتدهورت فيها الطاعة حتى استحالت الى جبن . ان ورقة بيضاء لهى أفصح بيانا من هذا التحفظ الأخرس فى هذا الوجه . وما لبث رجل الامبراطور أن فتح عينيه ، وأسبل ذراعيه ، ومحا غضون وجهه ، وعاد الى هيئته السابقة الهادئة الباسمة الواثقة التى تمتزج فيها طيبة أهل فيينا بأدب الأتراك امتزاج الماء بالماء . وبعد أن غير موضوع الحديث ، وأثنى بعبارات منتقاة على صحة الخجا ومظهره الشاب ، انصرف مستأذنا بذلك التودد نفسه الذى كان يظهر عليه عند وصوله . وبقى الخجا حانقا مهتزا ولم تهدأ همومه . وها هو الآن جالس أمام دكانه ، غارق فى أفكاره المهمومة يتأمل جمال اليوم الأول من شهر آذار (مارس) ، وأمامه ، من جانب ، ينتصب الجسر الخالد ، الجسر الذى لا يتغير ، فيرى من خلال قناطره البيضاء سطح نهر درينا أخضر نيرا صاخبا ، فكأن المرء حين ينظر الى هذا المشهد يرى عقدا غريبا من لونين ، يتلألأ فى أشعة الشمس .

الفصل الثامن عشر

ان التوتر الذى كان يطلق عليه فى العالم كله اسم « أزمة الالحاق » ، والذى كان يلقى ظله المنذر بشر مستطير على الجسر وعلى المدينة قرب الجسر ، هذا التوتر قد زالت حدته الآن على حين غفلة فهناك ، فى مكان ما ، استطاعت المراسلات الدبلوماسية والمفاوضات بين العواصم المعنية بالأمر ، أن تجد لهذا التوتر حلا سلميا .

ففى هذه المرة لم تشتعل النار على هذه الحدود التى كان التهابها سهلا فى جميع الأزمان . وها هى ذى القطعات العسكرية التى كانت قد ملأت المدينة وقرى الحدود أفواجا كبيرة ، ها هى ذى تنسحب عند مطالع الربيع فيقل عددها . لكن التبدلات التى أحدثتها هذه الأزمة ظلت قائمة بعد انقضاء الأزمة ، كما يقع ذلك دائما. فالحامية التى استقرت فى المدينة استقرارا دائما ، هى الآن اكبر من الحامية التى كانت مستقرة فيها قبلئذ . والجسر لا يزال ملغوما ، وليس يفكر فى ذلك احد ، الا على خجا متولتش . والأرض التى تقع على السهل المرتفع الأيسر قرب الجسر فوق سور قديم والتى كان يقوم عليها بستان المديرية ، قد احتكرتها الآن السلطات العسكرية. ففى وسط هذا البستان قطعت الأشجار المثمرة ، وبنى فى مكانها منزل جميل ذو طابق واحد جعل ناديا للضباط ، لأن البيت الذى اتخذ قبل ذلك ناديا ، وهو طابق أرضى صغير ، غدا أضيق من أن يتسع للضباط الذين كان عددهم آخذا فى التزايد .

وهكذا كان يقوم على الجانب الأيمن من الجسر فندق لوتيكا ، ويقوم على الجانب الأيسر منه نادى الضباط ، والبناءان بيضاوان كلاهما ، يكاد كل منهما يكون عين الآخر ، وبينهما تقع ساحة السوق ، تحيط بها الدكاكين ، وفوق السوق على مرتفع صغير تقوم الثكنة الكبيرة التى كان الشعب لايزال يطلق عليها اسم

النزل الحجري ، تخليدا لذكرى السراى التى بناها محمد باشا والتى كانت تقوم فى هذا المكان نفسه ، ثم زالت دون أن تخلف اثرا .

والأسعار التى وثبت فى الخريف الماضى ، بسبب وجود ذلك العدد الكبير من الجيش ، ظلت على حالها لم تنخفض ، حتى لقد كانت اميل الى الارتفاع منها الى العودة الى عهدها السابق . وفى تلك السنة فتح مصرفان (بنكان) ، أحدهما صربى ، والثانى مسلم . واصبح الناس يستعملون القروض استعمالهم للأدوية . وأصبح من السهل على كل فرد أن يستدين . ولكن الحاجة الى المال تزداد كلما ازداد المال . ان الذين ينفقون بلا حساب أكثر مما يكسبون كانوا يشعرون وحدهم بأن الحياة لا تزال سهلة جميلة . أما التجار ورجال الأعمال فكانت الهموم تملأ نفوسهم . آجال دفع أثمان البضائع ما تنفك تقصر ، والزبائن المستقيمون المضمونون أصبحوا قلة قليلة . والسلع التى تربو أثمانها على القوة الشرائية لدى سواد الناس ما تنفك تزداد فيضيق نطاق البيع ، لأن الناس يطلبون بضائع رخيصة . وليس يشترى بغير حساب الا الزبائن الذين يتلكأون فى الدفع . ان العمل الرابح المضمون الوحيد انما هو التوريد للجيش أو لمؤسسة من مؤسسات الدولة ، غير أن طلبات التوريد هذه لا يمكن أن تتناول جميع التجار . وضرائب الدولة ورسوم البلدية تثقل وتتكاثر ، والقسوة فى جباية الضرائب تزداد . ان المرء يحس من بعيد أن ثمة تأرجحا ضارا فى بورصات الأسعار . والفوائد التى تنجم عن هذا الوضع تمضى الى أيد خفية لا ترى ، بينما الخسارات تمتد الى ابعد مناطق المملكة وتضرب التجارة الصغيرة وتؤذى صغار البائعين وتسيء الى المستهلكين .

الحالة الروحية العامة فى المدينة ليست أقرب الى الهدوء والسكينة . ان زوال حدة التوتر فجأة لم يجلب هدوءا حقيقيا لا للصربيين ولا للمسلمين بالمدينة . وانما هو خلف لدى الأولين نوعا من خيبة خبيثة ، وخلف لدى الآخرين مشاعر الحذر والخوف مما يكنه لهم المستقبل . وعاد انتظار وقوع أحداث كبرى تملأ النفوس ، بدون سبب ظاهر وبدون داع مباشر . فالشعب يأمل فى شيء ما ويشفق من شيء ما (أو قل ان فريقا من الشعب يأمل وفريقا يشفق) ، ويستقبل كل أمر من الأمور وينظر الى كل امر من الأمور على أساس ذلك . ان قلب كل انسان نهب للقلق ، حتى فى صفوف

العامة والجهلة والسذج ، وخاصة فى صفوف الشباب . ما من أحد راض عن الحياة الرتيبة التى يعيشها منذ سنين . كل واحد يرغب فيما هو أكثر من ذلك ، ويطلب ماهو خير من ذلك أو يشفق مما هو شر . والشيوخ لا يزالون يتحسرون على « نعومة البال » تلك التى كانت تعد فى عهد الاتراك غاية ما يطمع فيه المرء وأكمل صورة من صور الحياة العامة والخاصة ، والتى كانت لا تزال سائدة ابان العقود الأولى من عهد السيطرة النمسوية . الا ان عدد هؤلاء قليل . اما الآخرون فانهم يريدون حياة نشطة ، صاخبة ، مثيرة ، متحركة . يريدون أن يعانوا احساسات قوية ، او ان يعانوا صدى الاحساسات القوية التى يعيشها غيرهم ، أو يريدون على الأقل حياة زاخرة بالصخب وشتى المثيرات التى توهم بقوة الاحساس . وان هذه الرغبة لم تبدل الحالة النفسية فحسب ، بل بدلت كذلك المظهر الخارجى بالمدينة . وتلك الحياة القديمة المطردة التى كان يعيشها الناس على الكابيا ، تلك الحياة التى تملؤها أحاديث هادئة وتأمل ساج وأمازيج بريئة واغان غرامية ، بين الماء والسماء والجبال ، هذه الحياة قد أخذت تتغير هى أيضا .

لقد اشترى صاحب المقهى جهاز جرامافون ، وهو صندوق كبير من خشب ، له بوق كبير من صفيح ، فى صورة زهرة زرقاء ناصعة. ان ابنه يغير الاسطوانات والابر ، وما ينفك يعبىء هذه الآلة الصخابة التى تهز الكابيا وتدوى أصداؤها فى الضفتين . لقد اضطر صاحب المقهى ان يشترى هذه الآلة حتى لا يكون متخلفا عن منافسيه ، لأن أصوات الجرامافون أصبحت لا تسمع فى النوادى وقاعات المطالعة فحسب ، بل أصبحت تسمع كذلك فى أحقر خمارات الريف حيث كان الناس يجلسون قديما تحت شجرة من أشجار الزيزفون ، او فوق العشب ، أو على السطوح المنارة ، وحيث كانوا يتحدوثن بصوت خافت ، وكلام قليل . ان آلات الجرامافون تزعق وتنعب فى كل مكان ، مرددة اناشيد تركية ، أو أغانى وطنية صربية ، أو ألحان أوبريتات نمسوية ، وفقا لما يريده الزبائن الذين تشغل من اجلهم ، لأن الناس لا يذهبون الا الى الأماكن التى فيها فرقعة ، وصخب ، وحركة ، ولا يشترون ما يريدون شراءه الا من مثل تلك الأماكن .

والناس يقبلون على قراءة الجرائد فى شراهة،لكنهم يقرأونها بسرعة عابرين . ولا يبحث أحدهم الا عن الجرائد التى تعرض فى الصفحة

الأولى عناوين مثيرة مطبوعة بأحرف ضخمة . أما المقالات المطبوعة في زوايا من الجريدة بأحرف صغيرة فلا تجد لها قراء . أن كل ما يقع يعرض الآن بألفاظ طنانة براقة . والشباب لا يحسون أنهم عاشوا نهارهم كما ينبغي أن يعاش ، اذا هم عند المساء ، قبل النوم ، لم يدر في آذانهم ولم يسطع أمام أبصارهم ما سمعوه وما رأوه في النهار .

والأغوات والأفندية يجيئون الى الكابيا وقد بدا في وجوههم الجد، وظهر عليهم انهم لا يبالون ولا يكترثون ، ليسمعوا ما تنشره الصحف من أنباء الحرب الايطالية التركية في طرابلس . أنهم يصغون في نهم الى ما يذكر في هذه الصحف عن القائد التركي ، الشاب ، البطل ، أنور بك ، الذي يضرب الطليان ، ويدافع عن أرض السلطان ، كأنه سليل سوكولوفتش أو تشوبريلتش . وهم يقطبون حواجبهم حين يسمعون موسيقى الجرامافون الصاخبة التي تشوش أفكارهم ، ويرتعدون من فرط تأثرهم بمصير تلك المنطقة التركية البعيدة من أفريقيا ، يرتعدون بعمق واخلاص ، دون أن يظهروا ذلك .

وحدث في لحظة من تلك اللحظات ان مر بالجسر بيترو الايطالي ، المعلم بيرو ، عائدا من عمله ، بردائه المبيض من الغبار الملطخ ببقع الأصباغ والزيت . لقد دب الهرم الى المعلم بيرو ، وازداد الآن انحناء ظهره ، وازداد تواضعه وخوفه . وكما شعر بأنه مذنب يوم اغتال لوكيتي الأمبراطورة ، وفقا لمنطق ظل هو نفسه لا يفهمه ، فانه يشعر الآن مرة أخرى بأنه مسئول عن جريمة ما يقترفها في مكان ما على هذه الأرض مواطنوه الطليان الذين لم تبق له علاقة بهم منذ مدة طويلة . وها هو ذا أحد الشبان الأتراك يصبح به ساخرا :

ــ هل تريد طرابلس ؟ طيب . .

قال الشاب التركي ذلك ، وهو يظهر له ذراعه « من الكف الى الكوع » ، ويقوم بحركات أخرى بذيئة .

فاكتفى المعلم بيرو بأن اغطس قبعته حتى وصلت الى عينيه ، وعض غليونه بأسنانه عضا قويا . وأسرع يمضي الى بيته في أعلى الميدان ، متعبا منحنيا الى أمام متأبطا أدواته .

وهناك كانت تنتظره زوجته ستانا التي دب اليها الهرم هي أيضا ، وخارت قواها ، ولكنها لا تزال عريضة الحلق سليطة اللسان . فاشتكى اليها زوجها مر الشكوى من هؤلاء الشباب الذين يقولون له كلاما غير لائق ، ويطالبونه بطرابلس التي كان منذ بضعة أيام لا يعرف

أن لها وجودا على سطح الأرض . وها هى ذى ستانا ــ على عهدها ــ لا تريد أن تفهم ولا أن ترثى لحـاله . وانما هى تؤكد له مرة أخرى انه مخطىء وانه يستحق ما يرشق به من شتائم .

ــ لو كنت رجلا حقا ، وما أنت كذلك ، لضربتهم بريشتك أو بمطرقتك على وجوههم الوسخة ، فما يخطر ببال هذه الحثالة بعدئذ أن تهينك ، وانما تنهض اجلالا لك حين تجتاز الجسر .

فأجابها المعلم بيرو فى سكون وحزن :

ــ ولكن ياستانا ، كيف يستطيع انسان أن يضرب وجه جاره بمطرقته ؟

هكذا انقضت تلك السنوات كلهـا وسط انفعالات صغيرة وكبيرة، وحاجة دائمـة الى احسـاسات مثيرة . وهكذا وصل خريف عام ١٩١٢ ، ثم جاءت سنة ١٩١٣ مع الحروب البلقـانية والانتصارات الصربية . ومن الأمور العجيبة النادرة ، أن ما كان له شأن خطير فى مصير الجسر ومصير المدينة ومصير كل من يعيش فى المدينة ، قد وقع فى صمت دون أن يلاحظ .

كانت أيام شهر أكتوبر تنقضى أرجوانية فى أول النهار وآخره ، ذهبية فى وسطه ، بينمـا المدينة تنتظر حصاد الشعير والخمر الجديد . أن الجلوس على الـكابيا بعد الظهر لا يزال جميلا ممتعا ، حتى لـكأن نسمات الهـواء قد توقفت فوق المدينة . وفى ذلك الحين انما وقع ذلك الأمر .

فقبل أن يستطيع الناس الذين يعرفون القراءة والكتابة أن يدركوا ما تنشره الصحف من أنباء متناقضة ، كانت الحرب بين تركيا وبلاد البلقان الأربعة قد نشبت ، وأخذت تتحرك على طول الطرق القديمة فى أراضى البلقان . وقبل أن يدرك العـالم معنى هذه الحرب ادراكا دقيقا ، وقبل أن يتصور مداها ، كانت قد انتهت بانتصـارات الأسلحة الصربية المسيحية . كل ذلك قد تم بعيدا عن هذا المكان ، دون طلقات رصاص ودوى مدافع على الحدود ، ودون رءوس مقطوعة تعلق على الـكابيا . ان كل شىء فى هـذه الأحداث الكبرى يجرى فى بعيد بسرعة لا تصدق ، كالتجارة والمال سواء بسواء . فهناك ، فى مكان ما بالعالم ، تسحب ورقة يانصيب ، أو تضرم نار معركة ، فيتعين قدر كل منا .

ولـكن لئن ظل مظهر المدينة ساكنا لم يتبدل ، لقد ولدت هذه الأحداث فى النفوس عواصف حقة ، وزوابع من حماسة عنيفة ويأس

عميق . لقد استقبلت هذه الأحداث فى المدينة بمشاعر متعارضة أشد التعارض ، بين صفوف الصربيين والمسلمين ، شأنها فى ذلك شأن كل ما كان يجرى فى العالم ابان هذه السنين الأخيرة . ولعل تلك المشاعر لم تكن متساوية الا فى الشدة والعمق . لقد تجاوزت تلك الأحداث كل ما كان يأمله البعض ، وبررت كل المخاوف التى كان يحسها البعض الآخر . ان الرغبات التى تطير منذ قرون أمام التاريخ ، أصبحت الآن لا تستطيع أن تسايره فى سرعة جريانه ، ولا أن تدركه فى طيرانه العجيب على طريق تحقيق أجرأ الأعمال .

ان كل ما تستطيع المدينة أن تراه وأن تحسه من هذه الحرب المقدرة كان يتم بسرعة السهم وبساطة لا عهد بمثلها من قبل .

ففى اوفاتس حيث الحدود بين النمسا ـ المجر وبين تركيا ينبع النهر الصغير الذى يسمى بذلك الاسم نفسه ، وحيث يقوم جسر خشبى صغير يفصل الثكنة النمسوية عن المخفر التركى ، اجتاز أحد الضباط الأتراك هذه الحدود ، وانتقل الى الجهة النمسوية . وهناك ، بحركة مسرحية ، حطم سيفه على افريز الجسر ، وسلم نفسه لرجال الدرك النمسويين . وفى تلك اللحظة كانت عساكر الصرب تهبط الرابية بملابسها الرمادية، وتحل محل القطاعات النظامية التركية ، ذات العتاد القديم ، على طول الحدود بين البوسنة والسنجق . واختفت النقطة التى كانت تلتقى عندها حدود النمسا وتركيا والصرب . وتراجعت الحدود التركية التى كانت بالأمس على مسافة خمسة عشر كيلو مترا من فيشيجراد ، تراجعت الى بعيد ، الى مكان ما وراء أدرنة .

ان هذه الأحداث الكثيرة الكبيرة التى تمت فى فترة قصيرة من الوقت قد هزت المدينة الى الأعماق .

وكان هذا الانقلاب أمرا حاسما بالنسبة الى الجسر الذى على نهر درينا . لقد سبق أن ذكرنا أن الاتصال بسارايبفو بواسطة الخط الحديدى كان قد أعدم علاقات الجسر بالغرب ، وها هو ذا اتصاله بالشرق يقطع الآن فى مثل لمح البصر . ان هذا الشرق الذى أوجد الجسر ، وكان بالأمس القريب موجودا هنا ، باقيا واقعيا كالسماء والأرض ، ولو انه مهاجم مصدع ، هذا الشرق قد اختفى الآن كما يختفى طيف . وأصبح الجسر لا يربط الا بين شطرى المدينة وبين ما يقرب من عشرين قرية على جهتى نهر درينا .

ان الجسر الحجرى الكبير الذى كان عليه ، فيما تصوره الوزير

سوكولوفتش وفيما حققه من عمل خيرى مبرور ، ان يربط بين شطرى الامبراطورية ، وان يسهل على الناس مرورهم من الغرب الى الشرق ومن الشرق الى الغرب ، قد قطع الآن عن الشرق والغرب كليهما ، وأصبح مهجورا ، كالسفن الغريقة والمعابد المتروكة . لقد ظل خلال ثلاثة قرون يتحمل كل شيء ، ويبقى بعد كل شيء ، وقام بوظيفته على اكمل وجه لم يتبدل ولم يتغير ، ولكن الحاجات الانسانية قد دارت وتغيرت الأمور فى العالم فخانته الآن رسالته .
لقد كان من الممكن ، لما يتمتع به من ضخامة ومتانة وجمال ، أن تظل الجيوش تجتازه وأن تظل القوافل تتعاقب عليه خلال قرون ايضا ، ولكن البناء الخيرى الذى شاده الوزير قد أصبح بين عشية وضحاها ، بسبب ما يطرأ على العلاقات الانسانية من حركات عجيبة غير متوقعة ، أصبح مهجورا خارجا عن تيار الحياة . ان الدور الذى يقوم به الجسر الآن لا يتناسب أبدا مع ماله من مظهر أبدى الشباب ، ومع ماله من أبعاد ضخمة على انسجام . ولكنه لا يزال منتصبا كما كان ، كما رآه الوزير بخياله ، وهو مغمض عينيه ، وكما صنعه مهندسه : قويا ، جميلا ، متينا ، لا يصيبه تبدل .

وكان لابد من وقت ومن جهود حتى يفهم السكان كل ما نذكره هنا ببضعة أسطر ، وكل ما تحقق فعلا خلال بضعة أشهر . حتى فى الحلم لا تنتقل الحدود بهذه السرعة كل هذه المسافة .

ان كل ما كان يغفو فى نفوس الناس ، عتيقا أخرس ساكنا كهذا الجسر ، قد انبعث الآن فجأة ، واخذ يؤثر فى الحياة اليومية ، أخذ يؤثر فى الحالة النفسية العامة وفى مصير كل فرد من الأفراد شخصيا .

الأيام الأولى من صيف عام ١٩١٣ ماطرة رطبة . وعلى الكابيا جلس مسلمو المدينة مكتئبين متجهمين . وهؤلاء عشرة من شيوخهم تحلقوا حول فتى يقرأ لهم الجرائد ، ويشرح التعابير الأجنبية ويترجم الأسماء الغريبة ويبسط لهم بعض المعلومات الجغرافية . انهم جميعا يدخنون فى هدوء ، وينظرون الى الأمام ساكنين ، ولكنهم لا يستطيعون أن يخفوا ما بهم من هم واضطراب كل الاخفاء . انهم يحاولون أن يسيطروا على أنفسهم ، ويميلون على الخريطة الجغرافية التى تشير الى التقسيم الجديد لشبه جزيرة البلقان . انهم ينظرون الى الورقة ، فلا يرون شيئا فى هذه الخطوط المتثنية ، لكنهم يعرفون كل شيء ، ويفهمون كل شيء ، لأن جغرافيتهم تجرى فى دمائهم ،

ولأنهم يحسون بصورة العالم احساسا عضويا .

توجه عجوز منهم الى الشاب الذى يقرأ بالسؤال ، قال :

ـ لمن ستكون أوشتشوب (١) ؟

ـ للصرب ..

ـ أوه ..

ـ ولمن سالانيك (٢) ؟

ـ لليونان ..

ـ أوه .. أوه ..

ـ ولمن أدرنه (٣) ؟

ـ ربما لبلغاريا

ـ أوه أوه أوه ..

لم تكن تلك آهات مدوية حزينة ، كآهات النساء والضعفاء من الناس ، بل كانت تنهدات مخنوقة عميقة تضيع فى هواء الصيف مع دخان التبغ الخارج من الشوارب الكثيفة . ان كثيرا من هؤلاء الشيوخ قد تجاوزوا السبعين من العمر . لقد كانت السيطرة التركية فى أيام شبابهم تمتد من ليكا والكوردون حتى استانبول ومن استانبول حتى الحدود الصحراوية غير المعينة من الجزيرة العربية البعيدة التى لا يمكن اجتيازها . (والسيطرة التركية كانت تعنى فى أذهانهم تلك الجماعة الكبرى التى لا تنقسم ولا يمكن ان تحطم ، الجماعة الكبرى التى يجمعها دين محمد ، ذلك الجزء من الكرة الأرضية الذى يؤذن فيه المؤذنون للصلاة) . انهم يتذكرون هذا تماما ، لكنهم يتذكرون أيضا أن هذه السيطرة التركية قد تراجعت بعد ذلك أثناء حياتهم من الصرب الى البوسنة ، ثم تراجعت من البوسنة الى السنجق . وها هى ذى تتراجع الآن ، على مرأى منهم ، الى مكان ما لا تصل اليه أبصارهم ، كأنما ألم بها جزر عجيب على حين فجأة ، بينما هم يبقون هنا ، كأعشاب مائية فى أرض يابسة ، مخدوعين مهددين متروكين لأنفسهم ولحظهم السيىء . لا شك ان كل شىء من الله . ولا شك أن كل ما يحدث انما يتم بمشيئة الله . ولكن الانسان لا يستطيع أن يفهم هذه الأمور

(١) هو الاسم التركى لبلدة سكوبليا .

(٢) سالانيك .

(٣) أندرينوبل .

بسهولة . ان ما يقع الآن يقطع الأنفاس ويهز الضمائر ، وان المرء ليشعر فى الوقت نفسه بأن الأرض تنسحب من تحت قدميه خلسة كأنها بساط ، وأن الحدود التى كان ينبغى أن تظل ثابتة وطيدة تتحرك الآن وتتغير وتبتعد وتغيب ، كجداول الربيع ذات النزوات .

تلك هى العواطف والأفكار التى تضطرب فى نفوس الشيوخ ، وقد جلسوا على الكابيا وأخذوا ينصتون الى ما هو مكتوب فى الصحف . انهم يصغون صامتين رغم أن الألفاظ التى تستعملها الصحف فى الكلام على الممالك والدول تبدو لهم وقحة مجنونة فى غير محلها ، ورغم أن هذا الأسلوب كله فى الكتابة يتراءى لهم كفرا ومخالفة للقوانين الأزلية وخروجا على منطق الحياة ، ويبدو لهم نازلة مستفحلة لا يمكن أن يذعن لها انسان شريف عاقل . وفوق رءوسهم يتلفف دخان التبغ ، وفى السماء العالية تتهرب غمامات بيضاء متقطعة من سحب صيف ماطر ، فتجرى ظلالها على الأرض سريعة عريضة .

وكان شباب من الصرب يظلون جالسين على الكابيا فى الليل الى ساعات متأخرة : ينشدون بأصوات عالية وبشىء من الوقاحة ، اناشيد تتغنى بالمدفع الصربى ، فما يفرض عليهم أحد غرامة ، ولا يعاقبون . وبينهم يرى فى كثير من الأحيان فتيان من طلاب الجامعات ومن تلاميذ المدارس الثانوية . ان أكثرهم شباب ضامرو الأجسام ، صفر الوجوه ، طويلو الشعور ، يضعون على رءوسهم قبعات سوداء مسطحة عريضة الحواف . انهم يتوافدون فى هذا الخريف كثيرا ، رغم ان السنة الدراسية كانت قد بدأت : يصلون فى قطار سارايفو مع توصيات وشعارات ، ويقضون الليل هنا على الكابيا ، ولكنهم لا يمكثون بالمدينة فى النهار ، لأن شباب فيشيجراد ينقلونهم الى الصرب سالكين طرقا معينة .

وفى أشهر الصيف ، حين يأزف موعد العطلة ، تعج المدينة وتعج الكابيا بالتلاميذ والطلاب الذين ولدوا بالمدينة وعادوا يقضون عطلة الصيف بين ذويهم . ان وصولهم يؤثر فى حياة المدينة كلها تأثيرا واضحا .

ففى نهاية شهر حزيران (يونيه) يصل تلاميذ المدارس الثانوية من سارايفو جماعة ، وفى النصف الأول من شهر تموز (يوليو) يبدأ توافد طلاب الحقوق والطب والآداب الذين يدرسون فى جامعات فيينا وبراغ وجراتس وزغرب . وبوصولهم يتغير حتى

المظهر الخارجي للمدينة . ففى حى السوق وعلى الكابيا ، يأخذ المرء يرى قامات شابة ، متبدلة ، غريبة ، تختلف فى سلوكها وفى لفتها وفى ملابسها عما ألفه أهل المدينة من عادات مقررة وأعراف لا تتغير . انهم يرتدون ملابس ذات ألوان قاتمة ، فصلت على زى حديث ، هو زى « الجلوكنفاسون » الذى كان يعد فى أوروبا الوسطى كلها آخر أنواع الموضة وذروة الذوق الأنيق . وقبعاتهم من قش لين ، على طريقة قبعات بناما ذات الحواف الواطئة ، وقد ازدانت بشريط من ستة ألوان قاتمة . ونعالهم أحذية امريكية عريضة ذات أبواز مرتفعة كثيرا . ومعظمهم يحمل عصا من الخيزران سميكة جدا . وفى ظهور الياقات من السترة وضع شعار السوكول أو شعار جمعية من جمعيات الطلاب .

وانهم يجيئون أيضا بكلمات جديدة وأمازيج جديدة وأغان جديدة ، ورقصات جديدة شهدوها فى « بالات » الشتاء الماضى ، ويجيئون خاصة بكتب جديدة وكراسات جديدة صربية وتشيكية وألمانية .

وقبل ذلك أيضا ، فى الأزمة الأولى من الاحتلال النمسوى ، كان يحدث أن يذهب بعض شباب المدينة الى خارجها للدراسة ، ولكن لم يكن عددهم وافرا هذه الوفرة فى يوم من الأيام ، ولا كانت تسيطر عليهم الآن . وقد تخرج بعضهم ، خلال العقدين الأخيرين ، من دار المعلمين بساراييفو ، كما أن اثنين أو ثلاثة درسوا الحقوق او الآداب فى فيينا ، ولكنهم كانوا قلة قليلة ، وكانوا شبابا متواضعين ينجحون فى امتحاناتهم على استخفاء دون أن يلفتوا اليهم الأبصار ، حتى اذا أنهوا دراستهم غابوا فى الجيش الكثيف الغفير الذى تتألف منه بوروقراطية الدولة . ولكن عدد طلاب المدينة قد ازداد منذ مدة زيادة كبيرة مفاجئة ، وأصبح أبناء الفلاحين وأبناء صغار أصحاب الحرف يستطيعون بعد ذلك بفضل الجمعيات الثقافية أن يتموا دراستهم فى الجامعات . وتبدلت روح الطلاب انفسهم وتبدل طبعهم تبدلا كبيرا .

ليسوا الآن كأولئك الطلاب القدامى ، طلاب السنين الأولى التى اعقبت الاحتلال ، شبابا خجولين سذجا غارقين فى دراستهم بأضيق معانى هذه الكلمة ، ولا هم أيضا كأولئك الشباب العابثين أو أولئك الفتية المستهترين الذين عرفتهم المدينة قديما ، الذين كانوا ، بانتظار أن يصبحوا أرباب أعمال ، ينفقون على الكابيا قواهم الشابة الطافحة ، والذين كان ينصح أهلهم بأن يزوجوهم حتى يكفوا عن

الغناء . وانما هم شباب من طراز جديد يدرسون فى مدن شتى ودول مختلفة ويتأثرون بمؤثرات متنوعة . ان هؤلاء الطلاب يعودون من المدن الكبرى والجامعات والمدارس الثانوية التى يدرسون فيها وقد فاضت نفوسهم بجراة مزهوة ، والهبت حماستهم الافكار المتصلة بحق الشعوب فى الحرية وبحقوق الفرد فى السعادة والكرامة . انهم فى كل اجازة من اجازات الصيف يحملون معهم الى المدينة آراء حرة فى الشئون الاجتماعية والدينية ، كما يحملون اليها حماسة قوية لبعث القومية التى أصبحت فى هذه الأيام الأخيرة، وخاصة بعد الانتصارات الصربية فى حروب البلقان ، عقيدة عامة ، وأصبحت لدى عدد من الشبان اندفاعا عنيفا الى العمل والى التضحية .

ان الكابيا هى المكان الرئيسى الذى يعقدون فيه اجتماعاتهم ، انهم يتجمعون على الكابيا بعد العشاء . ففى الظلام ، تحت النجوم المتلألئة أو ضوء القمر ، فى سكينة الليل ، فوق النهر المصطخب تدوى عندئذ اغنيات وأمازيح ، وأحاديث متأججة ومناقشات لا تنتهى ، مناقشات جديدة ، جريئة ، بريئة ، صادقة ، دفاقة .

ومع الطلاب يجلس رفاق طفولتهم الذين تابعوا معهم المدرسة الابتدائية ، ثم بقوا فى المدينة يتعلمون حرفة من الحرف ، أو يعملون فى بعض البيوت التجارية ، أو يشغلون وظيفة سكرتير متواضع فى البلدية ، أو مستخدم فى مشروع من المشاريع . ان هؤلاء فريقان . فريق راض عن حظه وعن حياته فى المدينة التى سيبقى فيها الى الأبد ، وهؤلاء ينظرون الى رفاقهم المتعلمين نظرة استطلاع وحب ويحترمونهم دون أن يقرنوا أنفسهم بهم ، ودون أن يحسدوهم ، بل هم يشاركون فى تطورهم وفى رسالتهم . وفريق آخر لم يرض عن الحياة التى فرضت عليه الظروف أن يعيشها بالمدينة ، فهو يرغب فى شىء آخر بعده أعلى منزلة وأفضل قيمة ؛ شىء آخر يصبح فى كل يوم جديد أبعد وأعز منالا .

وهؤلاء ، رغم أنهم يظلون أصدقاء لرفاقهم الطلاب ، ينفصلون عنهم اما بسخريتهم الفظة واما بصمتهم المعادى . انهم لا يستطيعون أن يشاركوا فى أحاديثهم مشاركة الند للند ، وشعورهم بالتقصير ما ينفك يعذبهم ، فاذا شاركوا فى الحديث رأيتهم يشيرون مبالغين غير صادقين الى أنهم أناس متأخرون جهلة بالقياس الى رفاقهم الذين أوتوا من الحظ ما لم يؤتوا ، أو رأيتهم يعتزون بجهلهم

ويهزءون بكل شيء فى مرارة ، والحسد فى كلتا الحالتين يتدفق منهم قويا عارما يكاد يرى ويلمس . غير أن الشباب يسهل عليه أن يحتمل وجود أسوأ الفرائز ، وأن يعيش معها وأن يتحرك بينها تحركا حرا طليقا لا يكترث ولا يبالى .

ما أكثر ما شهدت المدينة قبل الآن من ليال ترصعها النجوم أو ينيرها ضوء القمر ، ولكن المدينة لم تشهد قبل الآن ، ولا يعلم الا الله هل ستشهد بعد الآن ، شبابا كهؤلاء الشباب يسهرون على الكابيا مع أحاديث كهذه الأحاديث ، وأفكار كهذه الأفكار ، وعواطف كهذه العواطف . انهم جيل من الملائكة المتمردين الثائرين فى هذه اللحظة القصيرة التى لا يزالون يملكون فيها كل ما للملائكة من قوة ومن حقوق وكل ما للثائرين العصاة من كبر عنيف . ان هؤلاء الشباب من أبناء الفلاحين والتجار واصحاب الحرف الذين نشأوا فى مدينة صغيرة ضائعة من البوسنة قد وهبت لهم الأقدار ، دون أن يبذلوا جهدا خاصا ، منفذا الى العالم ووهما كبيرا عن الحرية . فكانوا يمضون الى العالم حاملين صفاتهم الريفية التى فطروا عليها ، ويختارون بأنفسهم موضوع دراساتهم على حسب استعداداتهم أو على حسب ميول اللحظة الحاضرة أو نزوات المصادفة العابرة ، كما يختارون بأنفسهم نوع تسلياتهم ودائرة رفاقهم وأصدقائهم . ولئن كان معظمهم لا يستطيعون أن يدركوا ما أتيح لهم أن يروه ولا أن ينتفعوا به كثيراً ، فما من واحد منهم الا كان يحس انه يستطيع أن يحصل ما يشاء ، وأن كل ما يحصله انما هو ملك له . كانت الحياة (وكلمة الحياة هذه تتردد كثيرا فى أحاديثهم، كما تتردد فى الأدب والسياسة فى ذلك العصر ، وتكتب بحرف كبير من قبيل الاحترام) كانت الحياة امامهم اشبه بموضوع لفرائزهم الطليقة واشواقهم العقلية ومغامراتهم العاطفية التى لا تعرف حدودا . كانت جميع الطرق مفتوحة أمامهم الى غير نهاية . ولئن كانوا لا يضعون أقدامهم فى أكثر هذه الطرق ، فان نشوة الحياة كانت تقوم عندهم على أنهم يستطيعون (نظريا على الأقل) أن يختاروا منها الطريق التى يريدون ، وأن ينتقلوا من طريق الى طريق على ما يحبون . ان كل ما استطاع رجال آخرون أو جناس أخرى ، فى بلاد أخرى وأزمنة أخرى ، أن يخلفوه وأن يحصلوه مع تعاقب الأجيال بجهود قرون وقرون وبأنواع من التضحية بالحياة ، ومن التضحية بما هو أعظم واغلى من الحياة أيضا ، أن

كل ذلك يبسط الآن أمامهم ميراثا عارضا ، وهبة وافرة من هبات القـدر . ان هـذا الأمر يبدو خياليا لا يصدق ، لـكنه واقعي مع ذلك : لقـد كانوا يستطيعون أن يصنعوا بشبابهم ما يريدون أن يصنعوه به . في عالم كانت فيه قواعد الأخلاق الاجتماعية والشخصية حتى ما اتصل منها بالجريمة ، تعـاني في تلك السنين بالذات أزمة كبيرة ، فـكل فئة من الناس وكل فرد من الأفراد يؤولهـا ويقبلها او يرفضها كما يشاء . كانوا يستطيعون أن يفكروا كما يريدون ، وأن يفصلوا في جميع الأمور على ما يحبون فلا حدود ولا قيود ؛ وكانوا يجرأون أن يقولوا ما يريدون ، وكان الـكلام عند أكثرهم بمثابة أفعال ، فهو يرضي ما يتأجج في النفوس من حاجة قديمة الى البطولة والمجـد والى العنف والتهديد ، ولـكنه لا يؤدى الى التزام بعمل ، ولا يحمل قائله تبعة ما قال . وكان أكثرهم موهبة يحتقرون ما يجب عليهم أن يتعلموه ويهونون من شأن ما يقدرون أن يعملوه ، لـكنهم يتبـاهون بمـا لا يعرفون ويتحمسون لمـا يتجاوز حـدود طاقتهم .

ان من الصعب على المرء أن يتخيل صورة من صور الدخول الى الحيـاة أخطر من هذه الصورة ، ولا أن يتخيل طريقا الى القيام بأعمال فذة أو الى الانحلال انحلالا كاملا أضمن من هـذا الطريق . غير أن المتازين الأقـوياء منهم كانوا يندفعون الى العمل حقا في حماسة كحماسة المتصوفين ويحترقون في العمل احتراق الشموع : فمـا يلبث معـاصروهم أن يمجدوهم تمجيد الشهداء والقـديسين (ما من جيل الا له قديسوه) وأن يرفعوهم الى مصاف الأبطال الذين يعز الارتقاء الى مستواهم .

ان لـكل جيل من أجيال البشر أوهامه عن الحضارة ، فبعض الناس يظنون أنهم يساهمون في وثبة من وثبات الحضارة ، وبعضهم يظنون أنهم يشهدون أفولها . وواقع الأمر أن الحضارة تشتعل أو تختفي تحت الرماد أو تنطفيء ، تبعـا للمـكان الذى ننظـر منه اليها . ان الجيل الذى كان في هذه اللحظة يثير على الـكابيا تحت النجوم ، وفوق المـاء ، أسئلة فلسفية واجتماعية وسياسية ، كان لا يختلف عن غيره من الأجيـال الا في أن أوهامه أكثر ، أما في كل ما عدا ذلك فهو يشبه سائر الأجيال . انه يشعر هو أيضا بأنه يشعل النيران الأولى من حضارة جديدة ، وأنه يطفيء آخر ألسنة اللهب من حضارة أخرى تذوى . والشيء الخاص الذى يمكن أن نقوله عنه

هو ما يلى : منــذ مدة طويلة لم يوجد جيل حلم بالحيـــاة واللذة والحرية بجرأة كجرأة هذا الجيل ثم كان حظه من الحياة أسوأ من حظ هــذا الجيل ، أو تألم أكثر مما تألم هــذا الجيل ، أو عرف عبودية أثقل من العبودية التى عرفها هذا الجيل .

ولــكن ذلك كله كان لا يزال خلال تلك الأيام من صيف ١٩١٣ ، غير واضح المعالم ، رغم ما فيه من اندفاع . كان كل شيء يبدو لعبا جديدا مثيرا على هذا الجسر القديم الذى يلوح تحت ضوء القمر فى ليالى حزيران (يونيه) أبيض ناصع الخطوط شابا لم يتغير ، جميلا كل الجمال متينا كل المتانة .. أمتن من كل ما كان يمكن أن يجيء به الزمان ، وأقوى من كل ما كان يمــكن أن يفــكر فيه الناس وأن يعملوه .

الفصل التاسع عشر

كما تشبه ليلة من الليالى الحارة ابان الاعتدال الصيفى ليلة آخرى من تلك الليالى الحارة ، كذلك كانت احاديث هؤلاء التلاميذ وهؤلاء الطلاب لا تتبدل ولا تتغير ، او يشبه بعضها بعضا فى أقل تقدير .

فما ان يلتهموا عشاءهم بسرعة وشهية (لأنهم قضوا نهارهم فى سباحة وتعرض للشمس) حتى يصلوا الى الكابيا واحدا بعد آخر. هذا يانسكو ستيكوفتش يصل الى الكابيا أول الواصلين . انه ابن خياط من حى الميدان يدرس العلوم الطبيعية فى جراتس منذ أربعة فصول دراسية : شاب نحيل ، اذا نظرت الى وجهه من جانب رايته بارزا ، وهو أسود الشعر أملسه ، محب للظهور ، سريع التأذى ، غير راض عن نفسه ، وغير راض عن كل ما حوله . انه يقرأ كثيرا ، ويكتب مقالات ، بتوقيع مستعار أصبح معروفا فى صحف الشبيبة وفى النشرات الثورية التى تصدر فى براج وزغرب. ولكنه ينظم الشعر أيضا وينشر قصائده باسم مستعار آخر. وقد هيأ من قصائده مجموعة ستنشرها له « دار الفجر » (وهى دار تنشر مطبوعات قومية) . وهو عدا ذلك خطيب مفوه ، ومحدث متقد الحماسة فى الاجتماعات التى يعقدها الطلاب . وهذا فيليمير ستيفانوفتش : شاب سليم الجسم قوى البنية ، لا يعرف له أصل معين لأنه ولد متبنى . انه ساخر ، واقعى ، مقتصد ، دءوب . انه ينهى دراسته للطب فى براغ . وهذا ياكوف كيراك : ابن ساع طيب القلب معروف محبوب فى فيشيجراد . ان ياكوف كيراك يدرس القانون ، وهو فتى أسمر ، نحيل ، ثاقب النظرة ، سريع الكلام ، اشتراكى ، يملك روح الجدل ويخجل من طيبته ويخفى جميع عواطفه . وهذا رانكو ميخائيلوفتش : شاب صموت محبب يدرس الحقوق فى زغرب ، ويفكر منذ الآن فى أن يصبح

موظفا . انه لا يشارك الا مشاركة ضعيفة رخوة فيما يدور بين الأصدقاء من مناقشات عن الحب والسياسة ، وما يتداولونه من آراء فى الحياة والنظام الاجتماعى . انه من ناحية أمه ، أحد احفاد كبير القساوسة ميخائيلو الذى علق على خازوق وعرض على هذه الكابيا نفسها مع سيجارة فى فمه ، منذ زمان .

وهناك ايضا عدد من تلاميذ المدارس الثانوية الذين يدرسون فى سارايبفو . انهم يصغون فى شراهة الى رفاقهم الكبار ، والى أقاصيصهم عن الحياة فى المدن الكبرى ، فاذا هم يتصورون بالخيال الذى يلهبه غرور الشبان وتلهبه رغباتهم الخفية ، يتصورون كل شىء اكبر ايضا واجمل ايضا من كل ما هو واقع ومن كل ما هو ممكن . وهناك نيقولا جلاسنتشانين ، وهو شاب شاحب الوجه متصلب اضطر بسبب فقره وبسبب صحته المعتلة وضعف نجاحه، أن يترك المدرسة الثانوية بعد السنة الرابعة ، وأن يرجع الى فيشيجراد وأن يعين كاتبا فى مؤسسة المانية لتصدير الأخشاب . انه سليل أسرة من أوكولشته أصابها الفقر بعد غنى. لقد مات جده ميلان جلاسنتشانين عقب الاحتلال فى ملجأ للمجانين بسارايبفو ، بعد أن خسر فى شبابه باللعب الجزء الأكبر من ثروته . وفى تلك السنة نفسها مات ابوه بطرس جلاسنتشانين ، وهو رجل ممراض، ضعيف الارادة ، عديم القوة ، قليل الحظوة باحترام الناس . ان نيقولا يقضى الآن نهاره كله على ضفة النهر الوعرة قرب العمال الذين يدحرجون جذوع السنديان الثقيلة ويربطونها بعضها ببعض . انه يحصى أحجام الأخشاب التى سبق قياسها ، ثم يحسبها بعد ذلك فى المكتب ويسجلها فى قوائم . انه يحس بهذا العمل الرتيب الذى يقوم به بين أناس بسطاء ، هذا العمل الذى لا يذكى الحماسة فى نفسه ولا يطل به على أمل فى المستقبل ، انه يحس به على أنه عذاب وذل ، كما ان ضياع أمله فى تغيير وضعه الاجتماعى او تبديله قد جعل من هذا الشاب الحساس انسانا هرما قبل الأوان ، كئيبا صموتا . انه يقرأ أثناء ساعات الفراغ : الا ان هذا الغذاء الروحى لايواسيه ولا ينهض به ، لأن لكل شىء فى نفسه مذاقا مرا . ان حظه السيىء ، ووحدته ، وآلامه ، ان كل ذلك قد فتح عينيه وأرهف نفسه فى كثير من النواحى ، غير ان اجمل الأفكار واثمن المعلومات لا تستطيع الا أن تزيده يأسا ومرارة ، لأنها تقوى

احساسه باخفاقه وتقوى شعوره بأن حياته خالية من الأمل فى هذه المدينة الصغيرة .

وهناك أخيرا فلادومارتش ، القفال ، وهو شاب مرح شهم ، يحبه رفاقه طلاب المدارس العليا ويدعونه اليهم ، سواء لما يمتاز به من صوت جميل قوى — باريتون — ولما يتصف به من بساطة محببة وطيبة وود . ان هذا الفتى القوى الذى يضع على راسه طاقية قفال ، هو واحد من أولئك الشبان المتواضعين المكتفين بأنفسهم ، الذين لايقيسون انفسهم بأحد ، ولا يقارنون انفسهم بأحد ، ويقبلون ما تهبه لهم الحياة راضين شاكرين ، ويهبون فى بساطة كل ما يملكونه وكل ما يستطيعونه .

وهناك ايضا معلمتان هما : زوركا ، وزاجوركا ، وكلتاهما من مواليد فيشيجراد . ان جميع هؤلاء الشباب يختصمون على الحظوة برضاهما ، ويمثلون أمامهما وحولهما دور الحب الساذج المعقد الساطع المعذب . انهم يندفعون أمامهما فى مناقشات حامية ، اندفاع الفرسان الى القتال بالسيوف امام سيدات القرون الخوالى . ثم يجلسون بعد ذلك على الكابيا من أجلهما ، يدخنون فى الظلام أو الوحدة ، او يغنون فى صحبة أحد ظل يشرب الى تلك اللحظة فى مكان ما . وبسببهما تقوم بين الرفاق انواع خفية من الكره وضروب من الحسد يحاولون كتمانها فما يظفرون بذلك ، كما تقوم أيضا منازعات صريحة . ان الفتاتين تغادران الكابيا فى الساعة العاشرة . ويبقى الشباب بعد ذلك على الكابيا مدة طويلة ، غير أن ذهاب الفتاتين يضعف قوة المرح ، ويضعف حدة المناقشات البليغة .

ان ستيكوفتش الذى يلعب الدور الرئيسى فى الحديث عادة ، صامت فى هذا المساء يدخن . انه مضطرب . انه فى قرارة نفسه منزعج ، لكنه يحاول أن يخفى انزعاجه ، كما يحاول أن يخفى جميع عواطفه الحقيقية دائما دون أن يظفر باخفائها اخفاء تاما . لقد التقى فى اصيل هذا اليوم ، لأول مرة ، بالمعلمة زوركا ، الفتاة المغرية ، الممتلئة ، الشاحبة الوجه ، الحادة النظرات ، ففعلا بعد الحاح شديد منه ، أمرا هو أصعب ما يمكن أن يفعله شاب وفتاة فى مدينة صغيرة : أن يلتقيا فى مكان مختف لايراهما أحد ، ولا يعلم بلقائهما أحد . التقيا فى مدرستها الخالية الآن خلوا تاما أثناء عطلة الصيف . دخل هو حديقة المدرسة من أحد الشوارع ، ودخلت هى من الباب الرئيسى من شارع آخر . ووجدا نفسيهما فى حجرة

شبه مظلمة ، قد امتلأت بالغبار وتراكمت فيها المقاعد بعضها فوق بعض حتى وصلت الى السقف. هكذا شهوة الحب : كثيرا ما تضطر صاحبها الى البحث عن أمكنة مختفية بشعة .. لم يستطيعا أن يجلسا ولا ان يستلقيا . وكانا كلاهما مهتاجين مضطربين ، قد زخرا بالشهوة الجامحة . فما هي الا لحظة حتى تعانقا وتشابكا فوق واحد من تلك المقاعد التي تعرفها الفتاة حق المعرفة ، لايريان شيئا مما حولهما ولا يلاحظان شيئا . فلما انتهت نشوته قبلها ، أخذ يصلح ملابسه واستأذن بالانصراف في فظاظة دون مداراة ولا تدرج . فأخذت الفتاة تبكي . لقد خاب ظنها . وما ان فرغ من تهدئتها قليلا كيفما اتفق، حتىخرج نحو الباب الثانوي كالهارب.

فلما وصل الى بيته رأى الساعي يحمل اليه مجلة من مجلات الشباب فيها مقالته ، « البلقان ، والصرب والبوسنة والهرسك». فقرأ المقالة قراءة جديدة ، فصرفته قراءتها عن المغامرة التي قام بها منذ لحظة ، لكنه وجد في المقالة ما يحمله على مزيد من الانزعاج . ان فيها أخطاء مطبعية ، كما أن فيها عبارات تبدو له الآن مضحكة . وأحس ، بعد فوات الأوان ، ان كثيرا من الأفكار كان يمكن أن تكتب كتابة أجمل وأوضح وأوجز .

ها هم أولاء الشباب جالسون على الكابيا ، في هذا المساء ، يناقشون مقالته طوال السهرة أمام تلك الفتاة زوركا نفسها . ان خصمه الرئيسي هو كيراك الذرب اللسان القوي العارضة الذي يرى جميع الأمور ، وينقدها من وجهة النظر الاشتراكية السنية . أما الآخرون فلا يشاركون في الجدال الا من حين الى حين. وأما المعلمتان فانهما صامتتان تعدان للمنتصر في الحجاج تاجا لايرى . ان ستيكوفتش يدافع عن نفسه دفاعا ضعيفا ، أولا لأنه هو نفسه يدرك الآن فجأة كثيرا من التهافت والخروج عن المنطق في مقالته ، ولو انه لا يمكن أن يعترف بشيء من هذا أمام الناس في أية حال ، وثانيا لأنه منزعج من ذكرى هذا الأصيل الذي قضاه في قاعة الدرس الخانقة المليئة بالغبار ، منزعج من ذكرى تلك المشاهد التي تبدو له الآن كريهة دميمة ، مع انها ظلت خلال مدة طويلة مثوى رغباته الحارة ، وموضوع الحاحه الشديد على الفتاة (انها الآن جالسة هناك ، في ظلام هذه الليلة من ليالي الصيف ، تنظر اليه بعينيها المتقدتين). ان الشاب يشعر الآن بأنه مخطىء آثم ، ويتمنى

مو انه لم يذهب فى هذا اليوم الى تلك المدرسة . ويتمنى لو أن الفتاة ليست هنا الآن .

وانه ليرى كيراك ، وهو فيما هو فيه من حالة نفسية خاصة ، اشبه بدبور يصعب على المرء ان يدفعه عن نفسه . وانه ليحس أن عليه ان يدافع لا عن مقالته فحسب ، بل كذلك عما وقع فى أصيل هذا اليوم بالمدرسة ، وهو يتمنى لو كان الآن وحيدا ، فى مكان بعيد عن هذا المكان ، يفكر تفكيرا هادئا فى شىء ليس هو المقالة وليس هو الفتاة . غير أن حب الذات يحمله على الدفاع عن نفسه .

لقد استشهد ستيكوفتش بآراء تسفيئتس وستروسماير (١) ، واستشهد كيراك بكاوتسكى وبيبل .

صاح كيراك محللا مقالة ستيكوفتش :

ـ أنت تضع العربة أمام الأبقار . ما دام البلقانى الفلاح غارقا فى البؤس وفى جميع انواع الشقاء ، فانه يستحيل قيام أى تشكيل سياسى باق متين فى أى مكان من الأمكنة ، وفى أى ظرف من الظروف . فلا بد أولا من تحرير الطبقات المستغلة ، لابد أولا من تحرير الفلاح والعامل ، أى أكثرية الشعب ، حتى يمكن خلق الشروط الواقعية لقيام دول مستقلة . هذه هى الخطوات الطبيعية ، هذا هو الطريق الذى يجب اتباعه ، لا عكسه . لذلك يجب أن يقوم التحرير القومى وأن تقوم الوحدة القومية على أساس التحرير الاجتماعى والتجديد الاجتماعى . والا جاء الفلاح والعامل والبورجوازى الصغير ، فحملوا الى التشكيلات السياسية الجديدة فقرهم المدقع وطبيعتهم المستعبدة ، كعدوى قاتلة ، بينما يجىء المستغلون الذين هم قلة قليلة فيفرضون على هذه التشكيلات السياسية ما تتصف به عقليتهم من طفيلية ورجعية ، ويفرضون عليها كل ما فى نفوسهم من غرائز منافية لصالح المجتمع . ويترتب على هذا الا يمكن قيام دولة مستقرة ولا دولة سليمة .

فأجاب ستيكوفتش :

ـ كل هذا ياعزيزى حكمة أجنبية مستعارة من بطون الكتب . . حكمة لا تلبث أن تختفى أمام الاندفاعة الحية ، اندفاعة القوى القومية المستيقظة ، لدى الصربيين أولا ، ثم لدى الكرواتيين

---

(١) يوفان تسفيئتش جغرافى صربى كبير وعالم من علماء الاقوام . وهو المدافع المتحمس عن الفكرة القومية البوغسلافية منذ ما قبل عام ١٩١٤ ـ أما الكرواتى ستروسماير ، أسقف دياكوفو ، فهو أيضا من الانصار المتحمسين لاتحاد السلافيين الجنوبيين وللتفاهم بين السلافيين عامة . (المترجم) .

والسلوفيين ، الذين يهدفون جميعـــا الى غاية واحـدة . ان الأحداث لا تجرى وفقا لتنبؤات أصحاب النظريات الألمان ، ولكنها فى مقابل ذلك تسير على اتفاق تام مع الاتجاه العميق لتاريخنا ومع رسالة أمتنا . ان المســائل الاجتماعية ، منـذ أطلق قره جورج نداءه : « ليقتل كل واحد رئيسه التركى » ، تحل فى بلاد البلقان من تلقاء نفسها بطريق الحروب القوميـة التحررية . وكل الأمور تجرى على نحو منطقى جدا . من صغيرها الى كبيرها ، ومن شئون المنطقة والقبيلة الى شئون الأمة وقيام الدولة. انظر الى انتصاراتنا فى كومانوفو ، وعلى نهر بريجالنتسا (١) ، الم تكن فى الوقت نفسه اكبر الانتصـارات التى حققها الفـكر الثورى وحققتهـا العـدالة الاجتماعية ؟

ـ سنرى .

ـ من لايرى منذ الآن ، فلا يمكن ان يرى فى يوم من الأيام . ونحن نعتقد ..

ـ أنتم تعتقدون.. ولـكننا نحن لا نعتقد ، وانما نريد أن نقتنع عن طريق البراهين والوقائع .

ـ أليس أفول نجم الأتراك ، وتضعضع النمسا المجر ، كخطوة نحو زوالهـا ، أليس هـذان الأمران فى الواقع انتصارات تحققهـا شعوب ديمقراطية صغيرة وطبقات مستعبدة فى تطلعها إلى احتـلال مكانتها تحت الشمس .

ـ لو كانت المطامح القومية تحقق العدالة الاجتماعية ايضا ، لما راينا فى دول اوروبا الغربية التى حقق أكثرها جميـع أهـدافه الوطنية ، وأصبح من هذه الناحية راضيا مكتفيا ، لما رأينا فى هذه الدول مشكلات أجتماعية كبرى ولما رأينا فيها ما نراه من حركات ومن ضروب الصراع .

قال ستيكوفتش فى شىء من الملل :

ـ اقول لك مرة أخرى ان « التحرر الاجتماعى » لا يمكن أن يكون موضوع بحث ، قبل خلق دول مستقلة على أساس الوحدة القومية ، وقبل تحقيق المفـــاهيم الحديثة فى الحرية الفردية والاجتماعية . فكما قال أحد الفرنسيين : « السياسة أولا » ..

ـ بل معدتى أولا ..

---

(١) كومانوفو : انتصار حربى على الاتراك عام ١٩١٢ ، وبريجالنتسا نهـر هزم الصربيون البلغار على طول شواطئه عام ١٩١٣ (المترجم) .

بهذا هتف كيراك مقاطعا ، فأخـذ الآخرون يصيحون ، وانقلبت مناقشة الطلاب البريئة الى مشاجرة بين شـبان ، يتحدث فيهـا الجميع معا ويقاطع فيها بعضهم بعضا ، مشاجرة ما ان القيت بعض النكت حتى تبلددت وغابت فى غمرة من الضحك والصياح .

فكان ذلك بالنسبة الى ستيكوفتش فرصة مواتية ليقطع الجدال وبصمت ، دون أن يبدو ذلك منه انهزاما او تراجعا .

وفى نحو السـاعة العـاشرة عادت زوركا وزاجوركا الى بيتهما بحراسة فيليمير ورانكو . ثم اخذ الآخرون ينفرقون ايضا ، حتى لم يبق الا ستيكوفتش ونيقولا جلاسنتشانين .

ان هذين الشابين فى سن واحـدة ، وقد كانا رفيقين فى المدرسة الثانوية ، وسكنا بساراييفو فى بيت واحـد . وكل منهما يعرف الآخر معرفة عميقة ، لذلك لا يمكن أن يقدر كل منهما الآخر حق قدره ، ولا أن يحبه حبا صادقا ، وقد عمقت الهوة بينهما مع تقدم السنين ، وازدادت اتساعا وازعاجا . وهما يلتقيان هنا فى المدينة الصغيرة كل صيف أثناء العطلة ، فيقيس كل منهما نفسه بصاحبه ويتعامل كل منهما مع صاحبه معاملة رفاق أعداء لا ينفصل بعضهم عن بعض . ومما زاد الطين بلة أن دخلت بينهما الآن تلك المعلمة الجميلة القلقة زوركا . ذلك أن زوركا كانت خلال أشهر طويلة من الشتاء الماضى على صلة بجلاسنتشانين الذىكان لايخفى ولايستطيع أن يخفى شدة تولهه بها . وقد اندفع فى حبهـا ذلك الاندفاع العنيف الذى لا يقدر عليه الا امثاله من الشـبـاب الحانقين الساخطين . فلما جاءت أشهر الصيف وتوافد الطلاب على المدينة لم يخف عن جلاسنتشانين الحساس ان زوركا تنصرف بانتباههـا الى ستيكوفتش . لذلك فان حالة التوتر التىكانت قائمة بينالشابين منذ مدة طويلة ، رغم اختفائها عن أعين الناس ، قد تفاقمت فى هذه الأوقات الأخيرة . ومنذ أول العطلة ، لم يخل الصاحبان أحـدهما الى الآخر مرة واحدة ، كما يخلوان الآن .

كانت أول فكرة راودتهما ، وقد جمعتهما المصادفة عرضا ، هى أن يفترقا بأقصى سرعة ، دون أن يشرعا فى أى حديث ، لأن أى حديث بينهما لابد أن يكون مزعجا . غير ان اعتبارا من الاعتبارات السخيفة الخاصة بالشبيبة لم تسمح لهما بتحقيق رغبتهما فى الافتراق . وجاء ظرف من الظروف فأنقذهما من الارتباك ، أو على الأقل خفف عنهما وطأة الصمت الشـاق الذى كان يرهقهما . ففى

الظلام سمعا صوت شخصين كانا يسيران ببطء . ثم وقفا قرب الكابيا وراء زاوية الافريز . فلا ستيكوفتش وجلاسنتشانين يستطيعان أن يرياهما من مجلسهما على الكابيا . ولا هما يستطيعان أن يريا ستيكوفيتش وجلاسنتشانين . غير أن الرفيقين يسمعان كل كلمة مما يقوله المتحادثان ، وقد عرفاهما من صوتيهما . انهما اثنان من رفاقهما الذين يصغرونهما سنا : توماس جالوس ، وفهيم بختيارفتش . وقد اعتاد هذان الشابان أن يظلا بعيدين بعض البعد عن الجماعة التى تتألف أكثريتها من طلاب وتلاميذ ، والتى تجتمع كل ليلة على الكابيا حول ستيكوفتش وكيراك ، ذلك لأن جالوس شاعر وخطيب قومى ، فهو منافس لصاحبنا ستيكوفتش ، لا يحبه ولا يقدره ، كما أن بختيارفتش شاب صموت الى أبعد حدود الصمت ، مزهو متعجرف متوحش . كما يليق بحفيد بك من البكوات ان يكون .

توماس جالوس شاب فارع القامة متورد الخدين أزرق العينين ، كان أبوه ، البان جالوس (البان فون جالوس) ، وهو آخر الأحياء من ابناء أسرة عريقة من بورجنلاند ، قد وفد الى المدينة موظفا عقب الاحتلال ، فظل فيها « محافظا للمياه والحراج » مدة عشرين عاما . انه الآن فى المعاش . وقد تزوج منذ وفد الى المدينة بنت رجل من عيون أثرياء فيشيجراد (حاجى توماس ستانكوفتس) وهى فتاة قوية الجسم ، متقدمة فى السن قليلا ، سمراء ، قوية الارادة . فأنجب منها ثلاثة اولاد ، ابنتين وابنا ، عمدوا جميعا فى الكنيسة الصربية ، ونشأوا نشأة أطفال من فيشيجراد ، وكانوا أحفادا لحاجى توماس حقا ، كما أن العجوز جالوس نفسه ، وهو رجل طويل جميل الوجه (فى شبابه) ذو ابتسامة حلوة وشعر غزير ، قد أصبح منذ مدة طويلة مواطنا حقيقيا من مواطنى فيشيجراد . انه يسمى الآن فى المدينة باسم « السيد البو » ، وليس يخطر ببال الأجيال الشابة أن من الممكن أن يكون أجنبيا وفد الى المدينة مع من وفدوا اليها من الغرباء . وهو مولع بشيئين لا يزعجان احدا : الغليون والصيد . وله فى المديرية كلها أصدقاء قدامى ، سواء من الصربيين ومن الفلاحين المسلمين الذين يجمعه بهم حب الصيد . وقد تطبع بكثير من طباعهم كأنه نشأ وترعرع بينهم ، من ذلك خاصة عادة الصمت الهادىء والحديث الهادىء ، مما يتصف به هواة التدخين وعشاق الصيد

والغابات والحياة فى الهواء الطلق .

لقد نال الفتى جالوس شهادة البكالوريا من ثانوية سارايبفو هذا العام ، وعليه أن يذهب فى الخريف الى فيينا لمتابعة دراسته ، والآراء حول هذا الأمر بين أفراد أسرته مختلفة متناقضة . فالأب يريد لابنه أن يدرس العلوم التطبيقية أو علم زراعة الحراج ، والولد يريد أن يدخل كلية الآداب ، لأن توماس جالوس هذا لايشبه أباه الا بالمظهر الخارجى ، أما ميوله الطبيعية فهى متعارضة مع ميول أبيه كل التعارض. أنه واحد من أولئك التلاميذ الناجحين المتواضعين الذين يضرب بهم المثل فى كل شىء ، يجتازون امتحاناتهم فى كثير من اليسر كأنما هم يلعبون ، لكنهم لا يعنون عناية حقة صادقة الا بارواء أشواقهم الروحية المضطربة المبهمة بعض الابهام ، وهى أشواق تتجاوز نطاق المدرسة والبرامج المدرسية . انهم أوتوا قلبا بسيطا هادئا ، لكنهم أوتوا كذلك فكرا قلقا قوى الميل الى الاطلاع . انهم لا يكادون يعرفون تلك الأزمات الأليمة الخطرة ، ازمات الحياة الشهوانية والعاطفية التى يعانيها كثير من الشباب فى مثل سنهم ، ولكنهم فى الوقت نفسه لا ينتهون بسهولة الى تهدئة مايعانونه من قلق فكرى ، وكثيرا ما يظلون طوال حياتهم يجربون كل أمر من الأمور ويطرفون الناس بشذوذهم ، لا يستقرون على عمل ثابت ، ولا يسيرون فى اتجاه واحد . وكما يجب على كل فتى أن يستجيب المطالب الطبيعية الخالدة ، مطالب الصبا والنضج ، وكما يجب عليه أيضا أن يدفع ضريبة للتيارات الروحية المعاصرة « وللموضة » وللعادات التى تسيطر على الشبيبة فى كل عصر من العصور الى حين ، كذلك كان جالوس يقرض الشعر هو أيضا ، وينتمى عضوا عاملا الى منظمة الشباب الثورية القومية . أضف الى ذلك أنه درس اللغة الفرنسية خلال خمس سنوات كمادة اختيارية ، وعنى بالأدب والفلسفة خاصة . وانكب على القراءة فى هوى جامح لا يكل ولا يمل . وكان تلاميذ المدارس الثانوية بسارايبفو فى تلك الأيام يقرأون من المؤلفات الأجنبية ما تنشره خاصة دار ألمانية من دور النشر شهيرة كبيرة اسمها : Reclams Universal Bibliothek فكانت الكتب الصغيرة ذات الغلاف الأصفر ، التى تطبعها هذه الدار بأحرف صغيرة جدا ، وتبيعها بأسعار بخسة ، كانت هى الغذاء الفكرى الرئيسى الذى يستطيع أن يصل اليه شبان ذلك الزمان . وكانت هذه الكتب لا تتيح لهم أن يطلعوا على الأدب

الالمانى فحسب ، بل تتيح لهم كذلك أن يطلعوا على عيون مؤلفات الأدب العالمى جميعها ، فى ترجمتها الالمانية . فمن هذه الكتب انما استمد جالوس معرفته بالفلاسفة الألمان المحدثين ، وخاصة نتشه وشترنر . وكان خلال نزهات طويلة يقوم بها مع رفاقه على طول نهر ملياتسكا (١) يدير بصدد هؤلاء الفلاسفة مناقشات لا تنتهى، وذلك بحماسة رصينة وقور ، دون أن يربط بين معلوماته وحياته الشخصية كما يفعل الشباب فى كثير من الأحيان . ان هذا النوع من حملة البكالوريا الناضحين قبل الأوان ، المثقلين بمعلومات متنوعة لكنها مضطربة مبهمة ، لم يكن نادرا بين تلاميذ المدارس الثانوية فى تلك الأيام . وجالوس شاب عف ، وتلميذ مجتهد ، لا يعرف من حرية الشباب وانطلاقاتهم الا ما يتجلى جرأة فى الفكر واسرافا فى الاكباب على المطالعة .

اما فهيم بختيارفتش فلا ينتمى الى مدينة فيشيجراد الا من جهة أمه. انأباه يرجع أصله الى روجاتسنا التى يعمل فيها الآن قاضيا ، لكن أمه من أسرة كبيرة هنا هى أسرة عثمان آغتش . وهو منذ نعومة أظافره يقضى شطرا من اجازة الصيف مع أمه عند أهلها بفيشيجراد. انه شاب ممشوق القوام ، نحيل القسمات ، ضامر الأعضاء ، مفاصله دقيقة لكنها قوية . كل شىء عند هذا الفتى تعيس ، مطفأ ، مخنوق . وجهه يشبه أن يكون محترقا بأشعة الشمس ، وجه مستطيل دقيق أسمر تلوحه خيوط رقيقة من زرقة قاتمة . حركاته موجزة قليلة ، عيناه سوداوان لهما حدقتان مظللتان بزرقة ، نظرته محرقة ، لكنها ليست بذات بريق . وحاجباه كبيران متلاقيان ، وعلى شفتيه المرسومتين الدقيقتين زغبة سوداء رقيقة . ان المرء يرى وجوها كهذا الوجه فى الرسوم الفارسية الصغيرة .

لقد نال هو ايضا شهادة البكالوريا فى هذا الصيف ، وهو ينتظر الآن منحة من الدولة حتى يسافر الى فيينا للتخصص فى اللغات الشرقية .

ان الشابين يتابعان حديثا بدآه قبل ذلك ، والحديث يجرى على الدراسة التى يجب أن يختارها بختيارفتش . ان جالوس يحاول أن يبرهن لصاحبه على أنه يخطىء اذا هو اندفع الى الاستشراق .

---

(١) نهر يحتاز ساريفو (المترجم) .

وجالوس يتكلم فى العادة أكثر من رفيقه . وفى كلامه من الحرارة ما ليس فى كلام رفيقه ، وقد تعود أن يصغى اليه النـــاس وتعود أن يلقى خطبا ، بينما بختيارفتش يتكلم قليلا وفى ايجازه كرجل حصل له الاقتناع وليس فى حاجة الى اقناع أحد . وحين يتكلم جالوس يكون ، كأكثر الشباب المتعلمين ، سعيدا سعادة ساذجة بما يجرى على لسانه من كلام وتعبير وما يجىء به خياله من استعارات جميلة غريبة ، مع ميل الى التعميم ، فى حين أن رفيقه يتحدث حديثا جافا ، مختصرا بغير اكتراث تقريبا .

ان ستيكوفتش وجلاسنتشانين مختفيان فى الظل جالسان على المقاعد الحجرية ، صامتان ، كأنما هما اتفقا ضمنا على أن ينصتا الى حديث الرفيقين على الجسر دون أن يرياهما .

وهذا جالوس يتم المناقشة التى تدور على اختيار الدراسة ، متكلما فى حرارة :

ــ انكم معشر المسلمين ، أبناء البكوات ، كثيرا ما تخطئون فيما يتصل بهذه المسألة . لقد أوقعتكم الأزمنة الجديدة فى حيرة واضطراب ، حتى صرتم لا تدركون مكانكم فى العالم ادراكا صحيحا كاملا . ليس حبكم لكل ما هو شرقى الا تعبيرا معاصرا عن « ارادة السيطرة » تضطرم فى نفوسكم . ان الأساليب الشرقية فى الحياة والفكر ترتبط فى أذهانكم ارتباطا وثيقا بنظام اجتماعى قانونى كان أساسا لسيطرتكم القديمة . وهذا أمر مفهوم لكنه لا يعنى أبدا أنكم تملكون الاحساس بالاستشراق من حيث هو علم . انكم شرقيون ، ولكنكم تخطئون اذا ظننتم أن عليكم من أجل ذلك أن تكونوا مستشرقين . فالحقيقة أنكم لم تؤتوا القدرة على حمل رسالة العلم ، ولا أنتم تميلون حقا الى العلم .

ــ يا سلام ..

ــ نعم نعم . وحين أطلق هذا الحكم لا اقول شيئا مهينا ولا مسيئا . بالعكس ، انكم الحاكمون الوحيدون فى هذه الأرض . او كنتم كذلك على الأقل . لقد استطعتم خلال العصور أن توسعوا سيطرتكم وأن تعززوها وأن تدافعوا عنها ، بالسيف والكتاب . بالقانون والدين والحرب . وكان من شأن ذلك أن خلق منكم نموذج المقاتل والحاكم ورجل الدولة . ومن المعلوم ، أن هذه الطبقة من الناس لا تتعهد العلوم المجردة فى أى بقعة من بقاع العالم وانما تدع ذلك لمن ليس لهم عمل آخر يقومون به ، ولا يستطيعون

ان يقوموا بأى عمل آخر غيره . أنتم يجب أن تدرسوا الحقوق والاقتصاد السياسى ، لأنكم أصحاب معارف عيانية محسوسة ، فكذلك شأن رجال الطبقة المسيطرة ، فى كل مكان وفى كل زمان .

ــ معنى ذلك أن نبقى بغير ثقافة .

ــ لا .. بل معناه أن عليكم أن تظلوا ما أنتم ، أو ان شئت فقل ما كنتم . يجب عليكم هذا ، اذ ما من امرىء يستطيع أن يكون ما هو ونقيض ما هو .

ــ لكننا لسنا بالطبقة الحاكمة الآن . نحن وأنتم متساوون اليوم جميعا .

قال بختيارفتش ذلك بشىء من السخر الذى تمازجه مرارة ويمازجه كبر .

ــ لستم الطبقة الحاكمة ، طبعا لستم الطبقة الحاكمة . ان الظروف التى جعلتكم ما أنتم قد تبدلت منذ مدة طويلة ، ولكن هذا لا يعنى أنكم تستطيعون أنتم أيضا أن تتبدلوا بهذه السرعة نفسها . لستم أول ولا آخر طبقة اجتماعية فقدت قاعدتها ثم ظلت هى نفسها . فقد تتغير ظروف حياة طبقة من الناس ثم تظل هذه الطبقة ما هى ، فبذلك تحيا وعلى هذا تموت .

وانقطع حديث الشابين الغارقين فى الظلام ، انقطع لحظة لأن صمت بختيارفتش أطفأه .

وفى السماء الصاحية ، سماء شهر حزيران (يونيه) ، فوق الجبال السوداء ، عند آخر الأفق ، ظهر القمر مفلولا وكأنه غارق فى الماء ، فسقطت على حين فجأة ، المسلة البيضاء على الجدار المرتفع ، مع الكتابة التركية عليها ، كأنها نافذة يخرج منها نور ضعيف فى الظلام الأزرق .

وقال بختيارفتش شيئا ، لكن صوته كان من الضعف بحيث أن ستيكوفتش وجلاسنتشانين لم يصل اليهما من أقواله الا كلمات متقطعة غير مترابطة لا تفهم . ان موضوعا آخر يشغلهما الآن ، كما يحدث ذلك دائما فى أحاديث الشبان التى تجرى فيها تداعيات الأفكار سريعة جريئة . لقد انتقلا من الكلام على اللفات الشرقية الى الحديث عن الكتابة المنقوشة على المسلة البيضاء أمامهما ، وهما الآن يتحدثان عن الجسر وعن بانيه .

ان صوت جالوس أقوى كثيرا من صوت صاحبه وأبلغ منه تعبيرا . انه مع مشاركته صديقه فيما يكيله من مديح لمحمد باشا

سوكولوفتش وللحكم التركى فى عهده الذى شاد أبنية عظيمة كهذا البناء ، يبسط الآن فى كثير من الحماسة آراءه القومية فى ماضى الشعب الصربى ومستقبله ، وفى ثقافته وحضارته (ذلك أن كل واحد فى أحاديث الطلاب هذه انما يتبع آراءه الخاصة) .

قال جالوس :

ــ صحيح .. لا شك انه كان رجلا عبقريا . وليس هو أول ولا آخر رجل من رجال أمتنا الصربية الذين ظهر نبوغهم فى خدمة امبراطورية أجنبية . لقد أعطينا استانبول وروما وفيينا مئات من مثل هؤلاء الرجال العباقرة الذين نبغوا فى ميدان السياسة والحرب والفن . وليس لتوحيد شعوبنا تحت راية دولة قومية كبيرة قوية حديثة الا هذا المعنى ، وهو ان قوانا ستظل فى بلادنا تتفتح بين ربوعها ، ونساهم فى الحضارة الانسانية باسمنا نحن لا عن طريق مراكز أجنبية .

ــ هل تظن أن هذه « المراكز » قد قامت مصادفة ، وأن فى الامكان اقامة مراكز جديدة مثلها ، بالارادة ، حين نشاء وفى المكان الذى نختار ؟

ــ مصادفة .. غير مصادفة .. ليس هذا هو السؤال اليوم . ليس مهما أن نعرف كيف بدأت ، وانما المهم أنها الآن تزول ، تذبل ، تنهار ، وأن عليها أن تتخلى عن مكانها لمراكز جديدة تستطيع فيها الشعوب الفتية الحرة التى تظهر على مسرح التاريخ من أن تعبر عن نفسها من غير وسيط .

ــ هل تظن أن محمد باشا سوكولوفتش ، لو بقى فلاحا بسيطا على الجبل هناك فى سوكولوفتش ، كان سيصبح ما أصبح ، وكان سيبنى مثلا هذا الجسر الذى نتحدث عليه فى هذه اللحظة ؟

ــ فى ذلك الزمان .. طبعا لا .. ولكن يجب أن نعترف على كل حال بأنه لم يكن صعبا على تساريجراد (استانبول) أن تشيد مثل هذه المبانى ، لأن الحكومة التركية كانت تنتزع منا كما تنتزع من سائر الشعوب التى استعبدتها ، لا خيراتنا وثمرات عملنا فحسب ، بل كذلك خير ما نملك من قوى ، وانقى ما يجرى فى عروقنا من دم . لو تذكرت قيمة وخطورة كل ما أخذ منا خلال قرون ، لبدت لك كل هذه المبانى تافهة بالقياس اليه . ولكن متى نال شعبنا حريته القومية واستقلاله السياسى ، أصبحت أموالنا ودماؤنا خيرات باقية لنا ، وأصبح كل شىء يساهم فى بناء حضارة قومية

نحمل طابعنا وتسمى باسمنا ، وتسعى الى تحقيق السعادة والرخاء لأوسع طبقات شعبنا .

وكان بختيارفتش صامتا لا يتكلم ، وكان صمته هذا ، من حيث أنه أقوى وأبلغ مقاومة ، يثير جالوس ويدفعه الى رفع صوته والى مزيد من الحدة فى لهجته . وراح يحصى المشاريع والأعمال التى تقع على عاتق الشبيبة الثورية ، يحصى هذه المشاريع وهذه الأعمال بالحرارة التى يتصف بها ، وبالألفاظ الرائجة فيما كان يكتبه الكتاب القوميون آنذاك :

« سوف تستيقظ جميع القوى الحية الكامنة فى أعراق أمتنا ، وسوف تتحرك .. فاذا بضرباتها تدك العرش النمسوى المجرى ، سجن الشعوب ، فيتداعى كما تداعت تركية أوروبا . وسوف تتحطم وتزول جميع القوى المعادية للقومية ، جميع القوى الرجعية التى تعرقل اليوم وثبتنا القومية وتشتتها وتنميها . كل ذلك سوف يتحقق ، لأن روح العصر الذى نعيش فيه خير حليف لنا ، لأن جهود الشعوب المستعبدة الأخرى تسير فى هذا الاتجاه نفسه الذى نسير فيه . وسوف تنتصر القومية المعاصرة على الفروق الدينية والأوهام البالية ، وسوف يتحرر الشعب من النفوذ الأجنبى والاستغلال الأجنبى وسوف تقوم يومئذ دولة قومية » .

ثم أخذ جالوس يصف ماسيكون لهذه الدولة القومية الجديدة من مزايا وجمال ، هذه الدولة القومية الجديدة التى ستضم حول الصرب (سيكون دور الصرب كدور بييمونت) جميع السلافيين الجنوبيين ، على أساس حقوق القوميات ، والتسامح الدينى ، والمساواة بين المواطنين . كان جالوس يجمع فى كلامه بين التعبيرات الجريئة التى ليس لها معنى محدد وبين الكلمات التى تعبر تعبيرا دقيقا عن حاجات الحياة العصرية ، عن الرغبات الثانوية فى أعمق أعماق قلب الأمة ، هذه الرغبات التى كان يقال فى أكثر الأحيان انها ستظل رغبات ، عن المطالب المبررة القابلة للتحقيق من مطالب الحياة اليومية عن الحقائق الكبرى التى تنضج خلال الأجيال ولكن لا يدركها ولا يجرؤ أن يعبر عنها مقدما الا الشباب ، عن الأوهام الخالدة التى لا تنطفىء فى يوم من الأيام ولكنها لا تصل الى التحقق أبدا ، وانما يسلمها جيل الى جيل كالشعلة التى تتحدث عنها الأساطير . صحيح أن كلام الفتى كان يشتمل على كثير من الآراء التى لا تصمد للنقد وعلى كثير من الفروض التى لا تثبت لمحك التجربة ،

ولكنه كان يشتمل أيضا على نفحة منعشة ، على نسغ ثمين بفضله تبقى الانسانية ويتجدد شبابها .

وظل بختيارفتش صامتا .

ــ سترى يافهيم (هكذا عاد جالوس يلح فى حماسة ، محاولا أن يقنع رفيقه بنبوءاته وكأن الأمر سيتم فى هذه الليلة نفسها أو فى غد) سترى .. سننشىء دولة هى أثمن مساهمة فى تقدم الانسانية .. دولة يكون فيها كل جهد مباركا ، وتكون فيها كل تضحية مقدسة ، ويكون فيها كل فكر أصيلا ، وكل عمل موسوما بطابع اسمنا . سنحقق يومئذ آثارا تكون ثمرة عملنا الحر ، وتعبيرا عن عبقرية أمتنا ، وأعمالا اذا قيس بها كل ما سبق خلقه خلال قرون من الحكم الأجنبى ، بدا ركاما تافها من لعب لا قيمة له . سوف نبنى جسورا على أكبر الأنهار وأعمق الوهاد . سوف نبنى جسورا جديدة أكبر وأجمل ، لا لكى تربط بين مراكز أجنبية وبلدان مستعبدة ، بل لكى نضم مناطقنا بعضها الى بعض ، ولكى نربط دولتنا بسائر العالم . ذلك أمر لم يبق مجال للشك فيه ، وهو آن علينا نحن أن نحقق ما كانت جميع الأجيال التى سبقتنا تتطلع اليه ، دولة تنشأ فى حضن الحرية وتقوم على أساس العدالة ، كجزء من الفكر الالهى يتحقق على هذه الأرض .

وظل بختيارفتش صامتا . وأخذ صوت جالوس ينخفض . فكلما كان فكره يزداد ارتفاعا ، كان صوته يزداد خفوتا وبحاحة ، حتى سار الى همهمة هادرة عارمة ، ثم غاب فى سكون الليل الكبير . ان الشابين كليهما صامتان الآن . لكن صمت بختيارفتش ، يجثم على صدر الليل ثقيلا عنيدا . انه ينتصب فى الظلمات محسوسا واقعيا ، كسور لا يمكن اجتيازه ، ويصر اصرارا قويا على أن يكذب بنقل وجوده نفسه كل أقاويل جالوس ، مفصحا عن فكر أخرس واضح لا يتزعزع .

ــ ان قواعد العالم وأسس الحياة والعلاقات بين البشر معينة لقرون وقرون . هذا لا يعنى انها لا تتغير ، لكنها اذا قيست بمدة حياة انسانية بدت أبدية . ان النسبة بين طولها وطول حياة انسانية كالنسبة بين سطح النهر المضطرب المتحرك السريع وقاعه الراكن الوطيد الذى يتبدل تبدلات بطيئة لا تدرك . وحتى فكرة تبدل هذه « المراكز » فكرة سقيمة لا يمكن أن تتحقق . مثل الذى يريد ذلك كمثل الذى يريد أن يغير وأن ينقل ينابيع الأنهار الكبرى ،

او كمثل الذى يريد أن يبدل مواضع الجبال . ان الرغبة فى التغيرات المفاجئة والتفكير فى تحقيقهابالقوة ، يظهران بين الناس فى كثير من الأحيان ظهور المرض ، ويشتدان فى أكثر الأحيان فى رءوس الشباب . غير أن هذه الرءوس لا تفكر كما ينبغى أن تفكر ولا تصل فى نهاية الأمر الى شيء ، كما انها لا تستقر فوق أكتاف أصحابها فى العادة مدة طويلة . ذلك أن رغبة البشر ليست هى التى تتصرف فى الأمور وليست هى التى تقود شئون العالم . الرغبة كالريح ، تثير الغبار من مكان الى مكان ، وقد تحجب الأفق تماما فى بعض الأحيان ، لكنها تهدأ فى آخر الأمر وتزول ، مخلفة وراءها الصورة القديمة الأبدية للعالم . الأعمال الباقية على هذه الأرض انما تتحقق بمشيئة الله ، وليس الانسان الا اداته الطيعة الخضوع . ان عملا ينشأ من رغبة البشر ، ميسر لأحد أمرين : فاما أن يصل الى التحقيق واما ألا يبقى بعد أن يتحقق ، وهو فى كل حال ليس بالعمل الطيب . ان جميع هذه الرغبات الطافحة وهذه الكلمات الفائرة تحت السماء المظلمة على الكابيا لن تغير من جوهر الأمر شيئا . وستمر مرورا عابرا فوق الوقائع الكبرى الباقية فى هذا العالم ، وتمضى لتضيع هناك حيث تهدأ الرغبات وتسكن الرياح . ان الرجال العظام ، وكذلك المبانى العظيمة ، تنبت وستظل تنبت حيث تريد لها مشيئة الله أن تنبت ، لا شأن فى هذا لا للرغبات الفارغة العارضة ، ولا لغرور الانسان .

غير أن بختيارفتش لم ينطق بأية كلمة من هذه الكلمات . ان اولئك الذين تجرى فلسفتهم فى دمائهم ، كهذا الفتى المسلم ، يعيشون ويموتون وفقا لهذه الفلسفة ، لكنهم لا يعرفون كيف يعبرون عنها بألفاظ ولا يشعرون بالحاجة الى ذلك . وبعد لحظة طويلة من صمت ، لاحظ ستيكوفتش وجلاسنتشانين أن أحد الرفيقين المختفيين فى الظلام وراء الجدار قد ألقى عقب سيجارة ، فسقط من الجسر الى نهر درينا كالشهاب راسما قوسا كبيرا ، وسمعا فى الوقت نفسه وقع خطوات الرفيقين يسيران صامتين ببطء نحو ساحة السوق . وسرعان ما زال وراءهما صدى وقع أقدامهما .

فلما أصبح ستيكوفيتش وجلاسنتشانين وحيدين من جديد ، استيقظا منتفضين ، ونظر كل منهما الى صاحبه كأنهما لم يلتقيا الا فى هذه اللحظة .

ان على وجهيهما ، تحت ضوء القمر الضعيف ، أضواء وظلالا

تتكسر وتتقاطع . انهما يبدوان أكبر سنا ، وان لنار سيجارتيهما لمعانا كلمعان الفوسفور . انهما فى حالة هبـــــوط نفسى . ولئن كانت دواعبهما الى ذلك مختلفة ، فان الارهاق الذى يعانيانه واحد . لم يكن لأحد منهما الا رغبة واحدة هى أن ينهض ويعود الى بيته . لكنهما ظــلا جالسين على المقعد الحجرى الذى لا يزال دافئــا من شمس النهار ، ظلا جالسين كأنهما مسمران . ان الحديث الذى دار بين رفيقيهما اللذين يصغرانهما سنا ، هذا الحديث الذى سمعاه مصادفة دون أن يراهما أحد ، كان لهما خير فرصة لارجاء ما يجب أن يقوم بينهما من كلام ، لــكنهما لا يستطيعان الآن أن يجتنبا هذا الكلام .

ـ هل رأيت الى كيراك والى الحجج التى أدلى بها ؟

هكذا بدأ ستيكوفتش الـكلام عائدا الى المناقشة ألتى كانت تدور رحاها فى المساء . وما لبث أن شعر بضعف موقفه .

واحس جلاسنتشانين بامتياز الموقف الذى يقفــه مؤقتــا ، وهو موقف القاضى الذى يفصل فى الأمور . ولم يجب على الفور .

فأردف ستيكوفتش يسأله بصبر نافد :

ـ قل لى ، ارجوك .. أليس من المضحك أن نتحدث اليوم عن صراع الطبقات وأن ندعو الى هذه الأمور التافهة بينما يشعر كل رجل من رجالنا شعورا واضحا بأن الوحدة القومية والتحرير القومى اللذين يجب تحقيقهما بالطرق الثورية هما المهمتان الملحتان اللتــان يقع علينا عبء العمل فى سبيلهما .

كان فى صوت ستيكوفتش اسئلة ودعوات الى المناقشة . ولــكن جاسنتشانين امتنع مرة أخرى عن الاجابة . وفى سكون هــذا الصمت الانتقامى العدائى ، وصلت الى مسامعهما موسيقى آتية هذه المرة من النادى العسكرى على الشاطىء . ان نوافذ النادى مضاءة فى الطابق الأرضى ، مفتوحة على مصــــاريعها . هذا كمان يرافقه بيانو . ان الدكتور بالاك ، الطبيب العســكرى ، هــو الذى يعزف على الـكمان ، وزوجـــــة الـكولونيــل باور قائد الحـامية هى التى ترافقه بالعزف على البيانو (انهما يدرسان الجزء الثانى من سوناتا لشوبير تعزف على البيــــانو والـكمان) . لقد بدآ بدءا حسنا ، وكانا على توافق تام ، ولــكن قبل الوصول الى منتصف المعزوفة تقدم البيانو الـكمان ، فانقطعت الـكمان عن العزف . وبعد فترة قصيرة من صمت لعل العازفين كانا خلالها يتواصيان

على بعض الأمور فى الفقرة الصعبة ، استأنفا العزف . انهما يعملان هكذا كل مساء تقريبا ، ويظلان يعزفان الى ساعة متأخرة من الليل ، بينما يكون الكولونيل منصرفا الى اللعب بالورق فى حجرة أخرى ، أو يكون جالسا الى قدح من خمر موستار يشربه ناعسا أو يدخن سيجارة نمسوية ، وبينما يكون الضباط الشباب يتندرون بالكلام على الموسيقيين العاشقين .

الواقع أن قصة معقدة صعبة تنشأ بين السيدة باور وبين الطبيب الشاب منذ شهور . لكن أشد الضباط نفاذا الى دخائل الأمور لا يتوصلون الى تحديد طبيعة العلاقة التى بينهما على حقيقتها . فبعضهم يؤكد أن هذه الصلة صلة أفلاطونية صرفة (وهم يضحكون من هذا طبعا) وبعضهم يقول ان للجسد نصيبه فى هذا كله من غير شك . ومهما يكن من أمر ، فان هذين الشخصين لا ينفصل أحدهما من الآخر ، وذلك بموافقة تامة أبوية من الكولونيل ، وهو رجل طيب بطبيعته قد تبلد كثيرا من الخدمة والتقدم فى السن والخمر والتبغ .

ان المدينة الصغيرة كلها تعرف هذين الشخصين على أنهما صاحبان لا يفترقان . وكان مجتمع الضباط كله يعيش حياته الخاصة منعزلا ، لا تربطه أية صلة لا بأهالى فيشيجراد ولا بالموظفين الأجانب ، حتى لقد كتب على لافتة عند مدخل من حدائق الضباط المليئة بالطرائد المدورة والمنجمة من طرائد الأزهار النادرة ، كتب أن اصطحاب الكلاب ممنوع ، وأن دخول الحديقة محظور على المدنيين . وكانت تسلياتهم ، كأعمالهم ، من الأمور التى لا يشارك فيها الا من يرتدون الزى العسكرى . وكانت حياتهم فى واقع الأمر حياة طبقة ضخمة منطوية على ذاتها كل الانطواء ، طبقة أناس يحرصون على انفرادهم هذا حرصهم على أهم جزء مما لهم من بأس وسلطة ، ويخفون تحت هذا المظهر الخارجى البراق الصلب كل ما تمنحه الحياة للآخرين من عظمة وشقاء ، وحلاوة ومرارة .

غير أن هناك أمورا من طبيعتها أن لا تخفى ، فهى تكسر كل إطار مهما يكن قويا ، وتجتاز جميع الحدود مهما تفرض عليها حراسة شديدة (كان العثمانيون يقولون : ثلاثة أمور لا يمكن أن تبقى خافية : الحب والسعال والفقر) . فكذلك كان حال هذين العاشقين . ما من شيخ ولا طفل ولا امرأة ولا رجل فى المدينة الا صادفهما خلال نزهة من نزهاتهما يسيران فى طرق خالية حول فيشيجراد غارقين

فى الحديث قد عميت أعينهما وصمت آذانهما عن كل ما يحيط بهما . تعود الرعاة رؤيتهما كما يتعودون رؤية تلك الأزواج من الحشرات التى ترى كثيرا فى شهر أيار (مايو) تحت أوراق الأشجار على طول الطرقات ، اثنين اثنين دائما ، وقد التصق كل واحد بالثانى على حب . ان الناس يرون هذين العاشقين فى كل مكان : يرونهما حول نهر درينا ونهر رزاف ، وتحت خرائب القلعة القديمة ، وعلى الطريق الخارج من المدينة ، وحول ستراپشته ، فى كل ساعة من ساعات النهار . ذلك أن الوقت قصير دائما عند العشاق ، وما من طريق طويل طولا كافيا . وكانا يركبان الخيل ، وكانا يقودان عربات خفيفة ، لكنهما كانا يسيران على الأقدام فى أكثر الأحيان سير شخصين لا يعيش احدهما الا للآخر ، بخطى خاصة متميزة تدل بذاتها على أنهما لا يحفلان بشىء مما فى هذا العالم غير ما يحب كل منهما أن يقول للآخر !

أما هو فأصله سلوفاكي أصبح من المجر . انه ابن أحد الموظفين ، فقير تعلم على نفقة الدولة ، شاب موهوب فى الموسيقى حقا ، طموح ، حساس جدا ، وخاصة بسبب أصله الذى يمنعه من أن يعد نفسه مساويا كل المساواة للضباط الألمان أو للضباط المجريين الذين ينتمون الى أسر ارفع منزلة أو أكثر ثراء . وأما هى فامرأة تجاوزت الأربعين من العمر، أكبر منه بثمانى سنوات ، طويلة شقراء ، قد ذبلت قليلا ، لكن بشرتها ناصعة البياض متوردة ، ولها عينان ملتمعتان . انها بهيئتها ووضعها تشبه تلك الصورة التى تمثل وجوه ملكات وتفتن الفتيات .

ولكل من هذين الشخصين دواع شخصية (قد تكون واقعية وقد تكون خيالية ، لكنها عميقة فى كل حال) تجعله غير راض عن الحياة . ومن هذه الدواعى داع مشترك بينهما : فكلاهما يحس ، فى هذه المدينة الصغيرة مع هذا المجتمع من الضباط الذين يتصف أكثرهم بالسخف والتفاهة ، كلاهما يحس بأنه شقى وبأنه يشبه أن يكون فى منفى . فهما لذلك يتلاصقان هذا التلاصق القوى، ويشد كل منهما نفسه الى الآخر، كما يفعل غريقان . ان كلا منهما يهوى فى الآخر ، ويذوب وينسى نفسه فى أحاديث طويلة ، أو فى الموسيقى كما يفعلان الآن .

ذانك هما الشخصان اللذان كانت موسيقاهما تملأ الصمت المزعج المخيم بين الشابين .

وفى لحظة من اللحظات تعثرت هذه الموسيقى التى كانت تنسكب فى هدوء الليل ، وانقطعت الى حين . فأخذ جلاسنتشانين ، فى هذا الصمت الذى قام عندئذ ، أخذ يتكلم بصوت صلب ، مجيبا عن الكلام الأخير الذى قاله ستيكوفتش :

ـ مضحك ؟ هناك أشياء كثيرة مضحكة فى تلك المناقشة ، اذا أردت أن تحكم حكما صادقا .

فسحب ستيكوفتش سيجارته من فمه فجأة ، بينما استمر جلاستنشانين يعبر فى بطء ، ولكن فى عزم ، عن رأيه الذى كان واضحا انه ليس أبن هذا المساء ، وانما هو يقض مضجعه منذ مدة طويلة :

ـ اننى اصغى بانتباه الى جميع المناقشات التى تدور بينكما كما تدور بين مثقفين آخرين فى هذه المدينة ، وأقرأ الصحف وأقرأ المجلات ، فكلما ازددت اصغاء ، ازددت اقتناعا بأن هذه المناقشات التى يدور بها الكلام او تجرى بها الأقلام لا تمت بأية صلة الى الحياة وضروراتها ومشكلاتها الواقعية . ذلك بأننى أنظر الى الحياة، الى الحياة الحقة ، من قرب ، أراها لدى الآخرين ، واحسها فى ذات نفسى . قد اكون على خطأ ، وقد لا أحسن التعبير عن رأيى ، لكننى ارانى فى كثير من الأحيان مضطرا الى الاعتقاد بأن التقدم التكنيكى والسلام النسبى فى العالم قد أوجدا نوعا من الهدوء الموقت ، أوجدا جوا خاصا مصطنعا غير واقعى يتاح فيه لطبقة من الناس ، هى طبقة أولئك الذين يسمون بالمثقفين ، أن تنصرف بحرية الى اللعب بالأفكار ، لعب المتعطلين اللاهين ، ملقية « نظرات على الحياة والعالم » ، قد أوجدا للفكر ما يشبه البيوت الزجاجية التى تستنبت فيها نباتات المناطق الأجنبية فى جو اصطناعى ، فليس ثمة صلة بين هذا كله وبين الارض ، ليس ثمة صلة بينه وبين الأساس الواقعى الراسخ الذى تتحرك فوقه جماهير الكائنات الحية . انكم تظنون انكم تناقشون مصير الجماهير ووظيفتها فى المعارك التى يجب أن تخوضها سعيا الى ما ترسمون لها من أهداف سامية ، ولكن الواقع أن العجلات التى تدور فى رءوسكم ليس لها اى صلة بحياة الجمهور ولا بالحياة عامة . ولعبكم ها هنا يصبح خطرا ، أو يمكن أن يصبح خطرا على الناس وعليكم أنتم .

وتوقف جلاسنتشانين . وبلغ ستيكوفتش من دهشته لهذا المقال الطويل الواعى ، انه لم يفكر لا فى مقاطعته ولا فى الجواب عليه .

وكل ما فعله هو انه حين سمع كلمة « خطر » ، حرك يده حركة خفيفة ساخرة . فأحنق هذا جلاسنتشانين ، فأردف يقول بمزيد من العنف :

ــ يمينا أن المرء حين يسمع كلامكم يظن أن جميع المشكلات قد حلت حلا موفقا ، وأن جميع الأخطار قد أبعدت الى الأبد ، وان جميع الطرق قد شقت وعبدت ، فلم يبق الا أن تأخذ فى المسير .. مع أنه لا شىء فى الحياة قد حل ، ولا شىء فى الحياة يمكن ان يحل بسهولة ، ولا أمل فى حل كامل ، بل كل شىء صعب معقد ، باهظ الثمن ، مرتبط بأخطار كبيرة لا تتناسب والهدف المنشود . ليس فى أى مكان ظل للآمال الجريئة التى يعقدها كيراك ، ولا للآفاق الكبيرة التى تطل عليها أنت . ان الانسان يتعذب طوال حياته ، ولا يصل يوما الى ما هو فى حاجة اليه فكيف بما يتمناه ويرغب فيه . انه بنظرياتكم لا يزيد على أن يرضى حاجته الأبدية الى اللعب. انه يرضى غروره ، ويخدع غيره ، هذه هى الحقيقة ، أو هذا ما يتراءى لى على الأقل .

ــ يكفى أن تقارن بين مختلف العصور التاريخية حتى ترى التقدم وحتى ترى معنى النضال الانسانى ، وبالتالى معنى النظريات التى توجه النضال الانسانى .

فاعتقد جلاسنتشانين فورا أن فى هذا الكلام اشارة الى انه لم يكمل دراسته ، فارتعش فى أعماق نفسه ، كما يحدث له ذلك دائما فى مثل هذه الحالة . فقال :

ــ انا لا ادرس التاريخ .

ــ اذن لو درسته لرأيت .

ــ لكنك أنت أيضا لا تدرسه .

ــ كيف ؟ انا أدرس التاريخ !

ــ فوق العلوم الطبيعية ؟

قال جلاسنتشانين ذلك بصوت يرتعش فى خبث ، فاضطرب ستيكوفتش لحظة ، ثم استأنف يقول بصوت يشبه أن يكون ميتا :

ــ نعم ، فوق العلوم الطبيعية ، اذا كنت مصرا على أن تعرف ذلك. انني أعنى ، الى جانب العلوم الطبيعية ، هناك مسائل سياسية وتاريخية واجتماعية .

ــ شىء عظيم أن تستطيع الانصراف الى هذا كله .. ذلك أنك

بالاضافة الى هذا ، فيما أعلم ، خطيب ، وداعية ، وشاعر . وعاشق .
فابتسم ستيكوفتش منزعجا . ان ذكرى الأصيل الذى قضاه اليوم فى قاعة الدرس الخالية ، قد مرت بخاطره كشىء بعيد لكنه مؤلم ، وعندئذ فقط تذكر أن جلاسنتشانين وزوركا كانا على مودة قبل وصوله الى المدينة . ان الخلى من القلب لايستطيع أن يشعر بما يشعر به المحب ، ولا يستطيع أن يقدر قوة الغيرة وما يختفى فى الغيرة من خطر .
وسرعان ما انقلب الحديث بين الشابين الى مشاجرة شخصية حادة كانت تهوم فى الهواء فوقهما منذ البداية .
ان الشباب لا يحاولون اجتناب المشاجرات ، شأنهم فى ذلك شأن صغار الحيوانات التى تندفع بسهولة الى ألعاب عنيفة وحشية .
ـ ما أنا ، وما أهتم به ، أمر لا يعنى أحدا غيرى على كل حال . أترانى أتدخل فى شئون أمتارك المكعبة وجذوع أشجارك ؟
ان الغضب العنيف الذى يثور دائما فى نفس جلاسنتشانين حين يلمح أحد الى حالته ، قد أوجعه الآن بقوة خاصة .
ـ دعك من أمتارك المكعبة . اننى أعيش من عملى ، لكننى لا أغش به أحدا . أنا لا أخدع أحدا ولا أغوى أحدا .
ـ وهل أغويت أنا أحدا ؟
ـ جميع الذين يتأثرون باغوائك أو جميع اللواتى يتأثرون باغوائك !
ـ غير صحيح .
ـ بل هو صحيح . انت نفسك تعلم أن هذه هى الحقيقة . وما دمت قد تحديتنى فسأقوله لك ..
ـ لست حريصا على أن تقوله .
ـ لكننى أنا حريص . قد يقضى المرء نهاره كله بين جذوع الأشجار ، ثم لا يمنعه ذلك من أن يرى ويتعلم ويفكر ويشعر . سأقول لك رأيى فى مشاغلك واختصاصاتك الكثيرة وفى آرائك الجريئة ، وكذلك فى أشعارك وغرامياتك .
تحرك ستيكوفتش كمن يهتم أن ينهض ، لكنه ظل فى مكانه . ان موسيقى الكمان والبيانو قد استؤنفت فى النادى العسكرى منذ مدة طويلة (انهما يعزفان الآن الجزء الثالث من السوناتينه ، وهو جزء مرح متحرك) ، والأصوات تغيب وسط الليل فى هدير النهر .

ـ شكرا ، لقد سمعت فى ذلك آراء من هم أذكى منك .

ـ لا ، لا .. الآخرون اما أنهم لا يعرفونك ، واما أنهم يكذبونك ، واما أن رايهم كرأيي لكنهم يصمتون . جميع نظرياتك ، وجميع اهتماماتك الروحيه الكثيره ، وجميع علاقاتك الغرامية وصداقاتك، جميع ذلك انما ينبع من طموحك ، وطموحك طموح كاذب فاسد ، لأنه خارج من غرورك ، من غرورك وحده .

ـ ها ها ..

ـ نعم ، وتبشيرك الحار بتلك الفكرة القومية الآن ليس أيضا الا جانبا خاصا من جوانب غرورك . انك لا تستطيع أن تحب لا أمك ولا أخواتك ولا أخاك ، فكيف تحب فكرة من الأفكار ! .. انك لا يمكن أن تكون طيبا شهما مخلصا الا من قبيل الغرور .. غرورك هو القوة الكبرى التى تحركك . انه زادك الوحيد . انه الشيء الوحيد الذى تحبه أكثر من نفسك . الذى لا يعرفك يمكن بسهولة أن يخدع بنشاطك وبحماستك فى النقاش ، وباخلاص للمثل الأعلى القومى ، أو للعلم ، أو للشعر ، أو لأى هدف آخر رفيع فوق الفرد . لكنك لا تستطيع أن تخدم شيئا من الأشياء مدة طويلة ، ولا تستطيع أن تظل الى جانب شخص من الأشخاص مدة طويلة ، لأن غرورك لا يسمح لك بذلك .. فمتى أصبح الأمر لا يعنى غرورك ، غدا بالنسبة اليك غريبا بعيدا لا تريد أن ترفع فى سبيله اصبعك ولا تستطيع أن ترفع فى سبيله اصبعك. ولسوف تفضح نفسك بسبب غرورك ، فأنت ذاتك عبد لهذا الغرور . انك لا تعلم الى أى حد أنت مغرور . أما أنا فأعرفك على حقيقتك ، وأعرف وحدى أى شيطان من شياطين الغرور أنت .

لم يجب ستيكوفتش : فى أول الأمر أدهشته هذه الكلمات الواعية الجامحة من رفيقه الذى ظهر له فجأة بمظهر جديد وفى دو لم يكن يتوقعه منه ، ثم أخذت تلك الكلمات اللاذعة التى ينطق بها رفيقه بلهجة واحدة ، والتى جرحته فى أول الأمر وأثارته ، أخذت تلك الكلمات تبدو له شائقة حتى لتشبه أن تكون لذيذة ممتعة . لا شك أن بعض التعبيرات قد أصابت منه القلب وأوجعته ، ولكن الكلام فى مجموعه ـ أعنى هذا السير الحاد العميق لطبعه ـ قد تملقه وأرضاه بمعنى من المعانى . ذلك أن قولك لشاب من الشباب انه شيطان غرور انما يدغدغ زهوه بنفسه وحبه لذاته . ان ستيكوفتش ليتمنى حقا لو استمر جلاسنتشانين فى نبش كيانه

العميق هذا النبش الحانق : وفى تسليط هذا الضوء على شخصيته المختفية ، لأنه لا يجد فى هذا الا دليلا جديدا على ما يملك من مزايا فذة وعلى ما يتصف به من تفوق . وكانت نظرته الصلبة مستقرة على المسلة البيضاء التى برزت فى ضوء القمر على الحجر الأحمر .

كان يحدق فى تلك الكتابة التركية التى لا يفهمها تحديق من يقرأها ويحاول أن يجد فيها المعنى العميق لما قاله هذا الرفيق الخبيث الجالس الى جانبه قولا نافذا ذكيا .

ــ انك لا تكترث بشىء البتة . أنت فى حقيقة الأمر لا تحب ولا تكره ، لأن كلا الحب والكره يوجب على المرء أن يخرج من ذاته ، أن يضحى بذاته ، أن ينسى نفسه ، أن يتجاوز نفسه ، أن ينتصر على غروره . وذلك ما لا تستطيعه ، وما من شىء يمكن أن تفعله فى سبيله ولو استطعت . ان شقاء الآخرين لا يؤثر فيك فكيف يؤلمك ! وحتى بؤسك أنت ، لا شأن له عندك ، الا اذا كان يتملق غرورك !. لست حتى بالحسود ، لا لأنك طيب ، بل لأنك تجاوزت فى أنانيتك كل حد من الحدود ، فأنت لا تلاحظ سعادة غيرك ولا شقاءه . لا شىء يمكن أن يهز قلبك ولا أن يحركك . انك لا تتورع عن شىء ، لا لأنك شجاع ، بل لأن الغرائز الطيبة قد تجمدت فيك . الى جانب غرورك لا وجود عندك لا لروابط الدم ولا للعواطف الفطرية ، ولا لله ، ولا للعالم ، ولا للأسرة ، ولا للرفاق . انك لا تقدر حتى كفاءاتك الخاصة . انزعاج غرورك لا ألم ضميرك ــ هو الشىء الوحيد الذى يمكن أن يهزك ، لأن غرورك وحده ، دائما ، وفى كل أمر ، هو الذى ينطق بلسانك ويملى عليك أفعالك .

قال ستيكوفتش فجأة :

ــ أهذا الماع الى زوركا ؟

ــ فلنتحدث أيضا عن زوركا اذا شئت . نعم هذا الماع أيضا الى زوركا . انك لم تكن تحرص عليها أى حرص ، ولكن عجزك عن التعفف وعن التوقف أمام شىء ، عرض فى لحظة من اللحظات مصادفة ، وأثار غرورك .. وانك لتستولى على المعلمة المسكينة المضطربة الغرة ، كما تكتب مقالات وقصائد ، وكما تلقى خطبا ومحاضرات ، فما تكاد تفرغ منها حتى تثقل عليك ، وحتى يتثاءب غرورك ضجرا ، ويمضى باحثا بنظراته فى نهم وشراهة عن شىء أبعد . هذه هى اللعنة التى تلاحقك : انك لا تستطيع أن تتوقف فى أى مكان ، ولا أن تشبع فى يوم من الأيام ، ولا أن ترتوى . انك تخضع

كل شيء لغرورك ، لـكنك أول عبد لهذا الغرور ، وأول شهيد من شهدائه . لقد تفوز في المستقبل بأمجاد كثيرة وبنجاح كبير ، بنجاح أكبر كثـيرا من نجاحك على ضعف النساء اللواتي تخدعهن عن أنفسهن ، ولـكن ما من نجاح يمـكن أن يشفي غليلك في يوم من الأيام ، لأن غرورك يطمع دائما فيما هو أبعد منه ، لأن غرورك يبتلع دائما كل شيء ، حتى أكبر نجاح تصيبه ، فما يلبث أن ينساه .. ولـكنه يظل يتذكر الى الأبد كل اخفاق وكل أذى مهما يكن يسيرا هين الشأن. وحين ذلك سيتحطم من حولك كل شيء ، ويتهدم ، ويتطلخ ، وينذل ، ويتبعثر أو يفنى ، فستجد نفسك يومئذ وحيدا في تلك الصحراء ، وجها لوجه أمام غرورك ، عاجزا عن أن تقدم له أي شيء ، فلا يسعك عندئذ الا أن تلتهم ذاتك ، ولـكن ذلك لن يجديك شيئا ، لأن غرورك الذي اعتاد على ما هو أطيب من ذلك مذاقا ، سيزدريك طعاما وسيلفظك . هذه حقيقتك رغم أنك تظهر لأكثر الناس غير هذا ، ورغم أن رأيك في نفسك غير هذا الرأي . ولـكنني أعرفك .

وهنا صمت جلاسنتشانين فجأة .

اصبح المرء يشعر على الـكابيا ببرودة الليـل ، وكان السـكون المصحوب بهدير المـاء الذي لا ينقطع قد خيم . ان الرفيقين لم يلاحظا أن الموسيقى التي كانت تأتي من على الضفة قد صمتت . لقد نسيا كل النسيان أين هما هما وماذا يفعلان ، لأن كل واحد قد غرق في أفكاره ذلك الغرق الذي لا يعرفه الا الشبان . ان رجـل « الأمتار المكعبة » ، الغيور البائس ، قد تحدث في أمر طالما فـكر فيه تفـكيرا جامحا عميقا عنيفا ، دون أن يجد له ما يناسبه من الفاظ وتعابير . لـكنه في هذه المرة تحدث في انطلاق وتدفق ، وفي مرارة وحرارة . وأصغى اليه ستيكوفتش دون أن يتحرك ودون أن يرفع بصره عن المسلة البيضاء التي عليها كتابة تركية ، كأنما هو ينظر الى شاشة سينما . لقد سمع كل كلمة ، وأحس كل وخزة ، لـكنه لم يجد في كل مكان ما كان يقوله رفيقه شيئا مهينا ، ولم يجد فيه شيئا خطرا . بالعكس ، كان كلما سمع كلمة من كلمـات جلاسنتشـانين تراءى له انه يكبر ، وأنه يطير على أجنحة خفية دون ضوضاء ، بسرعة ، بجرأة ، بانفعال ، وأنه يحلق عاليا فوق البشر الملتصقين بالأرض ، وفـوق الروابط التي بينهم ، وفـوق القوانين التي تحكمهم ، والسعادة (أو بشيء يشبه السعادة) . انه يحلق

فوق كل شيء فما هذا الصوت الذي يسمعه ، وما هذه الكلمات التى يقولها خصمه ، الا هدير المياه ، الا ضوضاء العالم الذي لا يراه ، العالم الواطىء ، الشاوى فى مكان ما بالقاع تحته . ليس بعينه أن يعرف ما هو العالم ، وما الذي يفكر فيه ، وما الذي يقوله ، لأنه يحلق فوقه ، كمايحلق الطائر فوق منطقة من المناطق .

وحين صمت جلاستنشانين لحظة ، بدا أن الاثنين كليهما يصحوان. لم يجرؤ أحد منهما أن ينظر الى الآخر . وليس يعلم الا الله الى أى اتجاه كان يمكن أن تمضى هذه المشاجرة لولا أن ظهر على الجسر من ناحية الساحة ، بعض السكارى يغنون ألحانا متقطعة ويصيحون صيحات مدوية . كان صوت أحدهم (تينور) يغطى أصواتهم جميعا ، ويغنى أغنية قديمة بنبرة حادة وفى غير مسلسل :

يا فاطمة بنت عابد آغا
يا ذات النهى والجمال..

وعرف الرفيقان هؤلاء السكارى من أصواتهم ، فهم عدد من التجار الشباب وأبناء الأسر الغنية . كان بعضهم يسير سيرا مستقيما بطيئا ، وكان بعضهم الآخر يتأرجح فى سيره ويترنح . وكان واضحا من أماريحهم المدوية أنهم آتون من البيت المعروف باسم « تحت الحور » .

لقد نسينا خلال القصة السابقة ان نشير الى شيء جديد استحدث فى المدينة الصغيرة (لا شك انكم لاحظتم أنتم أيضا أن المرء ينسى بسهولة أن يذكر ما لا يحب ذكره) .

منذ خمسة عشر عاما ، حتى قبل البدء فى مد الخط الحديدى ، استقر فى فيشيجراد رجل وامرأته . أما الرجل فاسمه ترديك ، واما امرأته فاسمها يولكا . والمرأة تتكلم اللغة الصربية لأنها فى الأصل من بلدة نوفى ساد . وسرعان ما عرف هذا فى المدينة أنهما جاءاها بقصد تأسيس محل ليس له عند الشعب اسم . وقد فتحا هذا المحل فعلا عند طرف المدينة تحت أشجار الحور العالية التى تنبت فى قاعدة جبل سترايشته فى بيت قديم من بيوت البكوات غيرا معالمه تغييرا تاما .

ذلك هو المكان السيىء السمعة فى المدينة . ان نوافذه تظل طوال النهار مغلقة قد أسدلت ستائرها . حتى اذا جاء المساء لاح عند مدخله نور أبيض هو نور فانوس من فوانيس المناجم يظل مشتعلا طوال الليل ، وأخذت تدوى فى الطابق الأرضى منه أغنيات ، وأصوات

بانو ميكانسكى . ان شباب المدينة ورجالها الماجنين يتناقلون أسماء النساء الصبايا اللوانى جاء بهن ترديك ، واللواتى يعملن فى محله ، ولقد كن فى أول الأمر أربعا : ايرما ، ايلونا ، فريدا ، آرانكا .

وكان الناس فى كل يوم من أيام الجمعة يرون « بنات بولسكا » قد ركبن عربتين تمضيان بهن الى المستشفى للكشف الأسبوعى . كن يطلين وجوههن بأبيض وأحمر ، ويضعن على قبعاتهن أزهارا ، ويحملن شمسيات طويلة تتموج فيها أجنحة من الدنتيلا . فاذا مرت عرباتهن فى الطريق أخفت نساء المدينة بناتهن ، واشحن بوجوههن وهن يشعرن بعواطف يمتزج فيها الاشمئزاز بالعار بالشفقة .

وحين بدأت أعمال مد الخط الحديدى ، ووصل الى المدينة سيل جديد من المال والعمال ، ازداد عدد هاته النساء . وبنى ترديك الى جانب البيت التركى القديم منزلا جديدا ، وفقا لتصميم خاص ، وجعل لسقفه ستائر حمراء ترى من بعيد . ان فى المنزل الجديد ثلاثة أقسام : قاعة مشتركة ، وقاعة خاصة ، وقاعة للضباط . ولكل من هذه الأقسام الثلاثة سعره وزبائنه . وهناك ، « تحت الحور » ، على حد تعبير أهل المدينة ، كان يستطيع أبناء واحفاد أولئك الذين كانوا فى الماضى يشربون فى خمارة زاريا وفى فندق لوتيكا بعد ذلك ، كان يستطيع أبناؤهم وأحفادهم هؤلاء أن يتلفوا ما ورثوا من مال أو ما جنوا من مال . وهناك كانت تتردد الأمازيج انبذيئة وتقوم المنازعات الشهيرة والدراسات العاطفية ، ويندفع الرواد فى شرب محموم . والى هذا المكان يرجع عدد من المصائب الشخصية والعائلية التى عرفتها المدينة .

ان الشخص الرئيسى بين هذه الطائفة من السكارى الذين قضوا أو شطر من الليل « تحت الحور » وجاءوا الآن يترددون على الكابيا ، شاب يقال له بتسيكوزا ، وهو فتى أبله طيب كان أبناء الأغنياء يسقونه الخمر ليعبثوا به .

لقد توقف هؤلاء الشباب اللاهون على افريز الجسر قبل أن يصلوا الى الكابيا ، وكانت مشاجرات السكارى التى تدور بينهم تسمع أصواتها عالية مدوية . ان نيقولا يزعم أنه قادر أن يمشى فوق الافريز الحجرى حتى نهاية الجسر ، والرفاق يزعمون انه عاجز عن ذلك ، وتم الرهان أخيرا على زجاجتين من الخمر تدفعان له اذا استطاع ذلك حقا . فما ان تمت الصفقة على هذا النحو حتى اعتلى الشاب الافريز ، وأخذ يسير ، باسطا ذراعيه ، واضعا قدما أمام

أخرى على حذر كالسائر فى نومه ، فلما وصل الى الكابيا ، رأى الشابين المتأخرين ، فلم يقل لهما شيئا ، بل تابع طريقه الخطرة مدندنا مترنحا كما يدندن ويترنح سكير ، بينما رفاقه الفرحون يسيرون وراءه . ان ظله الكبير تحت ضوء القمر الضعيف يتراقص على طول الجسر ويتكسر فوق الافريز فى الجهة الثانية .

وانتقل السكارى الى صياح مجنون وملاحظات بلهاء ، فنهض الشابان وعادا الى بيتيهما دون تحية ، كل فى جهة .

غاب جلاسنتشانين فى الظلام على الضفة اليسرى من نهر درينا حيث يفضى به الطريق الى بيته الذى يقع فى أعلى جبل أوكولشته ، ومضي ستيكوفتش بخطى بطيئة فى الجهة الثانية المؤدية الى ساحة السوق . ان مشيته مترددة . انه لا يريد أن يترك هذا المكان الذى يفضل المدينة فى هذه الساعة ضياء وطراوة .

وما لبث أن وقف على افريز الجسر . ان به حاجة الى أن يقبض على شيء ، وأن يستند الى شيء .

كان القمر قد غاب وراء جبل فيد . واخذ الشاب يتأمل الظلال الكبيرة والأضواء القليلة بمدينته التى ولد فيها ، أخذ يتأمل ذلك كانه يراه أول مرة ، وهو مستند الى الافريز الحجرى عند طرف الجسر . انه مرهق حزين . وذكرته المشية الخطرة التى قام بها ذلك المجنون بتسيكوزا على الافريز ، ذكرته فجأة بطفولته الصغيرة ، حين كان ذاهبا الى المدرسة فى ذات يوم ، فرأى ، من خلال ضباب الخريف عند الصباح ، « الأعور » المربوع يتراقص على هذا الافريز نفسه . ان كل ذكرى من ذكريات طفولته تثير فى نفسه الأسى والحزن . وتبدد ذلك الشعور الذى أيقظته فيه كلمات جلاسنتشانين الحارة القاسية ، أعنى شعوره بما له من عظمة رائعة فاتنة ، وبأنه يحلق تحليقا شاملا فوق كل شيء وكل انسان . بدا له أنه ترك السموات العلى فجاة ، وأنه يزحف على الأرض المظلمة زحفا شاقا كسائر الناس . ومما يعذبه أيضا ذكرى ما وقع له مع المعلمة وكان ينبغى الا يقع (كأن شخصا آخر قد فعل ما فعل باسمه) ، وذكرى المقالة التي نشرها فى المجلة ، التى تبدو له الآن ضعيفة مليئة بالأخطاء (كأن شخصا قد كتبها عنه ونشرها بتوقيعه رغم ارادته) ، وذكرى الحديث الطويل الذى قام بينه وبين جلاسنتشانين ، والذى يبدو له الآن مليئا بالخبث والحقد ، زاخرا بالشتائم الجارحة والمخاطر الواقعية .

وهنا ارتعش ارتعاشة من داخله ومن البرودة الصاعدة اليه من النهر . ولم يلاحظ الا فى تلك اللحظة ، كأنما هو يستيقظ من نوم ، أن النافذتين فى النادى العسكرى قد اظلمتا . ان أواخر زبائن النادى يغادرونه . فمن الساحة المظلمة تسمع قعقعة أسياف طويلة ، ويسمع رنين كلام صخاب متكلف مصطنع . عندئذ فصل الفتى جسمه عن الجدار على مضض ، ونظر مرة اخرى الى النافذة المضاءة فى الفندق، وهى آخر نور من أنوار المدينة النائمة ، ثم اتجه بخطى بطيئة الى بيته القائم هناك فى أعلى ، بحى الميدان .

الفصل العشرون

النافذة الوحيدة من الفندق ، التى لا تزال مضاءة كآخر علامة من علامات الحياة بالمدينة فى تلك الليلة ، انما هى تلك الكوة الصغيرة فى الطابق الأول الذى تقع فيه غرفة لوتيكا . ان لوتيكا جالسة هذه الليلة فى غرفتها أمام منضدتها الصغيرة المزدحمة ، كما كانت تجلس دائما منذ بضعة وعشرين عاما حين كانت تدخل الى هذه الغرفة الصغيرة لتستريح لحظة من الذهاب والاياب وازدحام الفندق برواده . غير أن كل شىء فى هذه اللحظة هادىء مظلم .

لقد انسحبت لوتيكا الى غرفتها فى نحو الساعة العاشرة ، وتهيأت للنوم . وقبل أن تستلقى على فراشها مضت الى النافذة مرة أخرى تستنشق الهواء الطرى المتصاعد من النهر ، والقت نظرة على القنطرة الأخيرة من الجسر ينيرها القمر بضوء ضعيف ، وهو المشهد الوحيد الذى تطل عليه من نافذتها ولا يتغير . فتذكرت عندئذ حسابا قديما ، فجلست الى منضدتها تبحث عنه . لكنها ما ان بدأت تقلب ايصالاتها حتى غرقت فى عملها ، ونسيت الزمن ، ونسيت حاجتها الى النوم فظلت جالسة الى منضدتها قرابة ساعتين .

لقد انتصف الليل منذ مدة طويلة ، لكن لوتيكا فقدت النعاس فهى تصف ارقامها واحدا بعد آخر ، وتقلب أوراقها واحدة بعد أخرى .

ان لوتيكا متعبة . انها ، أثناء النهار ، فيما تجريه من أحاديث وما تقوم به من أعمال ، لا تزال نشيطة خفيفة طلقة اللسان ، حتى اذا جاء الليل ، وخلت الى نفسها ، احست بوطأة السنين ، وشعرت بالتعب . لقد دب اليها الهرم . ومن جمالها الماضى لم تبق الا آثار دراسة . هى الآن نحيلة ، شاحبة ، وشعرها لا بريق فيه ، قد ابيض عند عمة الرأس . واسنانها التى كان ناصعة صلبة كأنها

البرد ، قد اصفرت وأصبح يتخللهـــا فراغ . وفى نظرة عينيها السوداوين ، اللتين ما تزالان تلتمتعان ، قسوة .. وحزن فى بعض الاحيان .

ان لوتيـــكا متعبة . لكن تعبها الآن ليس ذلك التعب المبارك العذب الذى كانت تشعر به فى الماضى بعد نشاط جم وربح كبير ، والذى كان يدفعها فى المـــاضى الى أن تلتمس فى هذه الغرفة نفسها شيئا من الراحة والاســـتجمام . لقـــد وافت الشيخوخة ، وجاءت الأيام الصعبة .

انهـــا تحس فى كل خطوة تخطوها ان هذا الزمان قد جن جنونه ، على الأقل عند من لا يبتغى الا الربح والا ان يوفر لأسرته رغدها .. انها تحس ذلك دون أن تستطيع التعبير عنه بألفـــاظ ، ودون أن تستطيع تعليله لنفسها . حين وصلت الى البوسنة منذ ثلاثين عاما ، واخذت تعمل ، كانت الحياة تبدو لها كتلة واحدة ، فجميع الناس كانوا يسيرون فى الاتجاه الذى سارت فيه ، وهو العمل مع الأسرة ؛ وكل فرد كان يحتل مكانه ، وكان ثمة مكان لـــكل فرد ، وكان هناك فوق كل شيء ، نظام وقانون ، نظام محكم وقانون صارم . هكذا كان يبدو العالم للوتيـــكا . أما الآن فقد بدل كل شيء مكانه ، وانقلبت الأمور عاليها سافلها ، الناس فى نظرها ينقسمون وينفصل بعضهم عن بعض على غـــير قاعـــدة ودون ما سبب . وقـــانون الربح والخسارة ، هذا القانون الرائع الذى تحكم بأفعال الناس دائما ، أصبح لا يصدق الآن ، لأن كثيرا من الناس يفعلون ويقولون أشياء لا ترى لها لوتيـــكا هدفا ولا اتجاها ، ولا يمكن أن يخرج لهم منها الا الشقاء والخسران . ان الحياة تتفتت وتتحلل . وكأن الجيل الجديد يهتم بنظرته الى الحياة أكثر من اهتمامه بالحياة نفسـها . هذا أمر يبـــدو للوتيـــكا غير معقول ، ولا يمـــكن أن يفهم ، لـــكنه واقع . ومن اجل هذا تفقد الحياة قيمتها وتتبعثر كلها فى كلام . ان لوتيـــكا ترى هذا رؤية واضحة وتحسه فى كل خطوة .

والأعمال التى كانت تتحرك أمام عينيها كقطيع خرفان فرحة ، ترقد الآن ثقيلة ساكنة كهذه الحجارة الـــكبيرة فى مقابر اليهود . هذه عشر سنين لم يعمل الفندق خلالهـــا الا قليلا . لقـــد اجتثت الغابة فيما حول المدينة ، وأصبحت ضربات الفئوس تبتعد ثم تبتعد، ويبتعد معها خير زبائن الفندق واضخم جزء من أرباحه . وترديك ، هذا الرجل الفظ الغليظ الوقح الذى لا يعرف الخجل ولا الحياء ،

قد فتح « منزله » تحت شجرات الحور ، واجتذب كثيرا من زبائن لوتيكا ، لأنه يقدم لهم فورا وبسهولة ما لم يكن فى وسعهم أن يحصلوا عليه فى فندقها بأى ثمن من الأثمان . لقد طالما ثارت لوتيكا على هذه المنافسة المخجلة غير المشروعة . فكانت تردد قائلة : جاء الزمان الأخير ، الزمان الذى ليس فيه نظام ولا قانون ، ولا يستطيع فيه المرء أن يكسب رزقه كسبا شريفا .

وفى ذات مرة ــ كان ذلك فى البداية ــ وصفت ترديك ، من فرط ما كانت تشعر به من مرارة ، وصفته بقولها : هذا قواد . فشكاها ترديك الى القضاء ، فحكم عليها القضاء بتهمة التشهير ، واضطرها الى دفع غرامة . وهى لا تزال ترفض أن تسميه بغير هذا الاسم ، لكنها الآن لا تطلق العنان للسانها أمام أى شخص من الأشخاص .

والنادى العسكرى الجديد له مطعمه ، وله كهفه الذى يضم طيب الخمر ، وله حجراته التى ينزل فيها عيون الزوار . وجوستاف ، جوستاف الصموت المنزوى ، ولكن الحاذق الأمين ، قد ترك فندق لوتيكا بعد كل ذلك العدد الكبير من السنين ، ليفتح مقهى لنفسه فى مركز المدينة ، فى أحسن موضع تجارى بمركز المدينة ، فاذا هو الآن منافس لدود بعد أن كان معاونا أمينا . وجمعيات الغناء وقاعات المطالعة المختلفة التى أقيمت بالمدينة فى هذه السنين الأخيرة كما رأينا ، لها مقاهيها التى تجتذب عددا من الزبائن .

انك لا ترى الآن فى القاعة الكبرى من الفندق ما كنت تراه فيها فى الماضى من حركة ونشاط . واقل من ذلك ايضا ما تراه فى القاعة الخاصة : موظف من الموظفين العازبين يتناول طعام غدائه ، وبعض الناس يقرأون الجرائد ويشربون القهوة . وبعد الظهر من كل يوم ، يمر بالفندق على بك باشتش ، الرجل الصموت الذى كان للوتيكا فى شبابها الصديق الحميم . انه لا يزال على ما عهد فيه من قصد واعتدال وتحفظ فى كلماته وفى حركاته . انه رجل منظم محتشم يعنى بهندامه لكنه قد ثقل الآن وابيض شعره . وهو بسبب داء السكر الذى أصابه منذ سنين ، يشرب القهوة بالسكرين . انه يدخن فى هدوء ، ويصغى الى أحاديث لوتيكا صامتا على عادته . حتى اذا جاء موعد انصرافه نهض هادئا صامتا أيضا ، ومضى الى بيته فى تسرنشتا .

ان جار لوتيــكا الثرى ريتشارد بافلى رانكوفتش ، يجىء الى الفندق كل يوم ايضا . لقد هجر الزى الوطنى منذ مدة طويلة . واصبح يرتدى الملابس المحــكمة التى يرتديها ســكان المدن ، ولم يحتفظ من القديم الا بالطربوش الأحمر المسطح . انه يلبس دائما قميصا ذا صدر منشى وياقة صلبة وكمين مدورين يسجل عليهما ارقاما وحسابات موقتة فى بعض الأحيان . لقد استطاع هذا الرجل أن يحتل المنزلة الأولى فى عالم التجارة بفيشيجراد منذ مدة طويلة . فمركزه الآن راسخ قوى ، لــكن حياته لا تخلو من بعض الصعوبات وقلبه لا يخلو من بعض الهموم .

انه كسائر الرجال المسنين الذين ينعمون بشىء من اليسار ، قد حيرته هذه الأزمنة الجديدة بما يتدفق فيهــا من أفــكار جــديدة صخابة ، وبما يرى عليها من طرز جديدة فى الحياة والتفكير والتعبير . ان كل شىء فى رأيه قد صار الى « سياسة » . وهذه السياسة هى بعينها ما يصدع راسه ويثير غيظه ، وهى بعينها ما يفسد عليه فترة من حياته كان ينبغى أن تكون فترة هدوء ورضى بعد ذلك العدد الــكبير كله من السنين التى قضاها فى عمل وتوفير وحرمان . انه لا يريد ابدا أن ينفصل وأن ينشق عن أكثرية مواطنيه ، لــكنه فى الوقت نفســه لا يريد أن يدخل فى نزاع مع الســلطات ، بل يجب أن يعيش معها فى سلام دائم ، ولو حفاظا على الشكل . ولكن ذلك أمر صعب يكاد يستحيل تحقيقه . انه حتى مع ابنائه لا يستطيع أن يتفاهم كما ينبغى التفاهم .

ان ابناءه يحيرونه ولا يستطيع ان يفهمهم ، شــأنهم فى ذلك شأن سائر الشباب (ومع ذلك نرى كثيراً من المسنين يتبعون الشباب لحاجة او ضعف) . انه يرى أن هؤلاء الشباب هم بسلوكهم ومواقفهم وجميع أعمالهم أناس عصاة ، فكأنهم يعتقدون بأن الحياة والموت فى ظل الحالة الراهنة غير جائزين ، وأن من الأفضل للمرء أن يعيش حياة العصابات فى الجبال . ان هذه الشبيبة لا تعى ما تقول من كلام ، ولا تنظر الى ما تقوم به من أفعال ، ولا تحسب كم تنفق من مال ، ولا تنصرف الى أعمالها الخاصة .. انها تأكل خبزها دون أن تتساءل من أين يأتيها هذا الخبز ، وتتكلم وتتكلم وتتكلم ، و « تنبح على النجوم » ، على حد تعبيره فى مشاجراته مع أبناءه .

هذه الآراء التى يجيئون بها الى غير نهاية ، وهذه الطريقة فى الــكلام بعد الكلام على غير قصد واعتــدال ، وهــذه الحيــــاة التى

يعيشونها بلا حساب ، متمردين على الحساب ، هذا كله يثير حنقه وييئسه هو الذى عاش حياته كلها يحسب ويخضع نفسه للحساب .

انه حين يصغى اليهم وحين ينظر اليهم يحس بخوف يستبد به ؛ ويتراءى له أنهم يمسون فى طيش وخفة ، أسس الحياة وأعز واقدس شىء عنده . فاذا سألهم شروحا تقنعه وتهدئه لم يزيدوا على أن يجيبوه فى احتقار واستعلاء ، بكلمات ضخمة : الحرية ، المستقبل ؛ التاريخ ، العلم ، المجد ، العظمة ، وهى كلمات مجردة اذا سمعها سرت فى جسمه قشعريرة .

وهو فى مقابل ذلك يحب أن يجلس لحظة وأن يشرب القهوة مع لوتيكا التى يستطيع المرء أن يتحدث اليها فى الأعمال وفى الحوادث معتمدا على الأرقام الموثوقة التى يقبلها جميع الناس ، بعيدا عن « السياسة » وعن الألفاظ الضخمة التى لا تفسر شيئا ولا تقول شيئا . انه حين يتكلم يمسك بقلمه الصغير فى أكثر الأحيان (ليس هو ذلك القلم نفسه الذى كان يحمله منذ خمسة وعشرين عاما ؛ بل هو قلم آخر يبلغ من الصغر انه لا يكاد يرى ، قلم ملتمع كالقلم القديم) : فهو يمتحن كل ما يقال من كلام بذلك المحك الصادق لا يخطىء ولا يأتيه الباطل ، الا وهو الأرقام .

ان يافلى ولوتيكا يوقظان فى أحاديثهما ذكريات مغامرات ماضية او مزجات قديمة مات أكثر أصحابها ، حتى اذا فرغا من الحديث ؛ نهض يافلى مقوس الظهر مهموم البال ، واجتاز الشارع متجها الى حانوته الذى يقع فى ساحة السوق ، وظلت لوتيكا وحيدة مع همومها وحساباتها .

ولم تكن الأعمال الجارية التى تقوم بها لوتيكا أحسن حالا من اعمال فندقها . كان المرء خلال السنين الأولى من الاحتلال يشترى أسهم أى مشروع من المشاريع ، مطمئنا الى أنه وضع المال فى محله ، فما يشغله بعد ذلك الا مقدار الربح الذى يجنيه من هذه الأسهم . لكن لوتيكا كانت فى تلك الفترة الأولى قد فتحت فندقها منذ مدة قصيرة ، فلم تكن تملك أيامئذ مقدارا كافيا من الأموال المنقولة ، ولم يكن لها الاعتماد التى حصلت عليه فيما بعد . حتى اذا ملكت المال والاعتماد ، كانت حالة الأسواق قد تبدلت . ان ازمة من أكبر الأمات كانت قد أصابت المملكة النمسوية المجرية فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين . وأخذت أوراق لوتيكا تتراقص تراقص الغبار فى مهب الريح . فكانت لوتيكا

تذرف الدموع من شدة الحنق وهي تقرأ الأسعار الأخيرة التي وصلت اليها الأوراق المالية ، في « جريدة فيينا » كل اسبوع . ان جميع ارباح الفندق ، الذي كان ايامئذ يدر ارباحا طيبة ، لا تـكفي لسد الخسارة الناجمة عن سقوط أسعار جميع السندات عامة . وأصيبت لوتيـكا في تلك الفترة بانهيار عصبي قوي لازمها سنتين كاملتين . كانت في أثناء ذلك كالمجنونة من فرط الألم .. تتحدث الى الناس دون أن تصغي الى ما يقولون ودون أن تفكر فيما تقوله هي نفسها .. وتنظر في وجوههم ولكنها لا تراهم ، وانما ترى في مكان الوجوه تلك الزوايا الصغيرة من « جريدة فيينا » التي تحمل اليها انباء السعادة أو أنباء الشقاء . وأخذت عندئذ تشتري أوراق اليانصيب .. فما دام كل شيء مقامرة فلتمض في المقـامرة الى النهـــاية . اصبحت تشتري جميع أوراق اليانصيب الصادرة في جميع البلاد . واستطاعت أن تحصل لنفسها على ربع ورقة من أوراق اليانصيب الاسباني (يانصيب عيد الميلاد) الذي تبلغ جائزته الأولى ١٥ مليون بيزتا . فكانت ترتعش اضطرابا عند كل سحب ، وتبكي وهي تقرأ قوائم الأرقام الرابحة . وكانت تدعو الله في صلواتهـــا أن تتحقق المعجزة فتفوز بالجائزة الأولى . ولكن ذلك لم يتحقق لها .

وكان تسالر ، زوج أختها ، قد اشترك قبل ذلك بسبع سنين ، مع اثنين من الأغنياء المتقـــاعدين ، في تأسيس الشركة التعاونية الحديثة لصناعة الألبان . فساهمت لوتيـكا في هذا المشروع بثلاثة أخماس نفقات التأسيس . وكان الشركاء قد عقدوا على المشروع آمالا كبارا وقدروا أن النجاح الأول الذي لابد أن يصيبه سيجتذب اليه الرأسماليين من خارج المدينة بل ومن خارج البوسنة كلها . لـكن ازمة الالحاق قامت في تلك اللحظة نفسها التي كان المشروع يجتاز فيها مرحلته الانتقالية الحرجة . فزال كل أمل في اجتذاب رءوس أموال جديدة . وبلغت هذه المناطق الواقعة على الحـدود من قلة الثقة بها والركون اليهـا أن رءوس الأموال التي سبق أو وظفت في المشروع أخذت تهرب منه . وصفيت الشركة بعد سنتين ، فكانت خسـارتها الصافية كل رأس المال الذي رصد لها . واضطرب لوتيكا من اجـل تغطية العجز أن تبيع احسن وأضمن ما تملك من أوراق مالية ، كأسهم « مصانع الابرة » بسارايفو ، وأسهم شركة « سولفي لصنع الصودا » في توزلا .

وعدا هذه المصائب وقمت للوتيـكا هموم وأحزان عائلية كأنهـا

مرتبطة بتلك المصائب . صحيح ان احدى بنات تسالر ، وهى ايرين ، قد فازت بزواج لم يكن مأمولا (وقد دفعت لوتيكا البائنة) ، لكن ابنته الكبرى ، مينا ، قد بارت . كان حظها مع من خطبوها سيئا . وأحزنها زواج اختها الصغرى فاذا هى تتحول قبل الأوان الى عانس شرسة الطبع مرة تجعل الحياة فى البيت وتجعل العمل فى الفندق أشد مشقة وأصعب احتمالا . وتسالر الذى لم يكن فى يوم من الأيام نشيطا خفيفا قد ازداد الآن ثقله وتردده ، وأصبح يعيش فى البيت كضيف طيب اخرس . ودوبورا رغم انها تقدمت فى السن ورغم أنها كانت عليلة الجسم ، قد ولدت صبيا ، غير أن الطفل أشوه لا ينمو . انه الآن فى السادسة من عمره ، وهو مع ذلك لا يتكلم ولا يستطيع ان يقف على ساقيه . انه يصدر أصواتا غامضة ويزحف فى البيت على اربع . غير أن هذا المخلوق الشقى كان من الطيبة ومن شدة ما يثير فى القلب من عاطفة الحنان والشفقة ،و كان يهش لخالته التى يحبها أكثر مما يحب أمه ، ويتسلق عليها بيد تبلغ من التشنج أن لوتيكا ، رغم همومها ورغم عملها ، كانت تتولى بنفسها العناية به ، وتطعمه وتنظفه . وكان قلبها ينقبض أشد الانقباض لرؤية هذا الطفل الأشوه كل يوم ، حين تتذكر أن سير أعمالها لا يتحسن ، وانه لم يبق معها من المال مايهيىء لها أن ترسل الصبى الى مستشفى من المستشفيات فى فيينا ليعالجه كبار الأطباء ، وحين تتذكر أن المعجزات لا وجود لها ، وان المشلولين لا تشفيهم ارادة الله جزاء أعمال خيرة ، أو استجابة لأدعية البشر .

وأهل جاليسيا الذين كانت لوتيكا تحميهم ، الذين دفعت لوتيكا نفقات دراستهم أو زوجتهم فى أيام الرخاء ، يسببون لها الآن كثيرا من الهموم ، ويخيبون ظنها فى كثير من الأحيان . ان بعضهم قد اقام أسرة ، ووسع آماله ، وحصل بعض الثراء . وكانت لوتيكا تتلقى منهم دائما التهانى والرسائل المليئة بالاحترام والشكر، كما تتلقى انباء أسرهم بغير انقطاع . غير ان هؤلاء الأفراد من أسرة آبلفلماير الذين أقالتهم من عثراتهم ، أو أنفقت على دراساتهم ، أو كفلت لهم أسباب الاستقرار ، كانوا لايساعدون الأقرباء المعوزين الجدد الذين يولدون ويكبرون فى جاليسيا ، فانهم وهم يعيشون فى مدن اجنبية ، لا يهتمون الا بانفسهم وباولادهم ، حتى لكأن الجزء الأكبر من نجاحهم انما كان مرده الى أنهم ينسون الى الأبد، أكبر نسيان ممكن وبأقصى سرعة ممكنة ، تارنوفو وميطها الضيق

البائس الذى نشأوا فيه ثم أسعفهم الحظ فخرجوا منه . وطبيعى ان لوتيكا أصبحت لا تستطيع أن تستغنى عن بعض المال تنجد به مساكين تارنوفو كما كانت تفعل فى الماضى . فكانت لوتيكا لا ترقد فى فراشها مرة ولا تنهض من نومها مرة الا وتراودها هذه الفكرة الأليمة ، وهى ان أحد ذويها فى تارنوفو يغوص فى الجهل والشقاء الى الأبد ، يغوص فى البؤس المعير الذى تعرفه حق المعرفة ، والذى ظلت تحاربه طوال حياتها .

وان عددا لمن هيأت لهم أسباب الاستقرار قد سببوا لها كثيرا من الحزن والألم . وخير هؤلاء الذين هيأت لهم أسباب الاستقرار هم الذين ضلوا الطريق أو زلت بهم القدم بعد ان حققوا والى خطوات نجاحهم وبعثوا فى النفس أطيب الآمال . فهذه احدى بنات أخواتها ، وهى موسيقية موهوبة استطاعت بتشجيع لوتيكا وبمساعدتها أن تتم دراساتها فى كونسرفاتوار فيينا ، قد انتحرت بالسم منذ بضع سنين وهى فى أوج نجاحها الأول . ولم يعرف أحد لماذا انتحرت .

وهذا البرت ، أحد ابناء اخوتها ، وهو أمل الأسرة وفخر لوتيكا ، ينجح فى دراسته فى المدرسة الثانوية أولا وفى الجامعة بعد ذلك نجاحا باهرا ، ولكنه لا يفوز بشهادة ملكية ولا بوسام امبراطورى ، كما كانت تأمل لوتيكا سرا ، وذلك لأنه يهودى. ولقد كانت لوتيكا تتصور أن يصبح على الأقل محاميا شهيرا فى فيينا أو فى لفوف مادام لا يستطيع لكونه يهوديا أن يحقق خير ما تطمع له فيه وهو أن يصبح موظفا كبيرا ، ولكن الفتى أصابها بخيبة ممضة . ان هذا الدكتور فى الحقوق عمل صحفيا ، وأصبح عضوا فى الحزب الاشتراكى ، بل أصبح فوق ذلك فى الجناح المتطرف من هذا الحزب ، الجناح الذى تحدثت عنه الصحف بمناسبة الاضراب العام فى فيينا سنة ١٩٠٦ . وقرأت لوتيكا بأم عينها فى صحف فيينا بمناسبة حركة التطهير التى أبعدت عن العاصمة العناصر الأجنبية والهدامة ، ان الدكتور البرت آبفلماير ، المحرض اليهودى الشهير ، قد طرد من البلاد بعد أن عوقب بالسجن عشرين يوما . وكان معنى هذا فى لغة أهل فيشيجراد انه أصبح « حيدوقا » . وبعد بضعة أشهر تلقت لوتيكا من عزيزها البرت رسالة من بونس آيرس يقول لها فيها انه هاجر الى هناك .

كانت لوتيكا فى تلك الأيام الشقية لا تجد فى غرفتها الخاصة

الصغيرة شيئا من الهدوء ، فها هي ذي تحمل الرسالة بيدها وتمضي الى اختها وزوج اختها ، فترتمي محطمة طائشة الصواب على راس دوبورا التى لا تعرف الا أن تبكي ، وتأخذ تقول حانقة : ما الذى ستؤول اليه ؟ قولى ، ما الذى ستؤول اليه اذا كان لايعرف احد كيف ينهض على قدميه ويسير وحده بل يسقط متى لم تسنديه من ذراعيه ؟ ما الذى سيحل بنا ؟ نحن اناس تلاحقنا اللعنة .. هذا كل ما فى الأمر .

ان دوبورا المسكينة تتنهد قائلة : « يارب يارب يارب » ، وتسكب دموعا غزيرة ، ولا تستطيع طبعا أن تجيب على سؤال لوتيكا . ولوتيكا نفسها لا تجد جوابا ، بل تضم يديها وترفع عينيها الى السماء لا دامعتين مذعورتين كعينى دوبورا ، بل حانقتين مغتاظتين :

ــ أصبح اشتراكيا .. اش .. ـتـ .. ـرا .. كيا .. الا يكفينا اننا يهود ؟ انحن فى حاجة الى هذا ايضا ؟ يارب يا واحد يا أحد ، ماذا صنعت حتى تعاقبنى هذا العقاب ؟ اشتراكى .. هه ..

وانتحبت لوتيكا على البرت انتحابها على ميت ، ثم لم تتحدث عنه بعد ذلك .

وبعد ثلاث سنين تزوجت احدى بنات اخواتها ، وهى أخت البرت هذا نفسه ، تزوجت زواجا موفقا جدا . فتولت لوتيكا أمر تجهيز الفتاة ، ولعبت أكبر دور فى الأزمة الروحية التى أثارها هذا الزوج فى أسرة آبفلماير الكبيرة بتارنوفو ، هذه الأسرة التى كان ثراؤها الوحيد هو أبناءها وتقاليدهم الدينية التى لم تتلطخ فى يوم من الأيام . ان الرجل الذى كان على الفتاة أن تتزوجه رجل غنى من تجار البورصة ، لكنه كان مسيحيا كالفينيا ، وقد اشترط للزواج أن تدخل العروس فى دينه ، فعارض الأبوان فى هذا ، ولكن لوتيكا التى لم تكن تعنيها الا مصلحة الأسرة كانت تقول ان من المستحيل على المرء أن يبحر فى الخضم دون أن يتحرف اى انحراف ، ودون أن يجارى تيارات الرياح اى مجاراة ، مادامت السفينة تحمل كل هؤلاء الركاب ، وان سلامة المجموع تقضى برمى جزء من حمولة البضائع فى البحر . لقد ايدت لوتيكا الفتاة ، فكانت كلماتها هى القول الفصل . فتنصرت الفتاة وتزوجت . وكانت لوتيكا تأمل أن تستطيع بمساعدة هذا الصهر ، أن تدخل الى عالم

الأعمال فى بيست واحدا على الأقل من ابناء اخوتها الذين شبوا عن الطوق . ولكن شاء الحظ ان يموت الصهر الفنى منذ السنة الأولى من الزواج . فاذا بعقل الزوجة الشابة يضطرب من شدة الحزن . وانقضت الأشهر بعد الأشهر دون ان تبل الزوجة مما أصابها من انصعاق . وها هى ذى سنون اربعة تمر ، والأرملة الشابة لا تزال تقطن فى بيست ، مستسلمة لحزنها المرضى الذى ليس الا جنونا خفيفا . انها تذهب الى المقبرة كل يوم ، فتجلس قرب قبر روجها وتأخذ تقرا له قائمة أسعار البورصة فى ذلك اليوم قراءة متأنية أمينة . فاذا حاول أحد ان ينتزعها من هذه العادة وأن يخرجها من هذا الخمول الذى هوت اليه ، أجابته فى رفق وهدوء بأن المرحوم كان يحب هذا أكثر من اى شىء آخر ، وان هذه اعذب موسيقى عرفها فى حياته .

هكذا تجمعت مصائر مختلفة فى هذه الفرفة الصغيرة التى تأوى اليها لوتيكا . وقد شطبت لوتيكا من دفاترها الكثيرة المتنوعة حسابات كثيرة ، وديونا كثيرة ، وأرقاما كثيرة ، لكن مبدأ العمل لايزال على حاله الماضية . ان لوتيكا متعبة ، لكنها لم تفقد همتها وشجاعتها . انها بعد كل خسارة وبعد كل اخفاق ، تستجمع قواها ، وتكز أسنانها ، وتمضى تستمر فى الكفاح . كان كل عملها فى السنين الأخيرة دفاعا ، لكنها كانت تخوض معركة الدفاع ، وأمام بصرها ذلك الهدف نفسه الذى كانت تستهدفه فى الماضى ، وكانت تخوض معركة الدفاع بعناد لا يختلف عن عنادها الذى به اغتنت وارتفعت . انها فى فندقها رجل البيت ، وهى عند المدينة كلها « العمة لوتيكا » ، ولايزال فى المدينة وفى العالم أناس ينتظرون مساعدتها ونصائحها ، أو ينتظرون منها كلمة طيبة على الأقل ، ولا يخطر ببالهم أن لوتيكا قد تكون متعبة . ولكنها متعبة حقا : متعبة أكثر مما قد يظن الناس ، ومتعبة أكثر مما تعى هى نفسها .

ان الساعة الخشبية المعلقة بالجدار تدق الواحدة . فتنهض لوتيكا فى عناء وهى تمسك بكليتيها . وتمضى الى المصباح الأخضر الكبير الموضوع على المنضدة الصغيرة العالية ، فتطفئه فى عناية ، ثم تسير الى سريرها بخطى صغيرة ، خطى امرأة عجوز طعنت فى السن ، خطى تسير بها حين تكون وحيدة فى غرفتها قبيل النوم .

ورقدت لوتيكا فى فراشها .

وكان ظلام دامس حالك يغمر المدينة النائمة .

الفصل الحادى والعشرون

وجاء عام ١٩١٤ هو ايضا ، انه آخر عام من تاريخ الجسر الذى على نهر درينا . جاء هـذا العام كما جاءت قبله جميع الأعوام السابقة تتهادى بطيئة كأمور هذه الحياة الدنيـا ، لـكنها زاخرة بالصخب الأصم ، صخب الأحداث التى تتعاقب وتتحطم معربدة كالأمواج ، جديدة دائما ، فريدة دائما .

لقد انقضت على المدينــــة التى قرب الجسر أعوام كثيرة ، وستنقضى عليها أعوام كثيرة أخرى .. أعوام من كل نوع .. ولكن عام ١٩١٤ سيظل متميزا عن سائر الأعوام ، أو هذا هو على الأقل شعور أولئك الذين عاشوه . ان هؤلاء يعتقدون ، رغم كل ما قيل عن ذلك العام وكل ما كتب عنه ، ان احدا لن يستطيع أو لن يجرؤ أن يعبر عن كل ما رآه أثنـاء ذلك العام فى قرارة القـدر الانسانى مما يخبئه الزمان وتخبئه الأحداث . من ذا الذى يستطيع ان يصور (هذا هو رأيهم على الأقل) تلك الارتعاشـات الجماعية التى هزت الـكتل البشرية دفعة واحدة ، ثم انتقلت من الكائنات الحية الى الأشياء الجامدة والى البلاد والأبنية ؟ كيف السبيل الى وصف الاضطرابات الجماعية التى تتراوح بين ذلك الخوف الأخرس الحيوانى وبين جنون الانتحار ، بين أحط الغرائز الدموية والنهب المستتر وبين أنبل وأقدس التضحيات التى يتجاوز فيها الانسان نفسه ، ويصل بها خلال لحظة من اللحظات الى آفاق عالية فى عوالم ثانية تحكمها قوانين أخرى ؟ هذه الأمور لن يمكن أن تقال فى يوم من الأيام ، لأن الذى رآها وبقى على قيد الحياة قد فقد القـدرة على الـكلام ، ولأن الذين ماتوا لايستطيعون أن يتكلموا . هـذه أشياء لا يمكن أن تقال .. ولـكن يمكن أن تنسى .. ولولا أنهـا تنسى ، اكان يمكن أن تتكرر ؟

فى ذلك الصيف من عام ١٩١٤ ، حين استطاع سادة المصـائر البشرية أن يسيروا بالانسانية الأوروبية من مسرح حق الاقتـراع

العام الى ميدان الخدمة العسكرية الاجبارية الذى مهدوا له ، كانت مدينة فيشيجراد مثلا متواضعا ، ولكنه بليغ ، على أعراض ذلك الداء الذى أصبح بمضى الزمن أوروبيا ، ثم عالميا عاما شاملا .

كانت تلك الفترة من الزمان تقع على الحدود بين عصرين من تاريخ الانسانية ، وكان الناس يرون نهاية العصر الذى ينتهى رؤية أوضح كثيرا من رؤيتهم لبداية العصر الذى يبدأ . كان الناس فى ذلك الزمان لايزالون يبحثون عن مبرر للعنف ، وكانوا يجدون لأعمال الوحشية اسما من الأسماء يستعيرونه من التراث الروحى الذى خلفته القرون الماضية . كل ما كان يقع ، كان لايزال يحتفظ بمظهر الرفعة ويتصف بجاذبية الجدة ، هذه الجاذبية الرهيبة ، الزائلة ، التى يعجز اللسان عن وصفها ، هذه الجاذبية التى بلغت من الزوال فيما بعد أن أولئك الذين احسوا بها يومئذ احساسا قويا أصبحوا هم انفسهم لا يستطيعون أن يتذكروها بخيالهم .

على أن هذه أمور نذكرها نحن الآن عرضا ، وسيجىء شعراء العصور المقبلة وعلماؤها فيدرسونها ويؤولونها ويبعثونها بوسائل ومناهج لا تخطر ببالنا الآن ، يفعلون ذلك كله بهدوء وحرية وجرأة فكرية فوق الذى نملكه نحن من كل هذا . ولعلهم يستطيعون عندئذ أن يعللوا تلك السنة الفريدة ، وأن يضعوها فى مكانها من تاريخ العالم وتطور الانسانية . أما فى هذا الكتاب فهى عندنا أولا وقبل كل شىء ، السنة الحاسمة فى تاريخ جسر نهر درينا .

ان صيف عام ١٩١٤ سيظل فى ذاكرة أولئك الذين عاشوه هنا أسطع صيف وأجمل صيف يتذكرونه ، لأنه فى ضمائرهم يتلألأ ويتوهج وسط أفق ضخم مظلم من الآلام وضروب الشقاء التى تمتد على مدى البصر .

لقد بدأ ذلك الصيف بداية حسنة ، بداية أحسن من بدايات كثير من الأعوام التى سبقته . محصول الخوخ وافر لم يعرف مثله منذ سنين ، وحقول الحبوب تبشر بحصاد غزير . ان الناس بعد أن قضوا زهاء عشر سنوات فى انتفاضات وهزات ، يأملون الآن ، دون أن يعرفوا لماذا ، أن يعيشوا فترة من الهدوء ، وأن تعوضهم هذه السنة الطيبة فى جميع الميادين عما أصابهم فى السنوات الماضية من خسائر وعما كابدوه من أحزان . لا شك ان ادعى جميع أنواع الضعف الانسانى الى الأسف وأبعثها على الفواجع أن الانسان عاجز تماما عن التنبؤ ، وهو عجز يتناقض تناقضا حادا مع ما أوتى

الانسان من مواهب ، وما ملك من معارف ، وما أتقن من فنون .

انه يتفق فى بعض الأحيان أن يأتى عام نادر كهذا العام ، تتعاون فيه حرارة الشمس ورطوبة الأرض أحسن تعاون ، فاذا بوادى فيشيجراد الواسع تنبض فيه قوة طافحة وحاجة عامة الى الاخصاب ، فالأرض تنتفخ وكل ما يضمه باطن الأرض من بذور حية يخرج الى ظاهرها براعم وأوراقا وأزهارا ، مضاعفا مائة مرة . ان المرء يحس بارتعاشات أنسام الخصب بخارا دافئا ضاربا الى زرقة ، يتصاعد من كل أخدود ومن كل مدرة . والبقر والماعز يسير مباعدا قوائمه الخلفية ، وقد احتقنت أثداؤه وتورمت فأصبح يمشى مشية ثقيلة . وأسماك النهر التى تنزل فى بداية الصيف من كل عام افواجا من نهر زارف لتتناسل عند مصبه قد بلغت من الكثرة ان الأطفال يجمعونها بالقواديس من المواضع غير العميقة ويرمونها الى الضفة . وحجارة الجسر ذات المسام قد ازدادت ليونة ، حتى لكأنها حية ، فهى تنتفخ بالقوة والفزارة اللتين تنبعان من الأرض وتهومان فوق المدينة كأيام القيظ الفرح التى يتنفس فيها كل شىء تنفسا أسرع وينبت فيهاكل شىء أصلب عودا وأقوى.

ان أمثال هذا الصيف ليست كثيرة فى وادى فيشيجراد ، ولكن حين يحل صيف منها ينسى الناس جميع الأيام السيئة ، ولا يفكرون فيما قد يقع فى المستقبل من ضروب الشقاء ، ويعيشون الحياة مضاعفة ثلاث مرات فى هذا الوادى الذى واتاه خصب مبارك ، فكأنهم جزء من هذه الحركة ، حركة الحرارة والرطوبة والنسغ الفائض الطافح .

انالفلاح الذى يجد حجة للشكوى دائما ، كان لابد له أن يعترف بأن العام قد بدأ بداية طيبة ، ولكنه كان يضيف الى كل كلمة من كلمات الثناء قوله : « اذا استمر الأمر .. » ، وكان أهل الحى التجارى يهرعون الى أعمالهم خافضى الرءوس وينغمسون فيها انغماسا نشيطا ، كفرق النحل والزنابير فى كئوس الزهر . وكانوا ينتشرون فى القرى حول المدينة يدفعون للفلاحين سلفا على قمح لايزال فى سنبله ، وعلى خوخ لايزال أزهارا . ويحار الفلاح أمام تزاحم هؤلاء الزبائن المتكررة على بابه ، ويحار أمام هذا المحصول النادر الوفرة حين يقف قرب أشجاره المثمرة التى تنوء منذ الآن بحمل اثمارها ، أو حين يقف الى جانب حقله الذى يتموج ، يحار الفلاح أمام هذا كله ، فيسرف فى الحذر والتحفظ ازاء هؤلاء المدنيين

الذين تحملوا عناء المجيء اليه ، ويكتسي وجهه من ذلك تعبيرا مهموما هو الاخ التوأم للتعبير الذى تكتسيه أوجه الفلاحين فى السنوات العجاف .

على أن التجار الأغنياء الأقوياء لا يمضون الى الفلاحين بل يأتى اليهم الفلاحون . ففى يوم السوق ترى حانوت بافلى رانكوفتش يعج بالفلاحين المحتاجين الى مال . وكذلك دكان سانتو بابو الذى اصبح منذ مدة طويلة أول « يهود » فيشيجراد (يجب أن نذكر أنه رغم وجود البنوك منذ زمن طويل ، ورغم امكان الحصول منها على قروض برهون ، فان الفلاحين والمسنين منهم خاصة لايزالون يؤثرون أن يقترضوا على الطريقة القديمة من أثرياء المدينة الذين يشترون منهم ما يحتاجون اليه من بضائع والذين كان يقترض منهم آباؤهم منذ القديم) .

ان مخزن سانتو يعد من أعلى مخازن الحى التجارى بفيشيجراد ومن أقواها . انه مبنى بحجر صلب ، وله جدران سميكة ، وقد جعلت أرضه من بلاط من الحجر ، وجعلت ابوابه ومصاريعه من حديد ، وزودت نوافذه الضيقة بشبك كثيف من حلقات ملزوزة .

ان مقدمة المخزن دكان للبيع على جدرانها رفوف عميقة من الخشب ملئت بالأوانى المدهونة ، وفى سقفها الذى يبلغ من ارتفاعه انه يغيب فى الظلام بضائع خفيفة . فوانيس من جميع الأحجام ، أباريق القهوة التركية ، أقفاص ، مصائد فئران ، وأدوات أخرى ، مما يستعمل فى تنقية الحبوب . والى جانب منضدة التجارة الطويلة تتكدس صناديق المسامير والأسمنت ، والجبس ، وأوان من الصفيح متعددة الألوان ، ومعازق ومجارف ومعاول بلا أذرع ، قد نظمت فى اسلاك من الحديد أطواقا ثقيلة . وفى الأركان أوعية كبيرة من الحديد الأبيض لزيت الكاز ، والدهان ، والتربنتين والورنيش .

غير ان القسم الأكبر من البضائع قد خزن فى مستودع وراء الدكان تفضى اليه فتحة واطئة مجهزة بباب من حديد ، فهناك حيث وضعت البضائع الثقيلة : المدافىء الحديدية ، وسكك المحاريث ، والعتل ، والفئوس ، وغير ذلك من الأدوات الضخمة ، وقد نضدت جميعها اكواما عالية بحيث لا يبقى من البضائع الا ممر صغير كأنه ممر بين جدران عالية . وهنا يخيم ظلام دائم ، فلا يمكن الدخول الا بمصباح .

ان الجدران الكثيفة والأرض الحجرية واكداس الحديد تجعل

للجو فى هذا المكان ما للحجر والحديد من برودة قاسية لايمكن تبديدها ولا يمكن تدفئتها . ان الصبان النشطين المتوردة خددوهم الذين يعملون فى المخزن لايلبثون أن يستحيلوا بتأثير هذا الجو الى بائعين صامتين شاحبين متورمين ، لكنهم يصبحون فى الوقت نفسه أناسا حاذقين مقتصدين مدى الحياة . ولا شك أن هذا الجو متعب ومؤذ للأجيال من أصحاب المحل أيضا ، لكنه فى الوقت نفسه حبيب الى قلوبهم عزيز عليهم ، لأنه مصدر شعورهم بالتملك ، وينبوع ما يجنون من أرباح ، وما يحصلون من ثراء .

ان الرجل الجالس فى هذه اللحظة الى منضدة صغيرة فى الدكان البارد المظلم الى جانب الصندوق الفولاذى (ماركة فرتهايم) لايشبه الآن فى شيء ذلك السانتو النشيط المرح الذى كان منذ ثلاثين عاما يعرف كيف يصيح قائلا : « كأس روم للأعور » . لقد بدلته الأعوام وبدله العمل فى المخزن . انه الآن ثقيل ، ربل ، أصفر الوجه ، حول عينيه دوائر قاتمة تهبط حتى وسط خديه ، قد انخفض بصره ، وأصبح لعينيه السوداوين المتباعدتين اللتين تنظران من وراء نظارتين عدستاهما سميكتان واطارهما من معدن أصبح لعينيه هاتين تعبير عن الوجل والقسوة . ولايزال يضع على راسه طربوشا أحمر بلون الكرز هو آخر ما احتفظ به من زيه التركى القديم . ان أباه منتو بابو ، وهو عجوز قصير تجاوز الثمانين من عمره ، لايزال محتفظا بجلده وقوته ، غير أن بصره قد خانه وهو يجيء الى المخزن فى الأيام التى تسطع فيها الشمس ، فيجلس فى الدكان ينظر بعينيه الدامعتين اللتين يتراءى للمرء انهما توشكان ان تذوبا وراء النظارتين السميكتين ، ينظر الى ابنه الجالس قرب الصندوق الحديدى ، والى حفيده الجالس الى البسطة ، ويستنشق هواء المخزن ، ثم يعود أدراجه بخطى بطيئة مستندا بيده اليمنى الى كتف ابن حفيده البالغ من العمر عشر سنوات .

ان لسانتو ست بنات وخمسة أبناء تزوج أكثرهم . حتى ان ابنه الأكبر رافو ، قد أصبح له أولاد كبار ، وهو يساعد أباه فى المخزن . وان أحد أبناء رافو ، وهو مسمى باسم جده ، قد أصبح تلميذا فى مدرسة ساراييفو الثانوية . انه فتى شاحب الوجه ، حسير البصر ، نحيل الجسم ، كان ينشد قصائد زماى (1) أحسن

---

(1) يوفان يوفانوفتش زماى (١٨٣٠ ـ ١٩٠٤) ، شاعر وطنى صربى مشهور ، نظم الشعر فى جميع الاغراض . وقصائده يعرفها الاطفال خاصة (المترجم) .

انشاد منذ السنة الثامنة من عمره فى السهرات الترفيهية بمدرسته. لكنه فيما عدا ذلك ليس بالتلميذ الناجح ، وهو لايحب أن يذهب الى الكنيس ولا أن يساعد اباه أثناء عطلة الصيف . ويقول انه سيعمل ممثلا ، أو سيصبح شهيرا بأية طريقة اخرى خارقة .

ان سانتو مكب على دفتر حساباته الكبير ، القذر، المتدهن ، ذى السجل الأبجدى ، والى جانبه يقبع على صندوق فارغ من صناديق المسامير فلاح من أوزافيتشا اسمه ايبرو تشيمالوفتش . ان سانتو يحسب مقدار الدين الذى له على ايبرو ، والمبلغ الذى يمكن أن يقرضه اياه أيضا ، وشروط القرض الجديد . انه يعد باللغة الأسبانية هامسا :

ـ شنكونتا ، شنكونتا اى أوكو ، سنتا اى ترس ..

والفلاح ينظر اليه نظرة متفرسة مهمومة ، كأن الأمر أمر سحر لا أمر حساب يعرفه أدق معرفة ويحلم به فى نومه . حتى اذا فرغ سانتو من عمليات الجمع التى قام بها ، وذكر للفلاح مجموع ما عليه من دين ومقدار الفوائد المضافة اليه صاح الفلاح يسأله :

ـ أهذا هو تماما ؟

وقد ألقى الفلاح هـذا السؤال لا لشيء الا ليتسع وقته للمقارنة بين الحساب الذى أجراه هو وبين الحساب الذى أجراه سانتو .

فأجابه سانتو بتلك العبارة المعتادة التى يستعملها دائما فى مثل هذه الظروف :

ـ تماما يا ايبراجا ، ولا شيء غير ذلك .

وبعد أن أقر الرجلان الدين وديا على هذا النحو ، كان على الفلاح أن يطلب قرضا جديدا ، وكان على سانتو أن يذكر امكانياته وشروطه . غير أن هذا الأمر لا يتم بسهولة وسرعة . ان حديثا طويلا يقوم بين الرجلين ، حديث يشبه حتى فى أدق تفاصيله الأحاديث التى سبق أن دارت فى هـذا المكان نفسه ، منذ حوالى خمسين عاما ، قبيل الحصاد أيضا ، بين والد ايبرو هذا وبين منتو والد سانتو . ان الموضوع الحقيقى الأساسى الذى يجب أن يدور عليه الحديث لابد أن يصحب بطوفان من كلام لا يعنى فى ذاته شيئا ، وانما يبدو من نافل القول ، ولا يكاد يكون له معنى ، كلام ان سمعه شخص غير خبير اضطر الى الاعتقاد فى أكثر الأحوال أن الحديث لا شأن له باقتراض مبلغ من المال ، أو هذا ما يحسبه المرء فى بعض اللحظات .

ـ موسم الخوخ عظيم هذا العام .. ان محصول الثمار وافر هنا أكثر من أي منطقة أخرى .. عام لم نعرف مثله منذ مدة طويلة.
ـ الحمد لله .. أظن ان المحصول لن يكون رديئا هذا العام . ستتوفر الثمار وسيتوفر الخير أن شاء الله .

قال الفلاح ذلك ، ثم أضاف وقد لاح فى وجهه الهم وأخذ يحك بسبابته خياطة سرواله المصنوع من قطن سميك أخضر ، وينظر الى سانتو من تحت :

ـ ولكن من يدرى كم يكون الثمن ؟
ـ لا نستطيع أن نعرف الثمن الآن ، وانما نعرفه حين تجيء بالفلال الى فيشيجراد . وأنت تعرف القول المأثور : الثمن فى قبضة صاحب الرزق .

فقال الفلاح فى تحفظ :

ـ نعم ، هذا اذا سلم الله الى النهاية .
ـ طبعا .. وهل يستطيع الانسان أن ينال شيئا وأن يجنى شيئا الا بمشيئة الله ؟.. ان كل ما يلقاه الانسان من عناء فى عمله لا يجديه شيئا اذا لم تحل عليه بركة الله .

قال سانتو ذلك وهو يشير باصبعه الى السماء التى تحل منها البركة ، السماء التى تقع فى مكان ما وراء هذا السقف العالى الذى تتدلى منه المصابيح الحديدية البيضاء ذات الأحجام المختلفة ، وتتدلى منه أشياء صغيرة أخرى مضمومة حزما .

فقال ايبرو متنهدا :

ـ كلامك صحيح .. كل ذلك لا يجدى الانسان شيئا .. ان الانسان يغرس ويبذر ، ولكن ما لم تتداركه عناية الله كان كمن يرمى كل شيء فى الماء . اى والله العظيم .. ان الانسان يعزق الأرض ، ويقلع الأعشاب ، ويقضب الأشجار ، وينقى ويتخير ، ولكن لا .. انه لن يجنى من كل هذا شيئا الا اذا كان قد كتب له ذلك .. حتى اذا أرادت مشيئة الله أن يجنى محصولا طيبا ، تدفق الخير على كل انسان ، وأصبح فى وسع المرء أن يسدد ديونه وأن يستدين من جديد.. على شرط أن يديم عليه صحته.
ـ ها .. الصحة قبل كل شيء .. لا شيء يعادل الصحة .. هكذا خلق الانسان المسكين : اذا أعطيته كل شيء وسلبته صحته ، كنت كأنك لم تعطه شيئا .

هذا ما قاله سانتو صارفا الحديث كله الى هذا الاتجاه .

وأخذ الفلاح يعبر عن آرائه فى الصحة ، وهى آراء عامة معروفة كآراء سانتو . وبدا فى لحظة من اللحظات أن الحديث قد غرق فى ترديد أمور تافهة مبتذلة . ولكنه ما لبث فى لحظة مواتية أن عاد الى حيث بدأ . فأخذ الرجلان يتساومان فى أمر القرض الجديد، ومقداره ، وفائدته ، وأجله ، وطريقة سداده . فتكلما مدة طويلة ، تارة فى حرارة ونشاط ، وتارة فى هدوء ورفق ، مع اظهار الهم والقلق ، ثم انتهيا الى التفاهم وعقدا الصفقة . عندئذ نهض سانتو، فأخرج من جيبه مفاتيح مربوطة بسلسلة ، ففتح الصندوق الحديدى بأحدها دون ان يحله . ان الصندوق الحديدى يقرقع فى أول الامر ، ثم ينفتح ببطء ووقار ، حتى اذا انغلق أحدث صوتا معدنيا جميلا كأنه زفرة ، شأن سائر الصناديق الحديدية الكبرى.

وأخذ سانتو يعد المال للفلاح قطعة قطعة ، بعناية تامة وانتباه شديد ، ووقار تكسوه مسحة من الحزن . حتى اذا فرغ من العد، صاح بصوت تبدل فأصبح اشد حرارة وقوة :

ـ مضبوط هكذا يا ايبرو ؟ أمسرور أنت الآن ؟

فقال له ايبرو سادرا ، بصوت خافت :

ـ مضبوط .. شكرا ..

ـ الله يبارك لك ويوفقك . وان شاء الله نلتقى فى المرة القادمة على خير حال من الصحة والصداقة .

ان سانتو يقول الآن هذا الكلام بحرارة تامة وفرح كامل . وها هو ذا يرسل حفيده الى المقهى الواقع أمام دكانه فى الجهة الاخرى من الشارع ليأتيه بفنجانين من القهوة « أحدهما مر .. والثانى بسكر » .

ان فلاحا آخر ينتظر دوره أمام الدكان لغرض كهذا الغرض نفسه ، ولحسابات من هذا النوع ذاته .

ومع هؤلاء الفلاحين وتنبؤاتهم عن المحصول والحصاد كانت تنفذ الى الأعماق المظلمة من دكان سانتو ، أنسام دافئة ثقيلة من أنسام عام سخى نادر . ان هذه الأنسام تغشى الصندوق الحديدى الأخضر بالبخار وسانتو يحل بابهامه القميص عن رقبته المبتلة بالعرق الأصفر اللزج بالدهن ، ويمسح بمنديله البخار الذى غشى نظارته .

هكذا ظهر فصل الصيف فى بدايته .

على ان سحابة عابرة من الخوف والحزن قد ألمت بالمدينة منذ

أول هذا الصيف المبارك . ففى الأيام الأولى من الربيع انتشر وباء التيفوس فى أوفاتس ، وهى بلدة صغيرة تقع على الحدود التركية النمسوية (أى الصربية النمسوية الآن) . ولما كانت هـذه البلدة تقع على الحدود وكانت قد وقعت اصـابتان بالتيفوس فى ثـكنة الدرك نفسها ، فان الدكتور بالاك الطبيب العسكرى بفيشيجراد ، ذهب اليها يحمل الأدوية اللازمة بصحبة ممرض . والدكتور بالاك رجل حاذق حازم ، اتخذ جميع الاجراءات اللازمة لعزل المرضى . وراقب معالجتهم بنفسه ، لذلك لم يمت الا اثنـان من الأشخاص الخمسة عشر الذين أصيبوا بالمرض . وحصر الوباء فى أوفاتس ، وقضى عليه فى مهده .

وكان آخر من أصابه المرض هو الدكتور بالاك نفسه .. لايدرى احد كيف انتقلت اليه العدوى ، ولم يطل مرضه مدة طويلة ، بل مات فجأة بمضاعفات لم تكن متوقعة ، وكان ذلك كله يحمل طابع فاجعة نادرة .

وخوفا من خطر العدوى ، دفن الطبيب الشاب فى بلدة أوفاتس نفسها . وشهدت السيدة باور الدفن ، كما شهده زوجها وعدد من الضباط . ودفعت مبلغا من المال ليقام على قبر الطبيب نصب من حجر نحت نحتا غير دقيق . وما لبثت السيدة باور أن تركته المدينة ، وتركت زوجها . وقيل فى فيشيجراد يومئذ انها ذهبت الى مصح (ساناتوريوم) قرب فيينا ، أو هذا ما أخذت تتهامس به صبايا المدينة ، لأن من هم أكبر سنا لم يلبثوا أن نسوا الطبيب وزوجة الـكولونيل منذ زال خطر العدوى وزالت الاجراءات التى اتخذت للحيلولة دون انتشار الوباء . وكانت بناتنا اللواتى لا خبرة لهن ولا ثقافة ، لايعرفن على وجه الدقة ماذا تعنيـه كلمة مصح (ساناتوريوم) ، ولـكنهن يعرفن حق المعرفة ماذا يعنيـه تنزه شخصين فى ثنايا الجبل ومنحدراته ، كما كان يفعل الطبيب وزوجة الـكولونيل قبـل مدة قصيرة . وكان يحلو لهن حين ينطقن بهذه الـكلمة الأجنبية (ساناتوريوم) فى الأحاديث المستترة التى يدونها على هذين الشخصين الشقيين ، كان يحلو لهن أن يتصورن هـذا الذى يسمى (ساناتوريوم) على أنه مكان سرى بعيد حزين تـكفر فيه النساء الجميلات الآثمات عن حبهن الحرام .

وفوق الحقول وعلى الذرا ، حول المدينة ، كان هذا الصيف النادر الفنى والسطوع ينمو وينضج . ان نوافذ النادى العسكرى

التى تطل على النهر قرب الجسر مضـــاءة فى المســـاء مفتوحة على مصاريعها ، كما كانت فى الصيف الماضى ، ولـكن لا تخرج منهـــا الآن أصوات عزف على الـكمان والبيانو . والـكولونيل باور جالس الى مائدته وسط عدد من الضباط المتقدمين فى السن ، طيبـــــا مبتسما ، ينضح جسمه بالعرق من شدة الحر المرهق وبتأثير النبيذ الاحمر .

وعلى الـكابيا ، فى الليل القائظ ، يجلس شباب المدينة ويغنون. ان نهاية حزيران (يونية) تقترب ، والشباب ينتظرون عودة تلاميذ المدارس الثانوية وطلاب الجامعات كما ينتظرونها فى كل صيف من الأصياف . ان المرء يشعر على الـكابيا فى مثل هـــذه الليـــالى أن الزمان قد توقف ، بينما الحياة تجرى زاخرة بالنشاط ، غنيـــة لا نهائية سهلة ، لا يحب المرء أن يتنبأ كم من الزمن ســـــتدوم على هذه الحال .

والشوارع الرئيسية فى مثل هـــذه الساعة مضاءة ، لأن المدينة اصبحت تنار بالـكهرباء منذ الربيع ، فمنذ سنة بنيت عند ضفة النهر على مسافة كيلومترين من المدينة منشرة كهربائيـــة ، واقيم الى جانبها مصنع يحول شرائح أخشاب الراتينج ، فيستخرج منها التربنتين وينتج فى الوقت نفسه الـكولوفان . وقد تعاقدت البلدية مع هذا المصنع على أن تنير محطته الـكهربائية شـــوارع المدينـــة ايضا . وبذلك اختفت الفوانيس الخضراء التى تشتعل مصابيحها بزيت القار كما اختفى فرحات الطويل الذى كان يظللها ويشعلها. ان الشارع الرئيسى الذى يمتد على طول المدينـــة من الجسر الى الحى الجديد مضاء بمصابيح كبيرة من زجاج غير شـــفاف ، بينما الشوارع الثانوية التى تتفرع عنه يسرة ويمنة وتتعرج حول بيكافاتس أو تصعد الى الميدان أو الى أوكولشته ، مضاءة بمصابيح صغيرة عادية .. وبين هذه الصفوف المنتظمة من النور ، تمتد مســـاقات غير منتظمة من الظل . انها أفنية البيوت والحدائق الـكبيرة التى تتدرج على المنحدرات .

ففى احدى هذه الحدائق تجلس الآن زوركا ، المعلمة ، ونيقولا حلاسنتشانين .

ان الخلاف الذى شجر بينهما فى السنة المنصرمة حين ظهـــر ستيكوفتش أيام عطلة الصيف ، قد استمر مدة طويلة وظل قائما الى مطلع السنة الجديدة . وعند مطلع السنة الجديدة بدأت تجرى

فى النادى الصربى الاستعدادات التى يجرى مثلهـا فى كل شـتاء للاحتفال بعيد القديس سافا (١) باقامة حفـلة موسيقية وتقـديم مسرحية . لقد اشتركت زوركا واشترك جلاسنتشانين فى هـذه الاستعدادات ، وتحدث كل منهما مع الآخر ، لأول مرة منذ الصيف الماضى ، أثناء العودة من تلك الاستعدادات . كانت أحاديثهما تجرى فى أول الأمر موجزة متحفظـة متعالية . لـكنهما لم ينقطعـا عن الالتقاء والـكلام ، لأن الشباب يؤثرون مشاجرات الحب مهما تكن مرة ومهما تكن يائسة على العزلة وعلى الضجر فى حياة لا لهو فيها ولا خواطر حب . وكان من شأن هـذه المشاجرات الطويلة التى لا تنتهى ، أن تصالح الشابان دون أن يعرفا متى تصالحا ولا كيف تصالحا . انهما الآن فى هذه الليالى الحارة من الصيف يلتقيـان باطراد . واذا كان طيف ستيكوفتش ينبعث بينهما من حين الى حين ، فيثير شجارا جديدا ، فان هـذا الشجار لم يكن يبعد أحدهما عن الآخر ، أو يفصله عنه ، فى حين أن كل مصالحة جديدة كانت تزيد التقارب بينهما .

انهما الآن جالسـان فى الظلام القائظ ، على جذع شجرة مقطوعة قديمة من أشجار الجوز ، قد راح كل منهما يتابع مجرى خواطره ، وينظر الى الأضواء الـكبيرة والصغيرة التى تتلألأ فى المدينة ، تحت ، على طول النهر الذى يحدث هديرا رتيبا . لقد تكلم جلاسنتشانين كثيرا ثم صمت الى حين . أما زوركا فقـد ظلت صـامتة طوال السهرة ، وهى الآن مستمرة فى هـذا الصمت الذى لا يجيده الا النساء حين يقلبن فى أذهانهن هموم الحب وهى عندهن أخطر شأنا وأشد لجاجة من أى شىء آخر فى الحياة .

فى مثل هذا الوقت من السنة المـاضية ، حين ظهر ستيكوفتش فى المدينة ، ظنت زوركا أن عالما من السعادة والهناءة ينفتح أمامها الى الأبد ، ان جنة لا نهاية لهـا من الحب تنبسـط على مدى بصرها ، جنة لها من الانسجام الـكامل بين العواطف والرغبـات والأفكار ما للقبلة من عذوبة ، ولها ما لحياة الانسان كلها من طول . غير ان هذا الوهم لم يدم مدة طويلة . فان زوركا رغم قلة خبرتها ورغم انتشائها بسكرة الحب لم يفتها أن تلاحظ أن فتاها قد اندفع

---

(١) أسس المطران سافا الكنيسة الصربية المستقلة عن بيزانطة فى القرن الثامن عشر . وعيد القديس سافا هو للصربيين عيد وطنى ودينى ، يحتفـل به خاصة فى المؤسسات التعليمية ، فهو احتفال ثقافى ودينى فى آن واحد (المترجم) .

فى هواها اندفاعا مفاجئا ، ثم فترت عاطفته نحوها فتورا مفاجئا أيضا ، لأسباب لا تتصل الا به ، ولا شأن لها بها ، ولا شأن لها بما كانت تعده أخطر شأنا وأعظم قيمة منهـا ومنه على السواء . وحين سافر لم يكد يودعها . فظلت فريسة حيرة شاقة آلمتها أشد الألم كجرح عميق خبيىء . والرسالة التى بعث بها اليها جاءت تحفة صغيرة من تحف الانشاء والبراعة الادبية ، ولـكن كل شىء فى هذه الرسالة كان محسوبا مقيسا كـكلام المحامين ، وكان واضحا شفافا كاناء فارغ من زجاج . ان ستيكوفتش يتحدث فى هذه الرسالة عن حبهما وكأنهما راقدان فى قبريهما منذ مائة عام ، ميتان مظفران. فلما ردت على رسالته هذه برسالة منطلقة حارة ، كان جوابه عليها بطاقة يقول فيها :

« وسط الهموم والأعمال التى ترهقنى من أمرى عسرا وتذهلنى عن نفسى ، أفكر فيك ، وأفكر فى ليل فيشيجراد الهادىء ، وفى همهمة النهر ، وفى شذى الأعشاب التى لا ترى » . كان هذا كل ما تضمنته البطاقة .

وعبثا حاولت زوركا أن تتذكر همهمة النهر وشذى الأزهار التى لا ترى . ان هذا كله لا وجود له الا فى بطاقته . لعلها نسيت هذا كما نسى هو كل ما عداه مما كان بينهما . وطاش صوابها حين تصورت أنها خدعت ، ثم اخذت تتأسى بفكرة عجيبة لم تفهمها هى نفسها ، فـكرة هى أبعد عن الواقع من المعجزات ، قالت لنفسها : « صحيح انه لا يفهم ، وأنه مبتعد ، فاتر ، أنانى ، ذو نزوات ، ولـكن ربما كان جميع الأفذاذ كذلك » ومهما يكن من أمر ، فان ذلك كله غدا أشبه بالعذاب منه بالحب . انها الآن ، فى انكسار نفسها وفى التصدع الذى أصاب أعمق كيانها ، تحس بأن حمـل الحب الذى ولده صاحبها فى نفسها أصبح يثقل عليها ، ويغيب فى ضباب بعيد لا تجرؤ أن تسميه باسمه . ذلك بأن المرأة المحبة تظل تحب حبها ولو تبددت كل اوهامها ، تظل تحبه كحبها لطفل لم يكتب له أن يولد . وكبحت زوركا جماح عاطفتها فى غير قليل من المشقة والألم ، فلم تجب على بطـاقته ، غير أن بطـاقة أخرى وصلتها منه بعد فترة طويلة دامت شهرين . انه يكتب اليها الآن من على جبل عال فى سلسلة جبال الالب : « من على ارتفاع ألفى متر ، وبين أناس من بلاد شتى يتكلمون لغات مختلفة ، أتأمل لا نهائية الأفق ، وأفـكر فيك وفى "نصيف الماضى » . وكان هـذا

كافيا لتفهم الحقيقة ، رغم سنها ورغم قلة خبرتها . لو كتب يقول : « ما أحببتك يوما ، ولست أحبك الآن ، ولن أقدر أن أحبك فى المستقبل » ، لما كان هذا الكلام أوضح ولا أشد ايلاما. ذلك ان الأمر عندها أمر حب ، لا أمر ذكريات غامضة أو جبل مرتفع يكتب من عليه ، ولا ناس يحيطون به ، ولا لغات مختلفة يتكلمها هؤلاء الناس . والحب لا وجود له البتة فى هذه البطاقة.

ان زوركا يتيمة ، ترعرعت بمدينة فيشيجراد فى بيت أناس يمتون اليها بقربى بعيدة . ولكنها أنهت سنى دراستها فى دار المعلمات بساراييفو وعينت معلمة بفيشيجراد ، فعادت الى بيت هؤلاء الناس الذين كانوا على شىء من اليسار ، ولكنهم أناس بسطاء ، ليس يشدها اليهم شىء .

شحبت زوركا ، وضعفت ، وانطوت على نفسها . وكانت لا تفضى الى أحد بما بها . ولم تجب على البطاقة التى أرسلها اليها صاحبها مهنئا بعيد الميلاد ، وهى بطاقة مختصرة ، فاترة ، لا تقل عن البطاقتين الأوليين أناقة أسلوب . كانت زوركا تريد أن تكفر عن خطيئتها وعن عارها بنفسها دون أن يساعدها أو أن يواسيها أحد. ولكن زوركا ضعيفة ، مصعوقة ، شابة ، جاهلة ، ليست بذات خبرة . فها هى ذى تزداد لذلك غوصا واضطرابا فى هذه الشبكة المحكمة من مشاعرها التى تعانيها ورغباتها العنيفة وخواطرها الخاصة، ومن أفعال ستيكوفتش غير المفهومة وغير الانسانية . ولو أنها استطاعت أن تسأل أحدا أو أن تطلب النصح من أحد ، لروح ذلك عنها من غير ريب ، لكن الخجل يصدها . وكانت من جهة أخرى تحس أن المدينة كلها على علم بأمر الخيبة التى لقيتها ، وأن نظرات المكر والاستهزاء والشماتة تلتهمها التهاما حين تجتاز مركز المدينة. لا الناس ولا الكتب ولا شىء يقدر على أن يمدها بتعليل لما وقع. انها عاجزة عن أن تفسر أى شىء . لو صح انه لم يحبها ، فعلام كانت اذن تلك المسرحية كلها ، علام كانت تلك الأحاديث الملتهبة التى وجهها اليها ، وتلك الجهود التى بذلها لاقناعها فى عطلة الصيف الماضى ؟ فيم كان اذن ذلك المشهد الذى مثله على مقعد المدرسة ، وهو مشهد لا يبرره الا الحب ولا يمكن بدون الحب الا أن ينزل الى حمأة من الذل لا تطاق ؟ هل يعقل أن يكون ثمة أناس تبلغ بهم الاستهانة بغيرهم وبأنفسهم الا يتورعوا عن عبث كهذا العبث ؟ ما الذى يمكن أن يدفع الى ما وقع الا الحب ؟ فاذا لم

يكن الأمر كذلك فما معنى تلك النظرات المحرقة ، وما معنى تلك الأنفاس الحارة اللاهثة وتلك القبلات الجامحة المحمومة ؟ ما عسى أن يكون هذا ان لم يكن هو الحب ؟ ولكن لا .. لم يكن ذلك من الحب فى شيء . ان زوركا تدرك الآن هذه الحقيقة ادراكا أكمل وأوضح مما تريد . غير أنها لا تستطيع أن تذعن لهذه الحقيقة مدة طويلة اذعانا صادقا (ومن ذا الذى أذعن يوما لمثل هذا اذعانا كاملا؟).
وكانت النهاية الطبيعية لهذه الألوان من التمزق النفسى أن راودتها فكرة الموت فكرة الموت تكمن دائما وراء جميع احلام السعادة التى نسترسل فيها . أصبحت زوركا تقول لنفسها : يجب أن أموت .. أنزلق من السكابيا الى النهر كما لو كان ذلك يقع مصادفة دون أن اترك رسالة لأحد ، ودون أن أودع أحدا ، ودون أن أعترف لأحد . يجب أن أموت » ..

هذا ما كانت تفكر فيه زوركا حين تنام ، وحين تستيقظ ، وحين تشترك فى أى حديث من الأحاديث الحارة ، وحين تقنع وجهها بكل ابتسامة من ابتساماتها . كان كل شيء فيها يقول ويردد دائما هذا الشيء نفسه : الموت ، الموت .. ولكن المرء لا يقدم على الموت ، وانما يعيش حاملا فى نفسه هذه الفكرة التى لا تطاق .

وجاءها العزاء أخيرا من حيث لا تتوقع أن يجيئها . كان المهما الدفين قد بلغ فى عطلة عيد الميلاد ذروته . ان هذه الخواطر وهذه الأسئلة التى ليس لها اجوبة تسمم الانسان وتهدمه اكثر من المرض . ولاحظ جميع الناس تبدلات أليمة فى زوركا وقلقوا عليها ، وأخذوا ينصحونها بأن تستشير طبيبا ، نصحها بذلك أقرباؤها ورئيسها (وهو رجل مرح له أولاد كثيرون) وصديقاتها .

وكان من المصادفات السعيدة أن جاء موعد التدرب على الحفلة الموسيقية فى تلك الفترة نفسها ، وأن زوركا عادت تكلم جلاسنتشانين بعد قطيعة دامت أشهرا طويلة . كان جلاسنتشانين قد تحاشى حتى الآن أى لقاء بها وأى حديث معها . ولكن الحماسة الودية التى تخيم عادة فى المدن الصغيرة بمناسبة مثل هذه التسليات الموسيقية والمسرحية التى تتصف بالبساطة ولكنها تتصف أيضا بالصدق ، ثم الليالى النيرة الطرية التى كان الشابان يعودان فيها الى بيتيهما ، كل ذلك قرب بينهما بعد أن كانا الى ذلك الحين متقاطعين . فأما هى فكانت تدفعها الى هذا التقارب حاجتها الى التخفف من عذابها ، وأما هو فكان يدفعه اليه الحب الذى يغفر

بسهولة وينسى بسهولة متى كان حبا صادقا عميقا . ولقد كان حبه كذلك .

وطبيعى أن كلامهما الأول كان فاترا ، حذرا ، ملتبسا ، وان احاديثهما الأولى كانت شروحا طويلة لا مخرج منها . ومع ذلك فقد خفف هذا عن الفتاة . كانت تستطيع لأول مرة أن تتحدث الى مخلوق عن ألمها الدفين الذى كانت تحمر منه خجلا ، دون أن تضطر الى الاعتراف بتفاصيله المخجلة الأليمة . وكان جلاسنتشانين يتكلم فى نشاط واسهاب ، بتعابير حارة زاخرة بالصور الحية ، مع احتفاظه بكرامته وكبريائه . وكان لا يتحدث عن ستيكوفتش بكلام قارص أكثر مما يجب . كانت أقواله شبيهة بالأقوال التى سمعناها منه على السكابيا فى تلك الليلة المشهورة : أقوال موجزة ، حازمة ، لا هوادة فيها ، فحواها أن ستيكوفتش انسان أنانى ، شاذ بفطرته ، عاجز عن ان يحب أى انسان كائنا ما كان ، وأنه وهو المعذب القلق ، سيظل طوال حياته يعذب جميع من سيخدعون به ويقتربون منه . وكان جلاسنتشانين لا يتحدث عن حبه الا قليلا ، ولكن هذا الحب كان يظهر فى كل كلماته ، وكل نظرة من نظراته ، وكل حركة من حركاته . وكانت الفتاة تصغى اليه صامتة فى أكثر الأحيان . وكان كل شىء فى هذه الأحاديث يرضيها ويعجبها . كانت بعد كل حديث من هذه الأحاديث تحس بأن نفسها تعود الى سكينتها وتهدأ . انها الآن ، لأول مرة بعد شهور كثيرة ، تعرف لحظات من عودة الطمأنينة الى نفسها المضطربة القلقة ، وتستطيع لأول مرة ألا تعد نفسها انسانا ساقطا . ذلك أن كلمات الفتى التى تفيض حبا واحتراما كانت تبرهن لها على أنها لم تضع ضياعا لابرء منه ، وأن يأسها لم يكن الا وهما ، كما كان وهما حلم الحب الذى راود خيالها فى ذلك الصيف . ان هذه الأحاديث تحولها عن ذلك العالم المظلم القاتم الذى كانت قد بدأت تغرق فيه ، وتردها الى الواقع الانسانى الحى الذى يشتمل على حل وعلى دواء لكل شىء ، أو لكل شىء تقريبا .

واستمرت هذه الأحاديث تجرى بين الشابين بعد الاحتفالات بأعياد القديس سافا . وانقضى الشتاء ثم انقضى الربيع . انهما يلتقيان الآن فى كل يوم . وأبلت الفتاة من سقمها شيئا بعد شىء ، واستردت قواها ، وبرئت ، وتحولت ذلك التحول السريع الذى هو من خصائص الشباب .

وعلى هذه الحال وافى ذلك الصيف الخصيب المضطرب . وكان الناس قد اعتادوا أن ينظروا الى زوركا وجلاسنتشانين نظرتهم الى شابين « يتعاشران » .

الحق ان القصص الطويلة التى كان يرويها جلاسنتشانين ، والتى كانت الفتاة تصغى اليها فى كثير من الانتباه وتلتهمها التهاما كدواء يشفيها مما بها ، أصبحت لا تشوقها الآن كما كانت تشوقها فى الماضى . حتى لقد أصبحت ضرورة تبادل النجوى والاعتراف تثقل على نفسها فى بعض الأحيان . واصبحت تتساءل فى اشفاق ودهشة صادقة : من أين أتى هذا التواصل الحميم بينها وبين جلاسنتشانين ؟ ولكنهاكانت تتذكر عندئذ أنه قد أنقذ روحها فى هذا الشتاء ، فكانت تسيطر على ضجرها وتصغى اليه بانتباه ما وسعها الانتباه ، اصغاء انسان مدين معترف بالجميل ، شاعر بما لصاحبه عليه من فضل .

وفى تلك الليلة من ليالى الصيف كان جلاسنتشانين يمسك يدها بيده (وذلك أقصى حدود جرأته العفة) ، وكان الدفء الغنى الذى يملأ رحاب الليل ينفذ اليه بتلك الملامسة . كان فى مثل هذه اللحظات يرى رؤية واضحة ما يختبىء فى هذه المرأة من خير ، وفى الوقت نفسه يحس أن المرارة والاستياء اللذين كانا يسيطران على حياته يستحيلان الى قوى خصبة كافية الأن تمضى باثنين الى أبعد غاية ، اذا كان الحب يجمع بين قلبيهما ويشد ازرهما .

انه الآن وقد امتلأ بهذه العواطف فى هذا الظلام الحالك يختلف عن جلاسنتشانين النهار ، يختلف عن جلاسنتشانين المستخدم الصغير فى مؤسسة تجارية كبرى بفيشيجراد . انه الآن رجل آخر قوى واثق من نفسه ، ينظم حياته على ما يريد لأمد طويل . ذلك ان الذى يشعر بحب صادق كبير خالص منزه ، ولو لم يكن حبا متبادلا ، تنبسط أمام بصره آفاق وامكانيات وطرق تظل مجهولة وموصدة بالنسبة الى كثير من الحاذقين الطامحين الأنانيين .

وها هو ذا جلاسنتشانين يتحدث الى المرأة التى الى جانبه فيقول :

ـ أظن اننى لا اخدع نفسى .. على الأقل لأننى لا يمكن أن اخدعك . اننى أتابع الناس والاحظهم بينما يتكلم بعضهم ويهذى ، وبينما يمضى بعضهم الآخر الى أعماله ومكاسبه ، فاقتنع يوما بعد يوم الا مجال للحياة هنا . خلال مدة طويلة لن يكون ههنا سلام ولا

نظام ولا عمل مجز . ولن يستطيع تبديل هـذه الحال لا امثـال ستيكوفتش ولا أمثال كيراك . بالعكس ، ستزداد الحال سوءا على سوء . فيجب على المرء أن يهرب من هذا المكان هربه من منزل آيل الى السقوط . وما هؤلاء المنقذون الـكثر القلقون الذين نراهم فى كل خطوة نخطوها الا نذير بأننا على أبواب كارثة محققة . وما دام المرء لا يستطيع أن يدفع البلاء فلا أقل من أن يفر منه .

وكانت الفتاة صامتة لا تقول شيئا .

ـ الأمر الذى أحب أن أفاتحك فيه الآن ، لم يسبق أن حدثتك عنه ، ولـكننى فكرت فيه كثيرا خلال مدة طويلة ، حتى لقد أعددت له بعض عدته . أنت تعلمين أن بوجدان ديوروفتش ، رفيقى فى أوكولشته ، يقيم بأمريكا منذ ثلاث سـنين . اننا نتراسل منـذ السنة الماضية ، وقد أريتك صورته التى بعث بها الى من هناك . انه يدعونى اليه ، ويعدنى بعمل مؤكد ذى أجر مجز . أنا أعرف أن وضع هذه الخطة موضع التنفيـــذ ليس بالأمر السهل أو البسيط ، ولـكننى أعتقد أنه ليس بالأمر المستحيل . لقد فـكرت فى كل شىء ، وحسبت كل شىء . سـأبيع كل ما أملـكه فى أوكولشته . فاذا ما وافقت على أن نتزوج ، كان علينـا أن نتم الزواج بأقصى سرعة ممكنة ، وأن نسافر الى زغرب دون أن نقول لأحد شيئا . ان فى زغرب شركة لترحيل المهاجرين الى أمريكا . قد نمكث هناك شهرا أو شهرين بانتظار أن يرسـل الى بودجان تصريحا ، وفى أثناء ذلك نأخذ نتعلم اللغـة الانجليزية . فاذا لم نستطيع الرحيل بسبب الخدمة العسكرية ذهبنـا الى الصرب ، وسافرنا من هناك . سأدبر الأموركلها بحيث لا تلقين من الصعوبات الا اقلها . وهناك فى أمريكا سنعمل كلانا . ان لنا هنالك مدارس تحتاج الى معلمات . وسأجد هنالك عملا ، لأن جميـع الأعمـال هنالك مفتحة الأبواب أمام جميع الناس ، لا يعز على أحد أن يصل اليها . ستكون هنالك حرين سعيدين . كل ذلك سأفعله ، اذا أنت أردته ، اذا أنت وافقت عليه .

قال الفتى ذلك ثم صمت . ولم تجبه زوركا ، لـكنها وضعت يديها فى يديه . فأحس ان هذه الحركة تعبير عن شكر جزيل . غير انها لم تجب بنعم ولا أجابت بلا . وانما شكرت له هـــذه الرعاية كلها وهذا الاهتمام كله ، وشكرت له هـذا النبـل الذى لا نهاية له ولا حدود ، وطلبت اليه باسم هـذا النبـل نفسه أن

يمهلها شهرا حتى تعطى جوابها الحاسم .. مهلة الى آخر السنة الدراسية . وقالت له وهى تشد على يديه :

ــ شكرا نيقولا .. شكرا .. انك شهم .

ومن الكابيا كان يتصاعد اليهما غناء شباب . انهم فتيان من ميشيجراد . ولعلهم تلاميذ مدرسة سارايبفو الثانوية قد وصلوا الى المدينة . بعد خمسة عشر يوما سيصل طلاب الجامعات أيضا .

ان زوركا لا تستطيع ان تحزم أمرها وان تتخذ اى قرار قبل ذلك الحين . ان كل شيء يسبب لها الما ، وخاصة نبل هذا الرجل . ولكنها لا تستطيع فى هذه اللحظة ان تقول نعم ، ولو قطعت اربا . انها لا تأمل فى شيء ، ولكنها تريد ان ترى مرة أخرى ذلك « الرجل العاجز عن الحب » . مرة أخرى ، ثم فليكن ما يكون . وسينتظرها نيقولا ، انها تعرف ذلك .

ونهض الشابان يمسك كل منهما بيد الآخر ، وسارا فى الطريق المنحدر هابطين نحو الرابية التى يصل منها الغناء .

الفصل الثاني والعشرون

نظمت الجمعيات الصربية احتفالا في الهواء الطلق بميزالين ، بمناسبة عيد القديس جي (فيدوف دان) كما تفعل في كل عام . فهناك ، عند ملتقى نهري درينا ورزاف ، تحت أشجار الجوز الكثيفة الملتفة ، على الضفة الخضراء المرتفعة ، نصبت الخيام التي يباع فيها الشراب وتشوى فيها الخراف (يجعل الخروف في سفود يدار على نار هادئة) . ان الأسر التي جاءت بطعامها تجلس في الظل . وهذه موسيقى صاخبة تدوى أصواتها فوق مهاد طرى من أوراق الأشجار .

وفي رحبة عارية مهدت ارضها ، تدور قصة الكولو منذ الصباح . أن الذين يرقصون هم الشباب والمتعطلون .. أولئك الذين ما أن انتهت الصلاة حتى مضوا من الكنيسة رأسا الى ميزالين . ان الاحتفال الحقيقي ينبغي أن يبدأ بعد الظهر . غير ان رقصة الكولو تدور منذ الآن ، وتبلغ أوجها ، فهي الآن اجمل وأرشق مما ستكون بعد الظهر ، حين تصل جماهير الناس ، فيشارك في الرقص نساء متزوجات وأرامل متعبات وصبية صغار فتستحيل دائرة الراقصين الى ضفيرة فرحة مرحة ولكنها مقطعة وليس فيها انسجام . ان الدائرة الصغيرة التي تضم عددا من الفتيان أكبر من عدد الفتيات ، تندفع الآن في الرقص اندفاعا محموما وتطير في دورانها طيرانا . وكل شيء من حول الراقصين يتحرك ويتموج . الهواء الذي يصطفق على ايقاع الموسيقى ، والشيجان الكثة من قمم الأشجار ، والغمائم البيضاء التي ترى في الصيف ، والأمواه الصافية التي تترقرق في النهرين . انالأرض لتتحرك من تحتهم وحولهم ، وليسعليهم الا أن يوفقوا بينحركاتهم وبين هذه الحركة العامة الشاملة . ويصل من الطريق شباب جدد . يصلون راكضين لينضموا الى الحلقة على الفور. أما البنات

فيحبسن أنفسهن عن الانضمام الى الدائرة لحظة من الوقت ، ويقفن ينظرن الى الرقص كانهن يقسن ايقاعه وينتظرن اندفاعة خفيه . ثم اذا بهن يندفعن الى الحلقة على حين فجأة ، وقد انثنت ركبهن وانخفضت رءوسهن ، فعل من يلقى بنفسه فى الماء البارد مسرعا . ان تيارا قويا ينتقل من الارض الدافئة الى الأقدام المنطلقة ، ويسرى الى سلسلة الأيدى المتماســـكة الملتهبة . ان السلسلة ترتعش بالرقص ارتعاش جسم واحد بحركة دم واحد ويحمله ايقاع واحد . الشبــــاب يرقصون وقد دفعوا رءوسهم الى الوراء ، وشحبت وجوههم ، واهتزت أنوفهم ، والبنات يرقصن وقد احمرت خدودهن وانخفضت أعينهن على خجل ، مخافة أن تفضح نظراتهن اللذة التى يشيعها الرقص فيهن .

وما كاد الاحتفـــال يبدأ بعد الظهر حتى ظهر عند حافة سفح ميزالين رجال يرتدون ملابسهم الرسمية السوداء ، وتلتمع زيناتهم وأسيافهم فى أشعة الشمس الساطعة .

ان عددهم أكبر من العدد المعهود فى الدوريات العادية التى تتجول فى أسواق المواسم وتطوف فى أرجاء الريف . وها هم أولاء يشقون طريقهم قدما الى مهاد الخضرة الذى كان يجلس عليه الموسيقيون. وهاهى ذى الآلات الموسيقية تسكت واحدة بعد أخرى . وتتردد حلقة الرقص ، ثم تقف . وتسمع أصوات استيـــاء واستنكار من الشباب . انهم لايزالون متماسكين بالأيدى ، وقد بلغ بعضهم من شدةالاندفاع مع الحركة ومن فرط الامتلاء بالايقاع انه ظـــل يرقص وهو فى مكانه رقصا مصغرا ، بانتظار ان يستانف الموســــيقيون عزفهم . ولـــكن الموسيقيين لم يلبثوا أن نهضوا مسرعين ، وراحوا يدسون أبواقهم وكمنجاتهم فى أكياسها المشمعة . ومضى رجال الدرك نحو الخيام والأسر المتفرقة فوق العشب . كان الرقيب يقول كلمته المذهلة بصوت منخفض حيثما ذهب ؛ فكانت هذه الـكلمة تطفىء المرح فـــورا ، وتوقف الرقص ، وتقطع الاحاديث كانها سحر . فكلما اقترب من شخص من الأشخاص تغير وضع هذا الشخص ، وعدل عما كان بسبيله ، وحاول أن يلم أشياءه بأقصى سرعة ؛ ورحل . وتفرقت دائرة الراقصين والراقصات آخر من تفرق . لم يكونوا يريدون أن يتركوا رقصهم وسط الخضرة التى تحيط بهم من كل صوب ، ولا استطاعوا أن يتصوروا أن مرحهم ومسراتهم هذه قد انتهت حقا . ولـــكن أشد النـــاس ضراوة كانوا لايملـــكون الا ان

يتراجعوا أمام الوجه الممتقع والعينين المحتقنتين بالدم ، وجه رهيب الدرك وعينيه .

وعاد الناس من ميزالين خائبين حائرين ، سالكين الى المدينة الطريق اللاحب الواسع ، فكانوا كلما أوغلوا فى المدينة ازداد ما يسمعونه من همس مذعور مضطرب عن حادث الاغتيال الذى وقع هذا الصباح فى سارايفو، وعن مقتل الأرشيدوق فرانسوا فردیناند وزوجته ، وعما نظمته السلطات من ملاحقة للصربيين الذين تترقبهم فى كل جهة من الجهات . فلما وصلوا الى مقر القيادة العامة رأوا اوائل الأشخاص الموثقين يقادون الى السجن وبينهم القس الشاب ميلان .

هكذا استحال أصيل ذلك اليوم من أيام الصيف ، الذى كان ينبغى أن يكون يوم عيد وفرح ، استحال جوا مضطربا ومرارة وانتظارا خائفا وجلا .

وعلى الكابيا حل محل المرح والنشاط صمت كصمت الموت . لقد وضعت حراسة على الكابيا منذ الآن . وها هو ذا جندى مدجج بسلاحه الجديد يذهب ويجىء فى بطء من الصوفا الى موضع الغطاء الحديدى الذى يخفى مدخل العمود الملغوم . انه يسير خطواته الخمس أو الست فى غير كلال ولا ملال ، فكلما استدار ليغير اتجاه سيره ، التمعت حربته فى الشمس التماعا ساطعا .

ومنذ صباح الغد ظهر على الجدار فوق المسلة التى عليها الكتابة التركية ، اعلان جديد مطبوع بأحرف كبيرة ، ومحاط باطار أسود عريض، ينبىء الناس بحادث الاغتيال الذى وقع فى سارايیفو لولى العهد ، ويستنكر هذه الجريمة . ولكن أحدا لم يتوقف ليقرأ الاعلان ، بل كان الناس يمرون أمامه وأمام الخفير خافضى الرءوس ، يقطعون الجسر بأقصى سرعة يستطيعونها .

ومنذ ذلك اليوم ظل الخفير على الجسر لا يبرحه . وحياة المدينة كلها توقفت منذ ذلك اليوم دفعة واحدة ، كرقصة الكولو فى ميزالين ، ككل ذلك النهار من أنهر حزيران الذى كان يبشر بأنه سيكون عيدا فرحا سعيدا .

الأيام تتعاقب الآن غريبة عجيبة : انها تنقضى فى قراءة للصحف خرساء متوترة ، وفى تهامس ، وفى جو من الخوف والتحدى ، وفى اعتقال لأشخاص صربيين ولمسافرين مشبوهين ، وفى تعزيز متسارع للاجراءات العسكرية على الحدود . ان ليالى الصيف تمضى واحدة

بعد اخرى ، لكنها الآن خالية من الاغنيات ، خالية من اجتماعات الشبــاب على الـكابيا ، خالية من همسات الذين يسيرون مثنى مثنى فى الظــلام . والمدينة يرى فيهــا الجنود خاصة . حتى اذا جاءت الساعة السابعة من المساء ، وأخذت أبواق الثكنات الخشبية المقامة على بيكافانس وأبواق الثكنة الـكبرى قرب الجسر ، تدق اللحن النمسوى الحزين ، لحن منع التجول ، خلت الشــوارع من المـارة خلوا يشبه أن يـكون تاما .

انها لأيام حزينــة بالنسبة الى المحبين الذين كانوا يريدون أن يلتقوا وأن يتحدثوا دون أن يراهم أحد . وكان جلاسنتشانين يمر أمام بيت زوركا كل مساء . ان زوركا تجلس الى نافذة مفتوحة فى الطابق الأرضى المرتفع . وهناك كانا يتحدثان . الا أن الحديث قصير موجز لأن جلاسنتشانين مضطر أن يقطع الجسر وأن يعود الى أوكولشته قبل أن يخيم الليل تماما .

هكذا جاء جلاسنتشانين فى هذا المساء أيضا . انه شاحب الوجه، ممسك قبعته بيده . وطلب الى الفتاة أن تجىء الى الباب الكبير ، لأنه يريد أن يحدثها فى أمر من الأمور بصــوت خافت . ونزلت الفتاة مترددة ، ووقفت على عتبة الفناء فكانت فى مستوى الشاب . وأخذ الشاب يتحدث منفعلا ، بدمدمة لا تكاد تسمع . قال :

ــ قررنا ان نهرب هذا المساء . فلادومارتش وشخصان آخران . أظن ان كل شىء قد رتب ترتيبا مضمونا ، وأننا سنمر .. ولكن .. اذا لم يتح لنا أن .. اذا وقع شىء .. زوركا ؟

وانقطعت تمتمة الفتى . ان عينى زوركا قد أتسعتا ، فهو يرى فيهما الخوف والارتباك . وكان هو نفسه منفعلا مضطربا ، كأنما هو نادم على انه كلمها وعلى أنه جاء يستأذنها .

ــ قدرت أن من الأفضل أن أقول لك .

ــ لا شىء عن .. لا شىء عن أمريكا ؟

ــ لا تقولي « لا شىء » .. لو أنك وافقت على أن نتزوج ، حين عرضت عليك الأمر منذ شهر ، فلربما كنا الآن بعيدين عن هنا . على كل حال ، عسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لـكم . انك ترين الموقف . يجب أن أرحل مع الرفاق . لقــد نشبت الحرب منــذ الآن ، ومكاننا الآن جميعا هو الصرب . يجب أن أرحل يا زوركا . يجب أن أرحل ، هذا واجب . واذا بقيت حيا ، وتحررت بلادنا ، فلقد لا يكون من الضرورى عندئذ أن يذهب المرء الى تلك الامريكا

فيما وراء البحار ، سيكون لنا من بلادنا أمريكا خاصة بنا ، سيكون لنا وطن نعمل فيه عملا كثيرا ، عملا شريفا ، ونعيش فيه سعداء احرارا . وسنستطيع أن نعيش فيه نحن الاثنين معا ، اذا أنت أردت . ذلك رهن بمشيئتك . سوف أفكر فيك ، وأنت .. أحيانا ..

هنا أعوزت الكلمات الفتى ، فرفع يده فجاة ، ومر بها سريعا على شعر الفتاة الكستنائى الغزير . انها رغبته الكبرى منذ مدة طويلة ، أتيح له الآن أن يحققها كما يتاح لمحكوم بالاعدام أن يحقق رغبته قبل الموت . فتراجعت الفتاة مذعورة ، وظلت يده مرفوعة فى الهواء . وأغلق باب الفتاة بلا صرير ، وظهرت زوركا بعد لحظة فى النافذة شاحبة الوجه ، واسعة العينين ، مشبكة أصابعها فى تشنج . فمر الشاب قرب النافذة ورفع رأسه الى وراء ، فظهر لها وجهه مبتسما خاليا من الهم يكاد يكون جميلا . وكأنما كانت الفتاة تخشى أن ترى ماسيحدث بعد ذلك ، فانسحبت الى غرفتها التى كان الظلام قد اجتاحها . وهناك جلست على فراشها ، وخفضت رأسها وأخذت تبكى .

بكت أول الأمر فى رفق، ثم أخذ بكاؤها يشتد شيئا بعد شىء ، لأنها كانت تشعر بثقل هذا الموقف الذى لا مخرج منه . فكلما أغرقت فى البكاء وجدت مزيدا من الأسباب التى تدعو الى البكاء ، واشتد شعورها بأن كل ما حولها يأس قاتم . لا ، لن تجد مخرجا من هذا الموقف بحال من الأحوال ، ولن تستطيع أن تحزم أمرها فى يوم من الأيام : انها لن تستطيع أبدا أن تحب هذا النيقولا الطيب الشريف الذى يشرف على الرحيل ، الحب الذى يستحقه ، لا ولن ترى اليوم الذى يحبها فيه ذلك الانسان الذى لا يستطيع أن يحب أحدا . لن تعود تلك الأيام الجميلة الفرحة التى كانت لا تزال تشرق على المدينة فى السنة الماضية . ولن يستطيع أحد من رجالنا أن يفلت من هذا السياج من الجبال المعتمة ، ولا أن يرى أمريكا ، ولا أن يخلق هنا وطنا يعمل فيه المرء كثيرا ، كما قيل ، ولكن يتمتع فيه بالسعادة . لا ، لن يتحقق شىء من هذا فى يوم من الأيام .

وفى الغداة راج فى المدينة أن فلادومارتش ، وجلاسنتشانين ، وعددا آخر من الشباب هربوا الى الصرب . وبقى سائر الصربيين مع أسرهم وكل ما يملكونه ، فى الوادى الذى يغلى أشد الغليان،

كأنهم فى فخ . ان جو الخطر والتهديد يزداد كثافة فى المدينة يوما بعد يوم . وها هى ذى العاصفة تنفجر اخيرا على الحدود فى ذات يوم من أيام شهر تموز (يوليو) ، وهى العاصفة التى انتشرت بعد ذلك حتى شملت العالم كله ، وأصبحت مصير عدد كبير من البلاد والمدن ، ومصير الجسر الذى على نهر درينا ايضا .

وعندئذ انما بدأت ملاحقة الصربيين حقا ، وملاحقة كل ما يمت اليهم بسبب من الأسباب . ان الوحش الساغب الذى يعيش فى الانسان ولا يجرؤ أن يظهر الا اذا ازيحت حواجز العادات الحسنة والقوانين الطيبة ، قد انطلق الآن من عقاله . لقد أطلقت الاشارة ، وأزيحت الحواجز . وكما يقع كثيرا فى تاريخ الانسانية ، أصبحت أعمال العنف والنهب وحتى القتل من الامور التى يسكت عنها وتباح ، شريطة أن ترتكب باسم مصالح عليا ، وتحت ستار شعارات معينة ، وأن تنزل على عدد صغير ممن يسمون بأسماء خاصة وينتمون الى عقيدة معينة . ان الذين احتفظوا عندئذ بصحوة الفكر وظلت أعينهم مفتحة ، استطاعوا أن يشهدوا تحقق تلك المعجزة ، وأن يروا مجتمعا برمته يتحول بين عشية وضحاها . ففى خلال بضع لحظات أزيل كل الحى التجارى الذى كان يقوم على تقاليد يرجع عهدها الى قرون ، تقاليد ان اشتملت دائما على ضروب من الكره الخبيء والحسد والخرافات والتعصب الدينى والغلظة والقسوة ، فقد اشتملت أيضا على شجاعة وانسانية وميل الى القصد والنظام ، وهذه كلها عواطف تحصر تلك الغرائز السيئة والعادات الفظة الغليظة فى بعض الحدود فيمكن احتمالها ، ثم تنتهى الى تهدئتها واخضاعها للمصالح العامة التى تقتضيها الحياة المشتركة . ان رجالا كانت لهم الكلمة المسموعة فى الحى التجارى خلال أربعين عاما قد انقطعوا عن الوجود فى ليلة واحدة ، كأنما هم ماتوا جميعا ، وكأنما ماتت معهم العادات والمفاهيم والشرائع التى كانوا يجسدونها .

فمنذ غداة اعلان الحرب على الصرب أخذت عصابة من الشوتسكوريس (١) تطوف المدينة فى كل اتجاه من الاتجاهات. كان الغرض من تشكيل هذه العصابة التى سلحت على عجل أن تساعد السلطات فى مطاردة الصربيين . انها مؤلفة من غجر وسكيرين وتنابل آخرين ، من أناس يعادى أكثرهم المجتمع ويخرج على القوانين .

(١) بالالمانية فى النص ومعناها طابور الحماية .

هذا رجل يقال له هوزو كوكوشار ، وهو غجرى لا شرف له ولا مهنة ، وقد تآكل أنفه بتأثير مرض مخجل أصابه فى شبابه ، هذا هو يحتل اعلى الشارع العام فى الحى التجارى على راس عشرة من الحفاة ساحوا ببنادق قديمة من طراز فرندل مجهزة بحراب طويلة .

وازاء هذا التهديد ذهب بافلى رانكوفتش ، بصفته رئيس الاتحاد الصربى المكلف بادارة مدرسة الأبرشية ، ذهب مع أربعة آخرين من أهل الرأى المرموقين الى نائب المحافظ ، المسمى سابلياك. ان سابلياك هذا رجل بدين ، أصفر الوجه ، أصلع تماما ، من أصل كرواتى ، يشغل هذا المنصب منذ مدة قصيرة . انه عصبى . لم يكن قد نال قسطا كافيا من النوم ، فجفناه محتقنان ، وشفتاه جافتان لا دم فيهما ، وهو ينتعل حذاء ذا ساقين ، وعلى ياقة سترته الخضراء نيشان من لونين ، أسود وأصفر . استقبل نائب المحافظة الرجال الأربعة واقفا ، ولم يقدم اليهم مقاعد يجلسون عليها . فشرع بافلى رانكوفتش فى الكلام بصوت أصم غريب ، وقد امتقع لون وجهه وأصبحت عيناه أشبه بخطين اسودين مائلين:

ــ سيدى المحافظ ، انكم ترون ما يقع وما يتهيأ ، وتعرفون أننا معشر الصربيين من سكان فيشيجراد لم نرغب فى هذا ..

ــ أنا لا أعرف شيئا يا سيد ، ولا أريد أن أعرف شيئا . ولدى الآن اعمال اخرى أخطر شأنا من الاصغاء الى اقاويلكم . هذا كل ما عندى من كلام أقوله لكم .

كذلك قاطعه نائب المحافظ بصوت حانق .

فاستأنف بافلى رانكوفتش يقول بهدوء كأنما هو يريد بهدوئه أن يهدىء هذا الرجل المغتاظ المهتاج :

ــ لقد جئنا الى هنا لنعرض عليكم خدماتنا ، ولنؤكد لكم ..

ــ ليس بى أية حاجة الى خدماتكم ، وليس عليكم أن تؤكدوا لى شيئا . لقد أظهرتم فى سارايفو ما تجيدون القيام به .

فألح رانكوفتش يقول بذلك الصوت الهادىء نفسه وباصرار ما ينفك يزداد :

ــ اننا نريد فى حدود القانون ، أن ..

ــ هه !.. الآن تتذكرون القوانين .. ما هى القوانين التى تجرءون أن تتحدثوا عنها ؟

– قوانين الدولة يا سيدى المحافظ .. القوانين التى تنطبق على الجميع .

عندئذ اتخذ المحافظ فجأة هيئة الوقار ، كأنما هو هدأ قليــلا . فانتهز بافلى رانكوفتش هذه اللحظة القصيرة من الهدوء الذى ظهر فى وجه الرجل المهتاج فقال :

– سيدى المحافظ ، نريد أن نسألك هل نحن وأسرنا فى أمان على حياتنا وعلى أرزاقنا ؟ واذا لم تكن كذلك فما الذى يجب أن نفعله؟

فمد المحافظ عندئذ يديه وهو يقلب راحتيهما نحو رانكوفتش ، ورفع كتفيه ، وأغمض عينيه ، وعض على شـــــفتيه الرقيقتين الشاحبتين عضا قويا .

ان بافلى رانكوفتش يعرف حق المعرفة هذا التعبير الخاص الذى لايرحم .. هـذا التعبير الأصم الأبكم الأعمى الذى يصطنعه رجال الحكومة فى اللحظات الخطرة . وسرعان ما أدرك أن الحديث مع هذا الرجل لن يخرج منه بعد ذلك شىء .

وعاد المحافظ فخفض ذراعيه ، ورفع راســه ، وقال بصــوت أرفق قليلا :

– ان السلطات العسكرية هى التى تعين لـكل انسان ما يجب عليه أن يعمله .

فكان رانكوفتش فى هـــذه المرة هو الذى باعد ذراعيه ، واغمض جفنيه ، ورفع كتفيه ، ثم قال بصوت رصين متشوه :

– شكرا سيدى المحافظ .

وانحنى الرجال الأربعة انحناء صلبا أخرق ، وخرجوا من عنـد المحافظ خروج من حكم عليه بالاعدام .

ان الحى التجارى يفور ويغلى ، ويزخر بالاجتماعات السرية .

ففى دكان على خجا جلس عدد من أعيان أتراك المدينة ، نائل بك تفرتكوفتش ، وعثمان آغا شابانوفتش ، وصولى آغا ميزيلديتش . انهم شاحبو الوجوه مهومين تعبر وجوههم الساكنة المتجمدة عما تعبر عنه وجوه الذين سيفقدون شيئا ما ازاء أحداث مفاجئة وتبدلات كبيرة . انهم هم الذين دعتهم السلطات الى أن يكونوا على رأس الشوتسكوربس .

وقــد اجتمعوا الآن هنــا ، كما لو كان اجتماعهم بمصادفة ، ليتفقوا على ما سيعملونه دون أن يلفتوا اليهم نظر أحد . ان بعضهم يرى أن يوافقوا ، وبعضهم الآخر يرى أن يمتنعوا . وكان على خجا

يتكلم مهتاجا أحمر الوجه متقد العينين على عادته ، فيرفض رفضا باتا فكرة أى انضمام الى الشترتسكوربس على أى حال من الاحوال وكان يصب غضبه خاصة على نائل بك الذى كان من رأيه أن يكونوا على رأس قطعان من المتطوعين المسلمين بصفتهم من الوجهاء ، فكان على خجا يقول له :

ـ أما أنا فلن أقحم نفسى فى هذه الأمور ماحييت . ولو كان لك ذرة من عقل لما أقحمت نفسك فى هذه الشئون أنت أيضا . الا ترى ان المسيحيين يستخدموننا فى قتالهم وأن الطامة الكبرى ستقع على رءوسنا نحن فى آخر الأمر ؟

وبتلك الفصاحة البليغة المتدفقة التى رأيناها فى كلامه يوم ناقش فى الماضى على الكابيا عثمان قزه مانليا ، كان على خجا فى هذه المرة يحاول أن يبرهن على أن الأتراك لن يجنوا خيرا من اى جهة من الجهتين ، وأن تدخلهم فى هذا الأمر لن يعود عليهم الا بالضرر:

ـ ان أحدا لايسألنا شيئا ولا يقيم لنا أى وزن منذ مدة طويلة. لقد دخل النمسويون الى البوسنة ، دون أن يسألنا السلطان ودون أن يسألنا الامبراطور : هل تسمحون بهذا أيها البكوات والسادة الأتراك ؟ ثم ثار الصربيون وأهل الجبل الأسود الذين كانوا بالأمس عبيدا لنا ، فاستولوا على نصف الأملاك التركية ، فلم يتفضل أحد حتى بالنظر الينا . والآن يضرب الامبراطور الصربيين ، دون أن يسألنا أحد رأينا ، وانما يعطوننا عددا من البنادق والسراويل ، ويريدون أن نكون للنمسويين كـكلاب الصيد ، نطارد الصربيين حتى لا تتمزق سراويل النمسويين وهم يتسلقون جبل شارجان . ولكن كيف لا يخطر ببالك أيها المسكين أن تتساءل : لماذا يطوقونك الآن بهذه الحظوة التى تحطم أضلاعك فى حين انهم ظلوا سنين طويلة لا يسألونك شيئا فى الخطير من الأمور ؟ انها يا صاحبى حسابات بارعة ، والحصيف من لا يتدخل فى الأمر أكثر مما ينبغى . لقد أخذ الناس هنا على الحدود يبقر بعضهم بطون بعض ، ولكن من ذا الذى يعلم الى أين سيؤدى هذا كله . لاشك أن هناك أحدا يختبىء وراء بلاد الصرب هذه . لايمكن أن يكون الأمر غير هذا . ولكنك من مكانك على نافذة بيتك فى نيزوكه لا ترى أمامك الا جبلا ، ولا يمتد بصرك الى أبعد من هذه الكومة من الأحجار . دعك مما شرعت فيه ، ولا تذهب الى الشترتسكوربس . ولا تدفع غيرك الى الالتحاق به . خير لك أن تستغل العبيد العشرة الذين بقوا لك ،

الى أن يعطوا شيئا .

كان جميع المستمعين صامتين ساكنين متجهمين . كان نائل بك صامتا أيضا . كان واضحا ان كلام على خجا يجرحه رغم أنه يحاول أن يخفى ذلك . كان شاحبا كأنه ميت ، يدير فى راسه قرارا عزم عليه أمره . ان على خجا قد هز مستمعيه جميعا عدا نائل بك ، هزهم وثبط عزيمتهم . انهم الآن يدخنون وينظرون صامتين الى هذه القوافل التى لاتنقطع ، قوافل العربات والخيول المحملة التى تجتاز الجسر . ثم نهضوا واحدا بعد آخر مستأذنين بالانصراف .

ان نائل بك آخر من نهض . وجوابا على تحياته المظلمة ، نظر على خجا فى عينيه مرة أخرى ، وقال له بلهجة تشبه أن تكون حزينة :

ـ أرى انك عازم على الذهاب . انه يغريك أن تعرض حياتك للخطر . انك تخشى ان يتفوق عليك الفجر . ولكننى أطلب اليك أن تتذكر ما كان يقوله الشيوخ منذ زمان طويل : ليس هذا أوان الموت ، بل اوان برهان المرء على قيمته . نعم هذا أوان برهانك على قيمتك .

ان ساحة السوق التى تفصل دكان على خجا عن الجسر مزدحمة بالعربات والخيل والجنود من جميع الأنواع ، وبرجال الاحتياط الذين يجيئون الى الشرطة لايداع تصاريحهم . ومن حين الى حين يصل رجال من الدرك يسوقون جماعة من الصربيين الموثقين من الفلاحين أو سكان المدن . ان الهواء مليء بالغبار . والناس يتكلمون بصوت أعلى مما تقتضيه أحاديثهم ، وينتقلون بسرعة أكبر مما تحتاج اليه أعمالهم . ان وجوههم المحمرة يسيل منها العرق غزيرا ، والشتائم والسباب تدوى فى الفضاء بجميع اللغات . ان الخمرة والأرق وهذا الاضطراب الأليم الذى يستولى على الناس دائما عند اقتراب خطر وعند وقوع أحداث دامية ، ان هذا كله يجعل أعين جميع الناس فى توهج واتقاد .

وفى وسط الساحة أمام الجسر رأسا أخذ عدد من جنود الاحتياط المجريين الذين يرتدون ملابس عسكرية جديدة ، أخذوا يقلمون بعض جذوع الأشجار . المطارق تطرق سريعة ، والمناشير تنشر . ويجرى فى الساحة همس يقول : انهم بسبيل نصب مشنقة . وحول الجنود تجمع الصبية . ان على خجا جالس فى دكانه . هاهو ذا يرى الجنود ينصبون أولا جذعين قائمين ، ثم يصعد أحد جنود الاحتياط ، وهو رجل ذو شاربين كبيرين ، فيضم الجذعين القائمين

بجذع ثالث أفقى .

ان النـاس يتزاحمون على المشنقة تزاحمهم على حلوى توزع ، ويشكلون حولها دائرة من اجسامهم . ان أكثر المتجمعين هم من الجنود ، غير أن بينهم ايضا عددا من فقراء الفـلاحين الأتراك ، ورجالا من غجر المدينة . وفى لحظة من اللحظات شـق طريق بين صفوف المحتشدين، وجيء بمنضدة وكرسيين، للضابط وسكرتيره. وعندئذ جاء جنود الشوتسكوربس يسوقون فى أول الأمر رجلين من الفلاحين ، ثم رجلا من سكان المدن . اما الفـلاحان فهما عمـدتا قريتين من قرى الحدود ، بوزدرتشتشو وكامنتسا . وأما المدنى فهو رجل يقال له فايو ، أصله من بلدة ليكا . انه مقاول يسكن هذه المدينة منذ مدة طويلة وقد تزوج فيها . ان الأشخاص الثلاثة مقيدون ، مروعون ، يغطيهم الغبار . وأخـذ الطبـل يدق دقا قويا فكان صوته وسط هذا الغليان العام والاضطراب الشـامل أشـبه بقصف الرعد فى مكان بعيد . وخيم الصمت فى الدائرة التى تحيط بالمشنقة . وأخذ الضابط ، وهو ملازم من ضبـاط الاحتيـاط المجريين ، أخذ يقرأ احكام الاعدام باللغة الألمانية ، وأخـذ أحـد الرقباء يترجم ما يقرؤه الضابط .

ان المجلس الحربى قد حكم على هؤلاء الثلاثة بالاعدام جميعا ، لأن شهودا شهدوا بعد حلف اليمين بأنهم رأوهم فى الليل يعطون اشارات ضوئية الى جهة الحدودالصربيـة . وينبغى أن يتـم الاعدام على مرأى من الناس فى الساحة قرب الجسر.كان الفلاحان صامتين ، تصطفق أجفانهما كأنهما فى حيرة ، وكان فايو يمسـح العرق عن وجهه ، ويؤكد بصوت رقيق حزين انه برىء . كان يحاول بعينيه المحملقتين المجنونتين أن يبحث عن شخص يستطيع أن يؤكد له أنه برىء .

وانهم ليهمون أن ينتقلوا الى تنفيذ الحكم اذا بجندى أشقرأحمر، قصير متباعد الساقين ، يشق لنفسـه طريقـا بين الحشـد . انه جوستاف الذى كان فيما مضى « جرسونا » فى فنـدق لوتيكا ، والذى يعمل الآن «قهوجيا» فى القسم الأدنى من الحى التجارى. انه يرتدى ملابس عسكرية جديدة ويحمل رتبة عريف .كان وجهه قرمزيا وكانت عيناه محتقنتين بالدم على عهده بل يزيد . وتبع ذلك كلام وأخذ ورد . حاول الرقيب ابعاده ، لـكن القهوجى القاتل أبى أن يبتعد ، وأعول يقول بالألمانية بصوت سكير :

ــ أنا هنا عميل مخابرات منذ خمسة أعوام ، وموضع ثقة أرفع الأوساط العسكرية . ولقد وعدت بأن أمكن من شنق اثنين من الصربيين بيدى متى حانت الفرصة . انكم تجهلون من أنا . لقد اكتسبت هذا الحق . وهأنتم الآن ..

وجرت فى صفوف الحشد دمدمات وهمسات . واحتار الرقيب ماذا يفعل . وزادت حدة جوستاف . انه يحاول بأى ثمن أن يمكن من الرجلين ليتولى شنقهما بيديه . وعندئذ نهض الملازم ، وهو رجل نحيل أسمر مهيب قد بدا عليه حزن شديد كأنه هو المحكوم عليه بالاعدام، وهرب الدم من وجهه تماما ، فما كان من جوستاف رغم أنه سكران ، الا أن وقف الوقفة العسكرية . غير أن شاربيه الدقيقين كانا يرتعشان ،وكانت عيناه تدوران تارة الى يمين وتارة الى شمال . اقترب الضابط من وجه جوستاف القرمزى اقترابا شديدا كأنه يريد أن يبصق عليه ، وقال :

ــ اذا لم تنقلع من هنا ، لأصدرن أمرى بأن تساق الى الحبس مقيدا بالسلاسل . وسوف تمثل أمام المحكمة غدا على كل حال . فهمت ؟ والآن .. امش .. امش ..

كان الضابط يتكلم بالألمانية بلهجة مجرية ، وكان صوته خافتا كل الخفوت ، غير انه يبلغ من شدة الحزم والحنق أن « القهوجى » السكير لم يلبث أن انحنى واختفى بين الحشد وهو يكرر التحية العسكرية بغير انقطاع ، ويتمتم بكلمات اعتذار غير مفهومة .

وعاد انتباه الناس ينصب مرة أخرى على المحكوم عليهم بالاعدام. أما الفلاحان وكلاهما رب أسرة ، فلم يكن وضع أحدهما يختلف عن وضع الآخر أى اختلاف. انهما يرتعدان. وحدة الشمس والحرارة الخانقة التى تخرج من الحشد الكثيف تجعلان أعينهما تطرف ، وحواجبهما تقطب ، كأن ذلك كان كل ما يزعجهما ويعذبهما . وأما فايو فكان يؤكد بصوت ضعيف شاك أنه برىء ، وأن منافسه هو الذى شكاه زورا وبهتانا ، فى حين أنه ، هو ، لم يخدم فى الجيش ولا سمع فى حياته أن فى الامكان نقل اشارات بالضوء .

ان فايو يعرف الألمانية قليلا ، فكان يصدر كلماته واحدة بعد أخرى بصوت يائس ، محاولا أن يجد تعبيرا مقنعا قد يوقف هذا التيار الحانق الذى يجرفه منذ أمس ويهدده بانتزاعه من هذا العالم ، رغم أنه برىء كل البراءة . كان يقول بالألمانية :

ــ سيدى الملازم .. ناشدتك الله .. برىء .. أولاد كثيرون ..

برىء .. كلها افتراءات .
ان قابو يختــار كلماته كأنما هو يبحث عن الـكلمة الصــادقة التى تنقذه .
وكان الجنود قد اقتربوا من الفلاح الأول . فنزع الفلاح عن رأسه طاقيته الفراء بسرعة ، واتجه ببصره نحو جبل الميدان حيث تقوم الـكنيسـة ، فرسم اشارة الصليب مرتين فى حرارة . ولكن الضابط أمر الجنود بغمزة منه أن ينتهوا اولا من فايو . فلمــا رأى الرجل أن دوره جاء رفع ذراعيه الى السماء يائسا ، وأخذ يبتهل ويتضرع .
ــ لا .. لا .. أناشدك الله .. سيدى الملازم .. أنت تعلم .. افتراءات فقط .. يارب .. افتراءات ..
هكذا راح فايو يصرخ ، غير أن الجنود كانوا قد أمسكوا بساقيه وجذعيه ورفعوه الى السدة التى تحت الحبل .
كان الحشد يتابع هذا كله محتبس الأنفاس ، كأنه يشهد لعبة بين المقاول البائس والضابط الملازم ، ويرتعش من شدة تشوقه الى معرفة أيهما سيكون الرابح وأيهما سيكون الخاسر .
وكان على خجا الى ذلك الحين لا يسمع الا أصواتا غيرمفهومة ، ولا يخطر بباله شىء مما يجرى فى هذه الدائرة المـكونة من الحشد الحافل ، فاذا هو فجأة يلمح وجه فايو المذعور مرتفعــا فوق جميع الرءوس ، فما كان منه الا أن أغلق دكانه بوثبة واحــدة ، رغم ان السلطات العسكرية كانت قد أصدرت أمرا قاطعا بأن تظل جميع الدكاكين مفتوحة .
وظلت تصل الى المدينة قطعات جديدة وذخائر ومؤن وتجهيزات ، لا بالقطار المرهق فحسب ، بل كذلك من الطريق المار بروجاتتسا . ان عربات وخيولا تعبر الجسر ليل نهار ، فأول شىء تلقــاه عند الخروج من الجسر والدخول فى المدينة ، هوهؤلاء الثلاثة المشنوقون فى الساحة . والشوارع المزدحمة تضيق بطوابير الجند ، وكل طابور يتلبث مدة من الوقت على الجسر أو فى الســاحة ، قرب المشنقة العالية قمتها فى الفضاء .
والرقباء ينتقلون على أحصنتهم بين العربات والخيول المثقــلة بالأحمال ، وقــد غطــاهم الغبــار ، واحمرت وجوههم ، وبحت أصـــواتهم من فرط الصراخ والغضب ، وراحوا يحركون أيديهم بايعازات حانقة ساخطة ويشتمون بجميع لغات المملـكة النمسوية

الحجرية جميع الأمور المقدسة من جميع الأديان المعروفة .

وبعد ثلاثة أيام أو أربعة ، فى ساعة مبكرة من الصباح ، بينما كانت قوافل عسكرية جديدة تعبر الجسر من جديد ، وتسير بطيئة خلال مركز المدينة الضيق ، سمع فى المدينة صفير قوى حاد غير مألوف ، ثم اذا بقذيفة تسقط على افريز الجسر فى وسطه تماما أمام الكابيا ، فتناثرت شظايا من الحديد وقطع من الحجارة على الخيل والناس ، فحدث هرج ومرج وتصادم ، وجمحت الخيل ، وراحت الأرجل تتسابق فى الفرار ، فبعضهم هرع الى الأمام نحو مركز المدينة ، وبعضهم أسرع يجرى فى الاتجاه المقابل راكضا الى الطريق الذى منه أتى . وفى هذه اللحظة نفسها سقطت ثلاث قذائف أيضا ، اثنتان فى الماء ، وثالثة على الجسر بين الناس والخيل مرة أخرى . فما هى الا طرفة عين حتى خلا الجسر ، فما ترى فيه الآن الا بقعا سوداء هى العربات المحطمة والخيول النافقة والقتلى .

واندفعت مدفعية الميدان النمسوية تقصف من «صخور يونوكو» البطارية الصربية التى كانت ترسل قذائفها من الجبل ، ثم أخذت تضرب بقنابلها القوافل الهاربة المشتتة على جهتى الجسر .

ومنذ ذلك اليوم أصبحت مدفعية الميدان المرابطة فى بانوس تستهدف الجسر والثكنة التى تقوم قربه . وما هى الا بضعة أيام حتى سمع عند الصباح دوى جديد آت من شرق جوليش . ان الدوى هو الآن أبعد ، لكنه أعمق . وأخذت القذائف تلعلع فوق المدينة أقوى وأعنف . انهما مدفعان يرسلان قذائفهما الى الجسر . سقطت القذائف الاولى فى نهر درينا ، ثم فى الفسحة التى أمام الجسر ، فأحدثت تخريبا فى البيوت المجاورة ، وفى فندق لوتيكا والنادى العسكرى ، ثم أخذت القذائف تصوب الى الجسر ، والى الثكنة تصويبا أدق ، فتسقط عليهما فى فواصل منتظمة ، فما انقضت ساعة الا وكانت الثكنة تشتعل . ومات الجنود الذين حاولوا أن يطفئوا الحريق ، ماتوا برصاص الرشاشات التى كانت تطلق نيرانها من بانوس . وأخيرا تركت الثكنة وشأنها ، فاحترق منها أثناء حرارة النهار كل ما كان فيها خشبا ، وكانت القذائف تسقط على الأنقاض المشتعلة ، من حين الى حين ، فتهدم داخل المبانى .

هكذا هدم النزل الحجرى مرة ثانية ، هكذا استحال النزل

الحجرى مرة ثانية الى ركام من حجارة .
وبعد ذلك استمر المدفعان يطلقان قذائفهما من جوليش على الجسر ، وخاصة على عمود الوسط منه . فكانت القذائف تسقط تارة فى النهر ، عن يمين الجسر أو عن شماله ، وتارة على الجسر نفسه ، ولكن لم تسقط أية واحدة منها على الغطاء الحديدى الذى يخفى الفتحة المؤدية الى داخل عمود الوسط الذى فيه اللغم.
واستمر القصف عشرة أيام ، لكنه لم يحدث فى الجسر أضرارا خطيرة . كانت القذائف تصطدم بالأعمدة الملساء والقناطر المدورة ، فترتد عنها وتنفجر فى الهواء دون أن تترك فى جدران الجسر من آثار غير خدوش بيضاء لا تكاد ترى . وكانت شظايا القنابل تتواثب على الجدران الملساء المتينة كأنها البرد . ان القذائف التى وقعت على أرض الجسر كانت هى القذائف الوحيدة التى تركت فى الجسر بعض الآثار ، اذ خلفت فى أرضه حفرا غير عميقة وشقوقا ، لكن هذه الحفر وهذه الشقوق لا يمكن أن يراها المرء الا اذا كان يجتاز الجسر .
هكذا أثناء هذه العاصفة الجديدة التى هبت على المدينة ، فقلبت العادات القديمة واجتثتها وهدمت الكائنات الحية والأشياء الجامدة ، ظل الجسر ناصع البياض قويا لا سبيل الى ايذائه ، كما كان كذلك دائما .

الفصل الثالث والعشرون

انقطعت كل حركة كثيفة فوق الجسر أثناء النهار بسبب القصف المتواصل . ان المدنيين يجتازون الجسر أحرارا طلقاء ، بل ان بعض العسكريين أيضا يقطعونه راكضين واحدا بعد واحد . ولكن متى ظهرت منهم جماعة كبيرة بعض الشيء ، أخذت مدافع الشرابنل تطلق قذائفها من جبل بانوس . وبعد بضعة أيام عرف الناس عددا من القواعد المطردة فى هذا المضمار : لاحظوا متى يكون اطلاق النار كثيرا ومتى يكون قليلا ومتى ينقطع انقطاعا تاما ، فأصبحوا يراعون هذه الملاحظات ، فينتقلون ماضين الى أعمالهم المستعجلة اذا لم يصدهم عن ذلك الخفراء النمسويون .

كانت بطارية بانوس لا تطلق نيرانها الا فى النهار ، ولكن المدافع كانت تطلق قذائفها فى الليل أيضا ، لتمنع حركة القطعات ومرور القوافل من احدى جهتى الجسر الى الجهة الأخرى .

والسكان الذين تقع بيوتهم فى مركز المدينة قرب الجسر أو قرب الطريق المؤدية الى المدينة ، قد انتقلوا مع أسرهم الى حى الميدان أو الى أحياء أخرى نائية ، ضيوفا على أقارب أو أصدقاء ، ليكونوا فى مأمن من القنابل . ان هذا الهروب مع الأطفال والمتاع الضرورى يذكر بتلك الليالى المؤلمة التى كان الطوفان الكبير يكتسح فيها المدينة . غير أن الطوائف الدينية المختلفة لا تختلط الآن ، ولا يجمع بينها شعور التضامن فى المحنة المشتركة . ان الناس الآن لا يجتمعون على اختلاف الملل ليلتمسوا فى الحديث سندا يشد ازرهم وطمأنينة تشيع الهدوء فى قلوبهم كما كانوا يفعلون أيام الطوفان . ان الأتراك قد ذهبوا الى بيوت تركية ، وان الصربيين قد ذهبوا الى بيوت صربية منبوذين كأنهم مصابون بالطاعون . على أن الناس جميعا ، رغم انقسامهم هذا الانقسام ورغم انفصالهم هذا الانفصال ، كانوا يعيشون على نحو واحد تقريبا . انهم مكدسون

فى بيوت ليست بيوتهم ، لايعرفون كيف ينفقون الساعات الطويلة ، ولا ماذا يصنعون بما فى رءوسهم من أفكار سود مهمومة فلقة . أنهم متعطلون عن العمل ، متدليه أذرعتهم كمن الت بهم كارثة ، خائقون على حياتهم ، قلقون على أرزاقهم ، معذبون بآمال ورغبات متناقضة يخفيها كل فريق منهم فى صدره ولا يفصح عنهـا .

وكان المسنون من الفريقين يحاولون ، كما كانوا يفعلون فى أيام الفيضانات الكبرى ، أن يسروا عمن حولهم بأمازيح وأقاصيص ، مصطنعين هدوءا كاذبا ورباطة جأش لا وجود لها فى قرارة نفوسهم . ولكن كان واضحا ان الأمازيح المصطنعة القديمة لا تجدى فى مثل هذا النوع من الشقاء الذى ينزل الآن . لقـد زال عن الأقاصيص القديمة لونها ، وفقدت النكت العتيقة مذاقها ومعنـاها . وليس سهلا ايجاد أقاصيص أخرى ، ولابد لذلك من وقت .

وفى الليل،كان الناس يتظاهرون بالنوم ، رغم ان أحدا لايستطيع أن يغمض جفنيه . وكان الناس يتحدثون همسا ، رغم أن أحدا لا يعرف ما شأن هذا الاحتراس ، بينما تدوى طلقات المدافع فى كل لحظة ، المدفع الصربى تارة ، والمدفع النمسوى تارة أخرى . وقد استقر الخوف من « اعطاء اشارات ضـوئية للعدو » ، رغم أن أحدا لا يعرف كيف تعطى هذه الاشارات وما معنى ذلك على وجه الدقة . غير ان الخوف قد بلغ من الشـدة أن أحدا لا يجرؤ أن يشعل عود ثقاب . فاذا أراد الرجال أن يدخنوا حبسـوا أنفسهم فى حجرات صغيرة محكمة الاغلاق لا نوافذ لها ، أو غطوا رءوسهم بغطاء وراحوا يدخنون وهم على هـذه الحال . والحرارة الثقيلة مرهقة ، والناس جميعا يستحمون فى العرق ، ولكن جميع الأبواب مغلقة وجميع النوافذ موصدة مسدلة ستائرها . ان المدينة أشبه بانسان شقى يتلقى ضربات لا يستطيع أن يدفعها عن نفسه ، فهو لذلك قد وضع يديه على عينيه وأخذ ينتظر . ان جميـع البيوت تبدو كأنها موصدة على أموات . ذلك أن الذى يريد ان يبقى حيا كان لابد من التظاهر بالموت ، وحتى هـذه الوسيلة لم تكن تجدى نفعا فى جميع الأحوال .

وكان الجو فى بيوت المسلمين أملأ بالحياة وأدنى الى الارتياح .

ان هناك كثيرا من غرائز القتال القديمة ، لـكن هـذه الغرائز قد استيقظت فى غير أوانها حائرة مقصـوصة الجناح فى هذا الصراع الذى يدور فوق رءوسهم بين خصـمين كلاهما مسيحى . غير أن

هناك كذلك هموما كبيرة خبيثة ، وان هناك أيضا لمصائب لايعرفون لها حلا ، ولا يرون منها مخرجا .

ان فى بيت على خجا القائم تحت القلعة لمدرسة برمتها . فالى أبنائه ، وهم وحدهم كثير ، قد أنضم الآن أولاد تسعة هم أبناء موئى آغا موتابدينش الذين ليس بينهم الا ثلاثة كبار ، والباقون لايزالون صغارا اذا وقف بعضهم الى جانب بعض فى صف واحد رأيت كلا منهم يصل الى مستوى الاذن من قامة أخيه . ومن أجل الا يكون هناك حاجة الى مراقبتهم والى استدعائهم فى كل لحظة من فناء البيت ، حبسوا جميعا مع أولاد على خجا فى قاعة كبيرة طرية . فهناك كانوا يصطرعون مع أمهاتهم وأخواتهم فى تزاحم وتصادم وصياح .

ان موئى آغا موتابديتش هذا الذى ينسب الى بلدة أوبتسه ، كان فى الماضى ساكنا من سكان تلك البلدة (سنعرف بعد قليل لماذا وكيف) . انه رجل طويل القامة ، جاوز الخمسين منعمره ، أشيب ، أقنى الانف ، قد حفرت وجهه الغضون ، خشن الصوت ، عنيف الحركات قويها . وهو يبدو أكبر سنا من على خجا ، مع انه أصغر منه بعشر سنين . انه يبقى فى البيت مع على خجا ، يدخن بلا انقطاع ، ولا يتكلم الا قليلا من حين الى حين ، غارقا فى أفكاره التى تظهر خطورتها فى وجهه وفى كل حركة من حركاته . انه لا يستقر فى مكان واحد . وها هو ذا ينهض ، ويمضى الى الباب ، ويأخذ ينظر من الحديقة الى الروابى المحيطة بالمدينة ، من جهتى النهر ، ويظل على هذه الحال رافع الرأس يتفرس بنظراته فى الأفق ، كأنما هو يرقب سوء الجو . وها هو ذا علىخجا يلحق به ، فهو لا يحب أن يدعه وحيدا ، ويحاول دائما أن يسرى عنه وأن يهدىء من روعه .

هناك ، فى الحديقة المنحدرة انحدارا وعرا بعض الوعورة ، الجميلة الواسعة مع ذلك ، تخيم سكينة الصيف . ثمار الخوخ قد قطفت وفرشت على الأرض ، وأزهار دوار الشمس تفيض قوة ، وحول أوراقها السوداء يدندن النحل . وعلى الأطراف بدأت بعض الأزهار الصغيرة تنعقد بذورا منذ الآن . ان المرء يطل من هذا المرتفع على المدينة المنبسطة عند ملتقى النهرين ، درينا ورزاف ، اللذين يحيقان بها مع سلسلة من الروابى تتفاوت ارتفاعا وتتنوع أشكالا . وفى المنخفضات حول المدينة وعلىجنبات الروابى المنحدرة

تتعاقب أشرطة منتظمة من حقول الشعير الناضج والذرة الخضراء ، والبيوت البيضاء تسطع ، والغابات التى تغطى الذرى تشكل كتلا قاتمة . والقصف بالقنابل ، وهو هنا معتدل من الجبهتين ، لايبدو حين يسمع من هذا المكان الا كطلقات المدافع التى تطلق فى أيام الأعياد ابتهاجا ، لأن فوقها مساحات كبيرة من الأرض والسماء فى سكينة هذا اليوم من أيام الصيف عند الصباح .

وها هو ذا لسان موئى آغا تنحل عقدته . رغم كل ما يعانيه من هم وكرب ، فيرد على الكلمات الطيبة التى يقولها له على خجا ، ويقص عليه قصة حياته ، لا لأن على خجا يجهلها ، بل لأنه لابد له هنا ، فى الشمس ، من أن يتخفف من الحبل الذى يشد على عنقه ويخنقه خنقا . ان مصيره يتحدد هنا ، فى هذا المكان نفسه ، الآن ، فى كل لحظة من لحظات هذا اليوم الصائف ، وعند كل طلقة تخرج من فوهة المدفع فى هذه الجهة وفى تلك .

انه لم يكن قد جاوز الخامسة من عمره ، حين اضطر الأتراك الى الخروج من مدن الصرب . وقد سافر المسلمون أيامئذ الى تركيا ، ولكن أباه ، صولى آغا موتابديتش ، الذى كان لايزال شابا ، لكنه شخص مرموق يعد لمركزه من عيون الأتراك ، قرر أن يجيء الى البوسنة التي اليها يرجع أصل أسرته من قديم الزمان . فكدس أولاده فى قفف ، وترك أويتسه الى الأبد ، حاملا معه ما يستطيع المرء فى مثل هذه الظروف أن يجمعه من مال من بيع أرضه وبيوته ، وهرب مع بضع مئات من الهاربين من تلك المدينة نفسها ، هرب الى البوسنة التى كانت لا تزال فيها حكومة تركية ، واستقر فى فيشيجراد التى يسكنها منذ مدة طويلة فرع من فروع أسرة موتابديتش .

فما ان قضى فى هذه المدينة عشر سنين ، وبدأ مركزه يقوى فى الحى التجارى ، حتى جاء الاحتلال النمسوى . وصاحبنا رجل صلب لا يذعن للظروف ، ولا يتلاءم معها ، فقال فى نفسه : أأفر من سلطة مسيحية لأخضع لسلطة مسيحية أخرى ؟ وما انقضى على وصول النمسويين عام واحد ، حتى كان يترك البوسنة مع جميع ذويه من جديد ، كما تركتها فى الوقت نفسه أسر أخرى كانت لا تريد أن تقضى حياتها فى بلاد « تدق فيها النواقيس » ، ومضى يقيم فى بلدة نوفا فاروخ من السنجق (كان موئى آغا أيامئذ فتى لايزيد عمره على خمسة عشر عاما الا قليلا) . وهناك استأنفه

صولى آغا موتابدتش تجارته ، وهناك انما ولد سائر أولاده . غير انه لم يستطع يوما أن يتأسى عما تركه فى أويتسه ، ولا أن يألف هؤلاء الناس الذين يعيشون فى السنجق ، ولا أن يعتاد هــــذه الحياة الجديدة فى السنجق . وكان هذا هو السبب فى أنه مات قبل الأوان . وكانت له بنـات على جانب عظيم من الجمـال وحسن السمعة ، فوفقن فى زواجهن ، واستطاع الأبناء أن يربوا ما تركه لهم أبوهم من ارث صغير . ولـكن ما ان أخذوا يتزوجون واحدا بعد آخر ، وما ان اخذت جذورهم فى هذه البيئة الجديدة تشتد وتقوى ، حتى قامت حرب البلقان سنة ١٩١٢ . فاشترك موئى آغا فى حرب المقاومة التى وجهتها القطعات التركية قرب نوفا فاروخ الى جيوش الصرب والجبل الأسود . ان تلك المقـاومة لم يطـل عهدها ، ولـكن لا يمكن أن يقال عنها انها كانت ضعيفة وانها أخفقت بحد ذاتها . ومع ذلك فان القطعات التركية جلت عن السنجق ، كأن ذلك قد تم بمعجزة ، كأن مصير الجيوش ومصير مثل هذا العدد الـكبير من ألوف الناس لم يكن يتقرر هنا ، بل فى مكان بعيد ما ، دون أن يكون لذلك أى شأن بأية مقاومة سواء أكانت قوية أم كانت ضعيفة . فلما لم يستطع موئى آغا أن ينتظر العدو الذى بسببه فر من أويتسه طفلا ، والذى قاتله الآن فى غير طائل ، ولما لم يستطع أن يهرب الى مكان آخر فى بلد آخر ، قرر أن يعود الى البوسنة وأن يعيش فى ظل تلك السلطة نفسها التى هرب منها أبوه. وهكذا هاجر مرة ثالثة عائدا مع أسرته الى هذه المدينة التى قضى فيها طفولته .

وحاول خـلال هاتين السنتين الأخيرتين ،لا بما معه من مال ، وبمساعدة اتراك فيشيجراد الذين كان له بينهم أقارب ، حاول أن يقوم بمشروع من المشاريع . ولـكن الأمر لم يكن سهلا، فقد عرفنا كيف كانت الحياة فى هذه الفترة ضنينة وكيف كانت الأحوال قلقة غير مستقرة ، وكيف كان الربح عسيرا حتى على أولئك الذين كانت أوضاعهم راسخة وطيدة . فكان موئى آغا يعيش مما يملك من مال، بانتظار أن تأتى ظروف أفضل من هذه الظروف وأقرب الى السلم والهدوء . وها هو ذا الآن ، بعد أن عاش خلال سنتين حيـــاة قاسية هى حياة لاجىء من اللاجئين ، يرى العاصفة تهب على المدينة هذا الهبوب الصاعق ، فلا يستطيع أن يفعل شيئا ، ولا يدرى ماذا يمكنه أن يعمل . ان كل ما قد بقى له أن يعمله هو أن يرقب

تطور هذه العاصفة قلقا ، وأن ينتظر نهايتها خائفا .

وفي هذا انما يتحدث الرجلان الآن ، بصوت خافت ، على غير خطة أو نظام ، كما يتحدث الناس في أمور يعرفونها كل المعرفة ، فيستطيعون أن يبدءوا حديثهم عنها من النهاية أو البداية أو ما بينهما . ان علي خجا يحب موئى آغا كثيرا ، ويقدره كثيرا ، وما ينفك يحاول مواساته وتهدئته ، لا لاعتقاده بأن من الممكن أن يداوى أدواءه ، بل لشعوره بالحاجة الى المشاركة في آلام هذا الانسان الشريف الشقي ، هذا المسلم الحق ، ولشعوره بأن ذلك واجب يقع على عاتقه . ان موئى آغا جالس يدخن : انه صورة صادقة دقيقة للانسان الذي قسى عليه القدر وأرهقه من أمره عسرا . ان قطرات كبيرة من العرق تنبع من جبينه وصدغيه ، وتبقى هنالك بضع لحظات ، وتكبر وتثقل ، وتتلألأ تحت نور الشمس الساطع ، ثم تسيل على طول وجهه المغضن . غير أن موئى آغا لا يحس بقطرات العرق ولا يمسحها . انه ينظر بعينيه الكئيبتين المنطفئتين الى العشب الذي أمامه ، وينصب غارقا في أفكاره الى ما يجرى في نفسه ، وهو أقوى قوة وأشد دويا من أي كلام يقال في مواساته ، ومن أعنف قصف بالمدافع من حوله . انه لا يزيد على أن يحرك يده بحركة نفي من حين الى حين ،وعلى أن يتمتم ببضع كلمات هي الى أن تكون جزءا من الحوار الذي يجرى بينه وبين نفسه في داخل نفسه أقرب منها الى جواب عما يقال له وعما يقوم حوله .

ـ لقد وصلنا ياعزيزي على خجا الى حيث لا يعرف المرء أين يندس . الله وحده يعلم أننا ، أنا والمرحوم والدي ، قد فعلنا كل ما يجب أن نفعله للمحافظة على ديننا وللمحافظة على أخلاقنا الاسلامية . لقد مات جدي في أويتسه ، وأغلب الظن أن قبره هنالك قد اندرس فلم يبق منه أثر . وقد دفنت أبي في نوفا فاروخ ، ولست أدري ألم تدسه القطعان المسيحية بالأقدام. وكنت أقدر ، أنا على الأقل ، أن أموت هنا ، في هذه البلدة التي يسمع فيها صوت الأذان يدعو المؤمنين الى الصلاة ، ولكن يظهر لي الآن انه قد كتب على سلالتنا أن تبيد وألا يعرف أحد منا قبر أسرته بعد اليوم . هذه ارادة الله على كل حال ، أليس كذلك ؟ ولكنني أرى أن المرء أصبح لايستطيع أن يمضي الى أي مكان . لقد جاء الزمان الذي يقال ان الدين الحق لا يبقىَ له فيه الا أن ينقرض.

ماذا أستطيع أن أفعل؟ أأذهب مع نائل بك ورجال الشوتشكوريس، لأموت وفى يدى بندقية نمسوية ، لألطخ نفسى بالعار فى هذا العالم وفى العالم الآخر ، أم أبقى هنا على الحال التى أنا فيها : أنتظر أن يجىء الصربيون وأن أقبل ما ظللنا خلال خمسين سنة نتحاشاه بالهروب من مكان الى مكان ؟

وهم على خجا أن يقول بضع كلمات تشجع صاحبه وتضىء له قبسا من أمل ، لكنه لم يفعل ، لأن سيلا من طلقات بطارية « صخور بوتكو » أخذ يتدفق ، وما لبثت مدافع جبل بانوس أن أخذت ترد عليها ، وكذلك أخذت تسمع أصوات مدافع جوليش. كانت قذائف المدافع المختلفة تمر فوق رأسيهما منخفضة ، فتنسج فوقها ما يشبه الشبكة ، وتدوى دويا كئيبا يخنق الصدر ويقبض أوعية الدم الى درجة الألم . فنهض على خجا وهو يقترح على صاحبه أن يحتميا بالرواق على الأقل ، فتبعه موئى آغا كالسائر فى نومه .

أما فى البيوت الصربية المتراصة حول الكنيسة فى جبل الميدان ، فلم يكن ثمة شكوى من الماضى ولا خشية من المستقبل ، وانما كان هناك خوف من الحاضر ومن هذا الحمل الثقيل الذى يفرضه الحاضر . وهناك ذلك النوع الخاص من الدهشة الذى يظل يعقد ألسنة الناس بعد أن تهوى عليهم أولى ضربات الارهاب والاعتقال والقتل على غير نظام وبلا أحكام . لكن كل شىء وراء هذه الدهشة الصاعقة كان عين ما كان منذ مائة عام حين كانت تشتعل نيران الثوار على جبل بانوس : ذلك الاصغاء الخفى نفسه ، ذلك الأمل نفسه ، ذلك الحذر نفسه ، ذلك العزم على احتمال كل شىء اذا لم يكن منه بد ، وذلك الايمان الواثق بأن الخاتمة خير فى نهاية الأمر .

ان أحفاد وأبناء أحفاد أولئك الناس الذين كانوا منذ مائة عام ، من على هذا الجبل نفسه ، وهم سجناء بيوتهم ، يصيخون بأسماعهم قلقين دهشين منفعلين أشد الانفعال ، الى الأصوات الضعيفة ، أصوات مدفع قره جورج التى تصل اليهم من أعلى جبل فيليتيفو ، يصغون الآن ، فى ظلام الليل الحار ، الى هدير القذائف الثقيلة وارعادها فوق رءوسهم ، ويحزرون من سماع أصواتها أنها صربية أو أنها ألمانية ، فيوجهون اليها أعذب الكلام ، أو أقذع الشتائم .. كل ذلك ما ظلت القذائف عالية وما ظلت تسقط فيما

حول المدينة ، أما اذا كان القذف على الجسر وعلى المدينة سكتوا فجأة ، وانقطع كلامهم ، لأنهم يحسون عندئذ ــ وهم مستعدون لأن يحلفوا الايمان على صدق احساسهم ــ بأن المعسكرين كليهما لا يطلقان الآن نيرانهما ، وسط هذا الصمت الشامل والفضاء الفسيح ، الا عليهم وعلى البيت الذى هم فيه. حتى اذا سكن أو عاد الانفجار القريب ، عادوا يتكلمون بأصوات شوهها الذعر ، وأخذوا يؤكدون بعضهم لبعض أن القذيفة قد انفجرت قريبة كل القرب من المكان الذى هم فيه ، وانها من نوع خطير كل الخطورة اذا قيست بسائر القذائف .

ان بيت ريستتش هو البيت الذى لجأ اليه أكبر قسم من سكان الحى التجارى . انه يقوم بعد بيت القس رأسا ، وهو أكبر من بيت القس وأجمل ، وتحميه من نيران مدافع الجهتين بساتين منحدرة من أشجار الخوخ . ان فى البيت الآن قليلا من الرجال ، ولكن فيه عددا كبيرا من النساء اللاتى اعتقل أزواجهن أو اقتيدوا رهائن .. جئن الى هذا البيت يعتصمون به مع أطفالهن .

وكان لايعيش فىهذا البيت الواسع الفنى الا ميخائيلو ريستتش وزوجته وكنته ، وهى أرملة لم تشأ أن تتزوج مرة أخرى ، ولا ان تعود الى بيت أهلها بعد وفاة زوجها ، بل آثرت أن تبقى هنا لتربى ولديها قرب هذين الشخصين العجوزين . وكان ابنها الأكبر قد هرب الى الصرب منذ سنتين ، وهلك هنالك على البريجا لنتسا متطوعا ، ولما يتجاوز الثامنة عشرة .

ان الشيخ العجوز ميخائيلو وزوجته وكنته يخدمون هؤلاء الضيوف الذين جاءوهم على غير ميعاد ولا عهد لهم بهم ، يخدمونهم خدمة من يحتفل بعيد من اعياده . والشيخ العجوز خاصة لايعرف الكلال . انه الآن عارى الرأس ، وذلك ما لم يعهد فيه من قبل لأنه ما كان يخلع طربوشه الأحمر عامة . هذا شعره الكث الأشيب يتهدل حول أذنيه وعلى جبينه ، بينما شارباه الكبيران الفضيان ، المصفران عند الأسفل من دخان التبغ ، يحيطان بوجهه كأنهما ابتسامة دائمة . انه متى لاحظ على أحد أنه أكثر خجلا أوحزنا من غيره ، اقترب منه ، وشجعه ، وقدم له راكيا أو قهوة أو تبغا .

ــ لا أستطيع أيها العم ميخائيللو .. انى لأشكرك شكر البنت أباها .. لكننى لا أستطيع .. اننى أغص به ..

هذا ما قالته له امرأة لا تزال شابة ، وهي تشير بيـدها الى عنقها الأبيض حيث يغص المرء .

انها زوجة بطرس جاتال ، من أوكولشته . كان بطرس قد ذهب منذ مدة الى سارايفو لبعض أعماله . فقامت الحرب وهو هناك . فانقطعت أخباره منـــذ ذلك الحين . وجاء الجيش فطردها هي وأولادها من بينهم ، فلجأوا الى منزل ميخائيلو ريستتش الذى كانت له بأسرة زوجها علاقة صداقة. أنها الآن مهدمة من الحزن ، لانقطاع اخبار زوجها ولهجرتها بيتها . فكانت لا تنى تعض يديها أو تنشج باكية أو تتأوه وتتنهد .

ان ميخائيلو لايحول بصره عنها ، ويجلس دائما على مقربة منها. لقد علم فى هذا الصباح أن بطرس قد قبض عليه فى القطار ، وهو عائد من سارايفو ، وأخذ رهينة ، وأنه اقتيد الى فاردشـته ، وقتل هنالك رميا بالرصاص خطأ على اثر بلاغ كاذب . وكتموا الأمر عن الزوجة ، وكان ميخائيلو يحرص كل الحرص على ألا ينقل اليها النبأ رأسا بدون تدرج ولا أحتياط . ان المرأة تنهض من مكانها فى كل لحظة ، لتخرج الى فناء البيت ولتنظر من هنالك الى جهـة أوكولشته ، غير أن ميخائيلو يصدها عن ذلك ، ويحاول أن يهدىء من روعها بجميع الوسائل الممكنة ، لأنه يعلم أن بيوت جاتالوفتش قد أضرمت فيها النيران ، فهى الآن تحترق ، وميخائيلو يريد أن يخفى على المرأة المسكينة رؤية هذا المنظر . فكان يمازحها ويبتسم لها ولا ينى يقدم لها شيئا :

ـ اشربى يا صـغيرتى ستانويكا .. اشربى ياعزيزتى .. قدح واحد فقط .. هذا بلسم للهموم .. ليس هذا راكيا ..

فكانت المرأة تشرب . ويمضى ميخائيلو يسقى سائر الضيوف ، ويجبر كل شخص من الأشخاص بلطفه الذى لا يكل ولا يمل ولا يمكن مقاومته ، على أن يتأسى وينتعش . ثم يعود الى زوجـة بطرس جاتال . انها الآن أهدأ مما كانت ، فهى لا تزيد على أن تنظر الى الأمام سادرة واجمة . غير أن ميخائيلو لايتركها . انه يؤكد لها ، كأنه يؤكد لطفل من الأطفال ، أن كل شىء سينقضى ، وأن زوجها سيعود من سارايفو سالما وأنهم سيرجعون الى بيتهم فى أوكولشته .

ـ أنا أعرفه ، بطرس هذا .. لقد حضرت تعميده . يا طالمـا تحدث الناس عن هذا التعميد . انني لازلت أتذكره كأنه تم بالأمس

القريب . كنت شابا فى سن الزواج حين مضيت مع المرحوم والدى الذى كان اشبين أولاد يانكو جاتال ، الى أوكولشته لحضور تعميد هذا البطرس ، زوجك .

قال ميخائيلو ذلك وراح يروى قصة تعميد بطرس هذه . كان جميع الناس يعرفون هذه القصة ، غير أنها تبدو لهم جديدة فى هذه الساعات الفذة من تلك الليلة .

اقترب الرجال والنساء من ميخائيلو يصغون الى القصة التى يرويها ، وينسون الخطر الذى يحدق بهم ، ولا ينتبهون الى أصوات المدافع .

فى الزمان الطيب القديم ، أيام كان القس الشهير نيقولا فى فيشيجراد ، رزق يانكو جاتال بمولود ذكر بعد سنين عديدة من الزواج وبعد سلسلة طويلة من المواليد الاناث . ففرح أبوه به كثيرا ، وحمله فى الأسبوع التالى ذاهبا به الى الكنيسة لتعميده ، يرافقه الاشبين وعدد من الأقارب والجيران . وقد وقفوا أثناء نزولهم من أوكولشته وقفات كثيرة للراحة ، فشربوا الراكيا المعروفة من قارورة الاشبين ، الكبيرة المسطحة ، حتى اذا وصلوا الى الجسر ، وصاروا عند الكابيا ، جلسوا هنالك ليستريحوا لحظة ، وليشربوا كأسا . كان اليوم يوما باردا من خريف متأخر ، فلم يكن على الكابيا أحد يقدم القهوة للرواد ، ولا كان هنالك أتراك من المدينة يجلسون على الكابيا ويحتسون القهوة . لذلك جلس هؤلاء الناس من سكان أوكولشته على الكابيا كأنهم فى بيتهم ، وفتحوا زواداتهم وأخذوا يشربون زجاجة جديدة من الراكيا ، فكانوا يتبادلون الأنخاب مرحين فرحين ، ناسين الطفل الذى كان يجب أن يعمد ، والقس الذى يجب أن يعمده بعد الصلاة . وفى ذلك الزمان ـ السنين السبعين من القرن التاسع عشر ـ لم يكن فى الكنائس نواقيس ولم يكن يباح أن يكون للكنائس نواقيس ، لذلك لم يلاحظ هذا الركب المرح أن الوقت يمضى ، وأن الصلاة قد انتهت منذ مدة طويلة . ففى الأحاديث التى كانت تدور بينهم فيتعانق فيها مستقبل الطفل بماضى الأهل ، لم يكن للوقت من قيمة ، ولا كانوا يقيسونه . لقد استيقظ شعور الاشبين عدة مرات فنبه الى ضرورة السير ، لكنهم كانوا ما يلبثون أن يسكتوه . كان الاشبين يقول متمتما :

ـ والآن يا أصدقاء فلنذهب الى الكنيسة لاتمام ماتوجبه علينا

الديانة المسيحية .

فكان الآخرون يجيبونه وهم يعرضون عليه أن يشرب من قارورته :

ـ اسكت . كفى ازعاجا . هل فى هذه الأبرشية كلها من لم يعمد ؟

وفى لحظة من اللحظات أراد الأب أن يستحثهم على المسير ، لكن انراكيا أسكتتهم فى آخر الأمر جميعا وأصلحت بينهم جميعا . والمرأة التى كانت حتى ذلك الحين تمسك الطفل بذراعيها المزرقتين من البرد ، وضعته أخيرا على المقعد الحجرى ودثرته بغطاء مبرقش .

كان الطفل هادئا كأنه فى مهده ، ينام تارة ، ويفتح عينه المستطلعتين تارة أخرى كأنه يشارك فى هذا الفرح العام الشامل (كان الأشبين يقول : « واضح أن هذا الصغير من مدينتنا . انه يحب صحبة الناس ويحب الحفلات والأعياد ») .

وصاح أحد الجيران :

ـ نخب صحتك يا يانكو . أسعد الله ابنك ، وأطال عمره ، وجعله فخرا لك بين الآباء ، وآتاه العز بين الصرب ، والجاه ، والخير ، والرزق الكثير . أسأل الله أن ...

فقال الأب مقاطعا :

ـ ما رأيكم أن نتحرك فنذهب الى الكنيسة لاتمام التعميد ؟

فصاحوا جميعا يقولون :

ـ دعك الآن من التعميد .

ودارت الراكيا مرة أخرى .

وقال أحد الجيران :

ـ ان راغب أفندى بوروفانس لم يعمد ، فانظر مع ذلك أى فتى شديد البأس هو : انه لو ركب حصانا لركع الحصان تحته ..

فأخذ الراكب يضج ضاحكا مقهقها :

ولكن اذا كان هؤلاء الناس قد فقدوا ، هنا على الكابيا ، الاحساس بالزمن ، فان القس نيقولا لم يفقده . لقد انتظر فترة من الوقت أمام الكنيسة ، ثم غضب فتلفع بمعطفه المصنوع من فراء الثعلب وهبط من الميدان الى المدينة . وهنالك ذكر له أحدهم أن الجماعة جالسون الآن على الكابيا مع الطفل ، فمضى الى الجسر وهو ينوى أن يؤنبهم كما يجيد أن يفعل ذلك ، ولكن ما استقبلوه به من قوة العاطفة وصادق الفرح وعظيم الاعتذار وحار التمنيات وطيب

الكلام ، لم يلبث أن أنساه غضبه (وهو رجل خشن قاس ، لكنه بقلبه فيشيجرادى) فاذا هو يصفح عنهم ، ويقبل أن يشرب كأسا وأن يطعم لقمة . ومال على رأس الصغير ، فقال له بضع كلمات لطيفة ، بينما كان الصغير ينظر بهدوء الى وجهه الضخم ذى العينين الواسعتين الزرقاوين واللحية العريضة الحمراء .

ان القصة التى رويت بعد ذلك وزعمت أن الطفل قد عمد على الكابيا ليست صحيحة ، ولكن مما لا شك فيه أن الحديث دار عندئذ ذا شجون ، وانهم شربوا كئوسا مدهقات وتبادلوا أنخابا كثيرة ، ثم لم يتحرك ركبهم المرح متجها الى الميدان الا بعد الظهر ، ففتحت الكنيسة ، وتمتم الأشبين بلسان متعثر أنه يعدل عن الشيطان وأعماله باسم مواطن فيشيجراد الجديد .

قال ميخائيلو ينهى قصته :

ـ هكذا عمدنا الصديق بطرس ، حفظه الله وسلمه .. وها قد جاوز الأربعين ولم يعوزه شيء .

وشربوا مرة أخرى راكيا وقهوة ، ناسين الواقع الراهن من أجل ان يستطيعوا احتماله . وتحدثوا جميعا بمزيد من الحرية والسهولة، وكان يظهر لهم واضحا ان فى الحياة أمورا أقرب الى الانسانية والى المرح من هذه الظلمات وهذا الذعر وهذا القصف القاتل .

هكذا انقضت تلك الليلة ، وهكذا كانت تمضي حياتهم ، محفوفة بالأخطار والآلام ، لكنها تظل مضيئة صادقة صامدة . كانوا بغرائزهم القديمة الموروثة يجزئون هذه الحياة ، ويقسمونها مشاعر موقتة وحاجات مباشرة يغرقون فيها بغير انقطاع . وما كان فى وسعهم أن يحتملوا حياة كهذه الحياة وأن يحتفظوا بوجودهم لأيام أفضل من تلك الأيام ، لولا أنهم كانوا يعيشون على هذا النحو ، لولا أنهم كانوا يعيشون كل لحظة من لحظات حياتهم على حدة ، دون أن ينظروا الى أمام ، ودون أن ينظروا الى وراء .

وطلع النهار . وكان طلوع النهار لا يعنى عندهم الا أن القصف بالمدافع سيزداد نشاطا وأن حركة الحرب ، هذه الحركة التى لا تفهم وليس لها نهاية ، ستستمر فى ضوء الشمس . ذلك أن الأيام لم يبق لها أسما ، ولم يبق لها فى ذاتها معنى ، وأن الوقت قد فقد دلالته وقيمته . وكل ما كان يستطيعه المرء هو أن ينتظر وأن يرتعد . وكانوا فيما عدا ذلك يفكرون ويعملون ويتكلمون ويمشون كالآلات .

على هذا النحو ، أو على نحو يشبهه ، كان يعيش سكان الأحياء العالية الواقعة تحت القلعة الغديمة ، وسكان حي الميدان .

اما في أسفل ، اما في مركز المدينة ، فلم يبق الا عدد قليل من الناس . لقد صدرت الأوامر منذ أول يوم من أيام الحرب تقضي بأن تظل جميع المخازن مفتوحة ، وذلك حتى يستطيع الجنـــود الذين يمرون بالمدينة أن يشتروا ما هم في حاجة اليه من أشياء صغيرة ، ولـكن خاصة من أجل أن يظهر للسكان أو العدو بعيد وأن لا خطر على المدينة . ومن الغريب أن هذه الأوامر قد التزمت ، حتى في هذه الآونة أثنـاء قصف المدافع ، لـكن كل واحـد من أصـحاب المخازن كان يحاول بعذر مشروع أن يدع مخزنه مغلقا خلال الشطر الأكبر من النهار ، كما أن الدكاكين القريبة كل القرب من الجسر ومن النزل الحجري ، مثل دكان بافلي رانكوفتش وعلى خجا ، كانت تظل مغلقة طوال النهار ، لأنهـا معرضة للقصف كثيرا ، وكذلك فنـدق لوتيـكا ، فانه أغلق تمـاما ، لأن قذيفة من القـذائف وقعت على سـطحه فأحدثت فيه بعض الدمار ، وثقب رصـاص الرشاشـات جدرانه .

كان على خجا لا ينزل من رابيته الى السوق الا مرة أو مرتين في اليوم ، ليتأكد من أن شيئا لم يقع لدكانه ، ثم ما يلبث أن يعود الى بيته .

ولوتيـكا قد تركت الفندق مع أسرتها منذ اليوم الأول الذي بدأ فيه قصف الجسر بنيران المدافع . انتقلوا الى الضفة اليسرى من نهر درينا ، لاجئين الى بيت تركي جديد واسع . ان هذا البيت يقع على مسافة غير قصيرة من الطريق ، ويعتصم بمنخفض ، ويغوص بين الأشجار المورقة الـكثيفة من بستان لا يظهـر منه الا سقفه الأحمر . لقد كان صاحب هذا البيت في الريف مع أسرته كلها .

تركوا الفندق عند هبوط الليل ، حين يخيم على المدينة في مثل هذه الساعة صمت شامل . لم يكن قد بقي معهم من خدمهم الا ميلان ، المخلص الوفي الصـامد الذي ما يزال عزبا شديد العنـاية بهندامه رغم تقدمه في السن . انه منذ مدة طويلة لا يحتاج الى طرد أحد من الفندق . اما سائر الخدم فقد هربوا منذ أطلقت المدافع أول قذيفة على المدينة ، كما يقع ذلك كثيرا في مثل هذه الظروف . وعلى عادة لوتيـكا دائما وفي كل مناسبة قررت وحـدها الانتقال فلم يعارضها في ذلك أحد ، وأصدرت أمرها بتنفيذه ووجهته . عينت

الأشياء الضرورية والأشياء الثمينة التى يجب أن يحملوها معهم ، وعينت الأشياء التى يجب أن يدعوها فى الفندق ، وعينت لكل واحد منهم الملابس التى يجب أن يرتديها ، وسمت الشخص الذى يجب أن يحمل الطفل الأبله الأعرج ، ابن دوبوارا ، والشخص الذى يجب أن يقود دوبورا المريضة النائحة ، ومينا السمينة التى طار صوابها خوفا . واستفادوا من ظلام تلك الليلة الحارة من ليالى الصيف ، فقطعوا الجسر هم الأربعة ، لوتيكا وتسالر ودوبورا ومينا ، مع عربة تجر باليد وضعوا فيها الطفل المريض وبعض الأمتعة ، ومع حقائب ورزم حملوها بأيديهم . هذه أول مرة منذ ثلاثين عاما يغلق فيها الفندق اغلاقا تاما ، ويخلو من أى انسان . وكان الفندق قد أصيب بأولى القذائف فتدمر بعض الشيء ، وصار يبدو للناظرين أشبه بخربة قديمة . ومنذ وضعوا أقدامهم على الجسر ، الأشيب منهم والشاب ، الأعرج منهم والبدين والذى تجمدت ساقاه ولم يعتد المهاجرة ، اكتسبوا فجأة هيئة أولئك اليهود التائهين الذين كانوا يضربون فى الأرض دائما أشقياء هاربين .

هكذا انتقلوا الى الضفة الأخرى ووصلوا الى البيت التركى الواسع ليقيموا فيه . وهناك وضعت لوتيكا كل شيء فى مكانه ، ووزعت جماعتها على الغرف ، ورتبت ما حملوه من متاع . لكنها حين أوت الى فراشها لتنام كما ناموا ، فى هذا البيت الذى يشبه أن يكون خاليا ، فى هذا البيت الذى ليس بيتها ، فى هذا البيت الذى لا يضم أشياءها وأوراقها التى قضت معها حياتها كلها ، تحطم قلبها وفارقتها جميع قواها فجأة ، لأول مرة منذ وعت ذاتها ، فاذا هى تطلق صرخة من صرخات الألم تدوى فى أرجاء المنزل الخالى : شيء لم ير أحد مثله قبل ذلك ولا سمع به ولا خطر بباله ، هكذا كان بكاء لوتيكا عنيفا ، مرهقا ، مختنقا ، كبكاء رجل ، لكن لوتيكا لا تحبسه ولا تستطيع أن تحبسه . فصعقت الأسرة واستبد بها الذعر ، وخيم عليها صمت يشبه أن يكون دينيا ، ثم ما لبثوا أن أخذوا جميعا يبكون منتحبين نائحين معولين . ان انهيار قوى لوتيكا هو عندهم أشد هولا من الحرب ، والمهاجرة ، وفقد البيت ، ذلك أنهم يستطيعون بها أن يدبروا كل أمر وأن يذللوا كل صعوبة ، اما بدونها فلا يستطيعون أن يعملوا شيئا ولا أن يتخيلوا شيئا .

وطلع صباح الغد يوما مشرقا من أيام الصيف ، ففى السماء تتموج سحب حمراء وعلى الأزهار يتلألأ ندى غزير ، والطيور تغرد

على أفنان الأشجار .. طلع هذا الصباح على لوتيسكا ، فلم يجدها كما كان يجدها فى الماضى تلك المرأة النشيطة التى ظلت الى أمس توجه أقدار ذويها جميعا ، بل وجدها عجوزا يهودية عاجزة ، قد انهارت على الأرض لا تستطيع أن تعنى بأمر نفسها ولا تعرف كيف تعنى بأمر نفسها ، وتبكى كما يبكى الأطفال ، ولا تعرف أن تقول مم خوفها ولا ما الذى يعذبها ويؤلمها .

وتحققت عندئذ معجزة أخرى . ان ذلك العجوز الثقيل النائم ، تسالر ، الذى لم تكن له ارادة حتى فى عنفوان شبابه ، ولا كان له رأى شخصى فى يوم من الأيام ، وانما كانت تقوده لوتيكا كما تقود سائر أفراد الأسرة ، ان تسالر هذا لم يكن طوال حياته شابا بمعنى كلمة الشباب ، قد انقلب على حين فجأة رجلا يعرف يقود أسرة ، ويملك كثيرا من الحكمة وقوة العزيمة ، ويقدر على اتخاذ ما يجب اتخاذه من قرارات . ويتمتع بما يحتاج اليه تنفيذ هذه القرارات من قوة . فكان يواسى أخت زوجه ويسرى عنها ، ويعنى بها عنايته بطفل مريض ، ويشرف على شئون سائر أفراد الأسرة كما كانت تشرف عليها هى حتى الليلة البارحة . وأصبح يذهب الى المدينة فى الفترات التى يهدأ فيها قصف المدافع الى حين ، فيحمل من الفندق الخاوى ما هم فى حاجة اليه من طعام وأمتعة وملابس . ووجد طبيبا فى مكان ما فجاء به الى المريضة يعودها ، ورأى الطبيب فى العجوز المهدمة انهيارا عصبيا تاما ، ونصح باخراجها من هذا المكان بأقصى سرعة ، وارسالها الى مكان بعيد عن العمليات العسكرية ، ووصف لها عدا ذلك دواء تشربه . واستطاع تسالر أن يتفق مع السلطات على الحصول على عربة تنقل الأسرة الى دوجاتتسا أولا ، ثم الى سارايفو . ولكن كان لابد من الانتظار يوما أو يومين ، الى أن تسترد لوتيكا بعض صحتها ، فتقوى على احتمال مشاق السفر . غير أن لوتيكا ظلت طريحة الفراش كأنها مشلولة ، وكانت تبكى بكاء صاخبا ، وتنطق بكلمات مضطربة تعبر عن أقصى ما يمكن أن يعانيه الانسان من يأس وخوف وهلع . وحولها كان يزحف على الأرض العارية ابن دوبورا الشقى ، وينظر الى وجه خالته مستطلعا مستغربا ، ويناديها بتلك الصيحات الحلقية غير المفهومة التى كانت لوتيكا تفهمها ، ولكنها أصبحت الآن لا تجيب عليها . ان لوتيكا ترفض أن تأكل شيئا أو أن ترى أحدا . انها تعانى آلاما فظيعة من تصورات غريبة تستحيل الى آلام جسمية

صرفة . فتارة يخيل اليها أن مصراعين غدارين ينفتحان تحتها فجأة عن هوة مجهولة ، فتسقط فى الهـــوة ، دون أن تملك للدفاع عن نفسها غير الصراخ ، ودون أن يكون هناك ما تستطيع أن تتشبث به تحاشيا للسقوط . وتارة تتخيل أنها طويلة خفيفة قوية ، لهــا ساقا عملاق وجناحا طائر قوى ، فهى تركض كما تركض النعامة ولكن خطواتهــا أطول من المســـافة بين هذا المكان وسارايفو ، فالأنهــار والبحار تضطرب تحتها كأنهـــا غدران صغيرة ، والمدن والقرى تفرقع كأنها حصى وزجاج . وكان ذلك يجعل قلبها يخفق خفقانا قويا ، ويجعلها تلهث لهاثا شديدا . انها لا تعرف أين تقف ولا أين يقودها هذا الركض المجنح ، ولــكنها تعرف أنها تهرب من ذينك المصراعين الغــدارين اللذين ينفتحان تحتهـــا بسرعة كسرعة البرق . انها تعرف أنها تدوس أرضا يحسن بالمرء أن لا يبقى فيها ، فهى تسير على الأرض لتخلفهـــا وراءها ، وهى تعرف أنهـــا تتخطى فى سيرها أمكنة تشبه أن تــكون قذرة ، هى هـــذه القرى وهــذه المدن الكبرى التى يخدع الناس فيها بعضهم بعضا ويكذب بعضهم على بعض فى الــكلام وفى الأرقــام : حتى اذا فرغــوا من التمثيلية المضحكة التى قوامها الــكلام ، واضطربت الأرقام ، بدلوا اللعب على حين فجأة كما يقلب الساحر المشهد ، فاذا بالمدافع تتقدم ، على خلاف كل ما كان يقال وعلى خلاف كل ما كان يتوقع ، واذا البنادق وأدوات أخرى من أدوات الموت تظهر ، واذا رجال جــدد تحتقن عيونهم بالدم ويستحيل معهم أى حديث وأى تفاوض وأى تفاهم . وهى أمام هذا اللغز لم تبق ذلك الطائر العملاق الذى يجرى بل أصبحت عجوزا شقية عاجزة منهارة على الأرض الصلبة . وهؤلاء الناس يتدفقون آلافا وملايين ويطلقون النار ، ويقتلون ويذبحون ، على خطة ومنهج ، ويبيدون بغير رحمة ودون ما سبب . ها هو ذا أحدهم يميل عليها . انها لا ترى وجهه لـكنها تحس أنه يركز راس حربته على الموضع الذى تفترق فيه أضلاع انسان ، على ألين موضع فى الانسان ..

ــ آ .. لا .. النجدة .. أنقذونى .

هكذا صاحت لوتيــكا وهى تستيقظ وتدفع عن جسمها الغطاء الأشهب الذى كان يغطيها .

ان الأبله الصغير قاعد على الأرض مستند بظهره الى الحائط ، يتأملها بعينيه السوداوين الواسعتين اللتين كان فيهما من الاستطلاع

اكثر مما كان فيهما من الخوف أو الشفقة وهرعت مينا من الحجرة الثانية فهدأت روع لوتيسكا ومسحت العرق البارد عن جبينها ، وسقتها ماء كانت قد وضعت فيه بضع قطرات من الدواء عدتها عدا دقيقا .

نهـــار الصيف على السهل المخضوضر يبدو طويلا لا نهاية له ، لا يتذكر المرء متى بدأ ، ولا يخطر بباله أنه سينتهى . والجو حار هناك أيضا ، لكن الانسان لا يشعر بحدة الشمس . ويدوى وقـع فى البيت ، ويصل سكان جدد . ويجىء جندى أو ضابط مصادفة. الطعام كثير والفواكه وافرة وميلان يحضر القهوة بغير انقطاع . هذا المشهد كله كان يمكن أن يشبه اقامة طويلة فى الريف ، لولا الصرخة اليائسة التى تطلقها لوتيسكا مدوية من حين الى حين ، ولولا الارعاد الأصم الذى يصل الى هذا الفج كأنه همهمات غضبى تشير الى أن فى العالم شيئا قد اضطرب ، وأن الشقاء الذى يهم بالناس جميعا أقرب وأشد مما يتراءى للمرء فى هذا الصحو الواسع الهادى الذى يرين على النهار .

ذلك ما صنعته الحرب بفندق لوتيسكا وسكانه .

وكان حانوت بافلى رانكوفتش مغلقا هو الآخر . لقد قبض على بافلى رانكوفتش منذ اليوم الثانى من نشوب الحرب ، كما قبض على عدد من وجهاء الأتراك ، وأخذوا رهائن ، فبعضهم جعلوا فى المحطة وحملوا مسئولية النظام والأمن واطراد حركة المرور ، والا قتلوا .. وبعض آخر جعلوا فى خص خشبى صغير عند آخر الساحة غير بعيد عن الجسر ، وهو الخص الذى توزن فيه البضائع أمام السوق بميزان الحكومة لتدفع عنها الرسوم ، فهناك يحمل الأسرى الرهائن مسئولية اى أذى أو تخريب يلحق الجسر ، فان وقع شىء من ذلك قتلوا ..

ان بافلى رانكوفتش جالس الآن على كرسى من كراسى المقاهى فى ذلك الخص . انك اذا نظرت اليه ، وقد وضع يديه على ركبتيه وخفض رأسه ، رأيته أشبه برجل هده جهد قوى فتهالك على الكرسى يستريح قليلا ، فهو ساكن لا يتحرك ولا يغير وضعه . وقرب الباب جلس جنديان من جنود الاحتياطى على كومة من الأكياس الفارغة . ان الباب مغلق ، وفى الخص يخيم ظلام وتشيع حرارة ثقيلة . فاذا صفرت قذيفة من القذائف آتية من جبل بانوس أو من جبل جولش ، بلع بافلى ريقه ، وانصت الى الصوت ليعرف أين وقعت القذيفة . انه يعلم أن الجسر ملغوم منذ مدة طويلة ، وهو لا ينقطع عن التفـكير

في هذا الأمر ، متسائلا هل يمكن لاحدى هذه القذائف أن تفجر اللغم اذا نفذت اليه . وكلما تبدل الجنديان اللذان يتولان الحراسة ، سمع الضابط الوكيل يصـــدر الى الحارسين الجديدين أوامر تنتهى بهذه الـكلمات : « عند أيسر محاولة لايذاء الجسر ، أو عند أبسط علامة مشبوهة دالة على أن شيئا من هذا القبيل يهيأ ، يجب أن تقتلا هذا الرجل فورا » . لقد اعتاد بافلى أن يسمع هذه الكلمات حتى غدت كأنها لا تمسه ولا تتصل به . ان قلقه من هذا دون قلقه من قذائف المدافع وقذائف الشرابنل التى تنفجر أحيانا فى مواضع تبلغ من قربها من الخص الذى هو فيه أن الحصى وشظايا الفولاذ تتساقط على الواح الخشب . على أن بافلى انما يعذبه خاصة طول الوقت وخواطره التى لا قبل له باحتمالها .

ان بافلى يفكر فى المصير الذى آل اليه ، وآل اليه بيته وآلت اليه أرزاقه واملاكه . فكلما أمعن فى التفكير تراىء له أن ذلك كله حلم سيىء . والا فبمـــاذا يفسر كل ما حـــل به وبذويه فى هـــذه الأيام الأخيرة ؟

ان اثنين من أبنائه ، وهما طالبان فى الجامعة ، قد قبض عليهما رجال الدرك منذ اليوم الأول . ولم يبق فى البيت الا زوجته وبناتها . والورشة الـكبيرة التى تقع فى أوسوينتسا ، وتصنع فيها الدنان ، قد احترقت على مرأى منه . ولعل أقنانه فى القرى المجـــاورة قد هلكوا أو تفرقوا وتبعثروا . وجميع المال الذى أقرضه للناس فى المنطقة كلها قد ضـــاع . وحانوته الذى يقع على بضع خطـــوات منه ، وهو أجمل حانوت فى المدينة ، مغلق وقد ينهب أو قد تحرقه قذيفة من القذائف بعد قليل . وهو جالس فى هذا الخص المظلم ، رهينة من الرهائن ، مسئولا عن شيء لا يتوقف عليه البتة ، أعنى مصير الجسر ، فان أصاب الجسر أذى قتل .

ان الأفكار تتدفق فى رأسه سيلا عارما صخابا لا عهد له بمثله من قبل .. وتتصادم ثم تغيب . أية صلة له بالجسر ، هو الذى لم يعن فى يوم من أيام حياته بغير أعماله وبيته ؟ ليس هو الذى لغم الجسر ، ولا هو الذى يقصف الجسر بالقنـــــابل . وانه حين كان مستخدما وعازبا ، لم يجلس على الكابيا يوما ، ولا أنفق وقته فيها يغنى ويمزح كسائر الشبان المتعطلين من أهل فيشيجراد . ان حياته تخطر الآن أمام عينيه بتفصيلات كان قد نسيها منذ زمان بعيد .

انه يتذكر الآن كيف وصل من السنجق فتى فى الرابعة عشرة من

عمره ، جائعا ساغبا ، يحتذى نعلين ممزقين ، فاتفق فى أول الأمر مع غنى من الأغنياء اسمه بطرس على أن يخدمه لقاء طعامه ورداء ونعلين فى كل عام . فكان يحمل الأولاد ، ويعمل فى المخزن ، وينزح الماء من البئر ، ويسوس الخيل . وكان ينام تحت الدرج فى حجرة صغيرة مظلمة لا نوافذ لهـــا ، حجرة تبلغ من الضيق أنه كان لا يستطيع أن يتمدد فيها على طوله كله . واحتمل هذه الحيـــاة الشاقة ، حتى بلغ الثامنة عشرة من عمره ، فنقل عنـــدئذ الى الحانوت ينصرف الى العمل فيه انصرافا تاما و « يتقاضى على عمله أجرا » ، وعين للخدمة فى مكانه صبى آخر من السنجق . وعندئذ انما عرف بافلى معنى التوفير ، وأدرك معنى التوفير ، وأحس بمـا يهيئه له التوفير من لذة حادة مدهشة ، وبما يمده به من قـوة عظيمة . ظل خلال خمس سنين يبيت فى حجرة صغيرة فى مؤخرة الدكان ، لم يوقد نارا فى يوم من الأيام ، ولا نام على ضوء شمعة .
فاما بلغ الثالثة والعشرين من عمره زوجه بطرس نفسه فتـاة من تشائينتش طيبة الخلق على جانب من اليسار . فأخـــذا عندئذ يوفران كلاهما . وجاء الاحتلال ، فنشطت الأعمال وسهلت الأرباح وخفت النفقات . واستغل أرباحه مع استمراره على تحاشي الانفاق ، فبذلك أصبح له حانوت ، وأخذ يجمع المال . لم يكن الكسب فى تلك الأيام صعبا ، فان كثيرا من الناس جنوا كثيرا من الأرباح فى سهولة لـكنهم ما لبثوا أن بددوا ما جنوه فى سهولة أكبر . كانت المحافظة على الربح هى الأصعب . وكان هو يحافظ على ما يكسبه من رزق ، وما ينفك يجمع مزيدا منه فى كل يوم . فلما جاءت هذه السنون الأخيرة ، وجاء معها الاضطراب وجاءت معها « السياسة » ، كان هو ، رغم تقدمه فى السن ، قد فعل كل ما يجب أن يفعله حتى يفهم هذه الأزمة الجديدة ، فيصمد لها ويتلاءم معها ، ويجتازها دون أن يصيبه أذى ودون أن يلحق به عار . كان مساعدا لرئيس البلدية ورئيسا للطائفة الدينية ورئيسا لجمعية الـكورال الصربية (الكونكورد) ، وكان أكبر مســـاهم فى البنك الصربى وعضـوا فى مجلس لادارة البنك المحلى . ولقد حاول ، وفقا للقواعد المتبعة فى الحى التجـارى ، أن يتأرجح بين الطرفين الأقصيين والمعسـكرين المتعارضين اللذين كانا يكبران كل يوم ، وأن يسير فى وسط هـذه الصعوبات كلها دون أن تصاب مصالحه بأذى ؛ وكان يحاول الا يجعل السلطات وراء ظهره ، ولـكن دون أن يلطخ نفســه بالعار

فى نظر الشعب . وكان فى رأى جميع السكان مثالا لا يضاهى فى علو القيمة وحسن التصرف والاحتراس .

وهكذا فانه خلال ما يربو على نصف عمر انسان ، كان يعمل ويقتصد ، ويتعب ولا يسىء حتى الى ذبابة ، ويحيى كل من يلقاه ، ويسير فى طريقه صامتا يشغله جمع المال عن كل شىء . فانظر الآن الى ما وصل اليه من سيره فى هذا الطريق . انه جالس فى هـذا الخص ، يخفره جنديان كأنه واحد من قطاع الطرق ، وينتظر أن تأتى قذيفة من القذائف أو أية آلة أخرى جهنمية ، فتخرب الجسر ، فاذا هو يذبح بسبب ذلك أو يقتل رميا بالرصاص . وقد انتهى من كل هذا الى الاعتقاد (وهذا ما كان يعذبه أكثر من أى شىء آخر) بأن كل ما حمل نفسه من عناء وكل ما فرض على نفسه من حرمان ، حتى عاش حيـــاة أخلق بالكلاب منها بالبشر ، انما كان بدون طـائل ولا جدوى ، وأنه قد أخطأ الطريق على وجه الاجمال ، وأن أبناءه وغيرهم من « الشباب » كانوا أرشد منه رأيا ، وأن هذا الزمان ليس فيه مقياس تقاس به الأمور، وليس له طريقة من طرق القياس، او ان مقاييسه فى الحساب مختلفة ، أو أن حساباته هو على الأقل قد ظهر أنها خطأ ، وأن مقاييسه قد ظهر أنها قصيرة مسرفة فى القصر .

كان يقول لنفسه :

ـ شىء عظيم ! .. كل شىء ينصحك بأن تعمـــل وأن تقتصد ، ويدفعك الى أن تعمل وأن تقتصد .. كل شىء ينصحك بهذا ويدفعك اليه .. الـكنيسة والسلطة وعقلك .. فتأخذ بالنصيحة ، وتتقدم فى حذر ، وتعيش حيـــاة عادلة أو قل لا تعيش البتة ، وانما تعمل وتوفر وتركبك الهموم ، وتقضى حياتك كلها على هذه الحال ، ثم اذا بهذا كله يتبدل فجأة فتنكره ولا تعرفه : يأتى عهد يسخر فيه الناس جميعا من العقل ، وتغلق فيه الكنيسة أبوابها بالصمت ، وتحل القوة وحدها محل كل سلطة ، عهد ينظر فيه أولئك الذين جنوا مالهم فى أمانة وبكثير من العناء ، فاذا هم يرون أنهم فقدوا أرزاقهم وضيعوا عمرهم سدى ، عهد لا يظفر فيه الا الأشداء العتاة . وما من أحد يعترف بالجهود التى بذلتها ، وما من أحد بعينك ، وما من أحد ينصحك بما يجب أن تعمله حتى تحافظ على مالك الذى حصلته بالعمل والتوفير . هل هذا ممكن ؟ .. هل هذا ممكن ؟

كذلك كان يتساءل بافلى رانكوفتبش بغير انقطاع ، حتى اذا لم

يجد جوابا عاد من تفكيره الى حيث بدأ ، عاد يفكر فى فقده كل شىء .

وحاول أن يفكر فى غير هذا الأمر ، لكنه لم يظفر بذلك . ان هذه الأفكار تعاوده فى كل لحظة باستمرار . ويجرى الوقت بطيئا بطيئا قاتلا . ويخيل الى بافلى أن هذا الجسر الذى اجتازه الوف المرات ، ولكنه لم ينعم النظر فيه يوما من الأيام ، يجثم الآن على كتفه بكل سرا مشئوما محتوما لا يفسر ولا يعقل ، كما لابد أن يكون الأمر كذلك فى نوع من النوم لا يقظه بعده .

لذلك كله كان بافلى يظل جالسا مرهقا خافض الرأس مقوس الكتفين . انه يحس بالعرق يخرج من جميع مسام جسمه ، تحت قميصه ، وتحت ياقته ، وتحت كميه المنشيين ، والعرق يسيل كذلك من تحت طربوشه ، ولكنه لا يمسح العرق ، بل يدعه يهطل من وجه على الأرض قطرات ثقيلة ، ويخيل اليه أن الحياة هى التى تفنى فيه وتتركه .

كان الجنديان ، وهما فلاحان مجريان متقدمان قليلا فى السن ، يأكلان خبزا وشحما مرشوشا بالفلفل الأحمر . كانا يأكلان على مهل ، يقطعان بسكين صغيرة قطعة من الخبز تارة وشريحة من الشحم تارة أخرى ، كما يفعلان حين يكونان فى الحقل ، وبلع كل منهما بعد ذلك جرعة من الخمر من اناء من الصفيح ، ثم أشعلا غليونهما . قال أحدهما لصاحبه بصوت خافت وهو يدخن :

ــ ألم أر فى حياتى رجلا يسيل منه العرق كما يسيل من هذا الرجل .

واستمرا يدخنان فى صمت تام .

غير أن بافلى لم يكن هو الشخص الوحيد الذى يعرق دما وماء ، ويغرق فى نوم لا صحو منه . ففى أثناء تلك الأيام من أيام الصيف ، على ذلك الشريط الضيق من الأرض بين نهر درينا والحدود الوعرة ، فى المدن والقرى والطرقات والغابات ، فى كل مكان ، كان هنالك رجال يسيل من وجوههم العرق هم يسعون الى الموت ، محاولين أن يدفعوه عنهم بجميع ما أوتوا من قوى وما ملكوا من وسائل . وكانت هذه اللعبة الغريبة التى يلعبها البشر ، هذه اللعبة التى اسمها الحرب ، تزداد اتساعا يوما بعد يوم ، وتنتشر ، وتخضع لسلطانها الكائنات الحية والأشياء الجامدة .

وغير بعيد من خص البلدية ، كان هنالك ، فى ذلك الصباح ،

فريق من الجنود لم ير الناس مثلهم من قبل . انهم يرتدون ملابس عسكرية بيضاء ، وعلى رءوسهم قبعات بيضاء . انهم قطعات ألمانية ، هى تلك القطعات التى أطلق عليها اسم مفرزة سكوتارى .

كانوا قد أرسلوا قبل الحرب الى سكوتارى ، بصفتهم جيشا دوليا ، ليقروا النظام والأمن بالتعاون مع فرق أخرى أرسلتها أمم أخرى . فلما نشبت الحرب ، صدرت اليهم الأوامر بترك سكوتارى ، ووضع أنفسهم تحت امرة أقرب قيادة نمسوية على الحدود الصربية . وقد وصلوا الى المدينة فى الليلة البارحة ، وهم يستريحون الآن على الفسحة المسطحة بين الساحة والحى التجارى . فهناك كان هؤلاء الجنود ينتظرون أن يصدر اليهم الأمر بالهجوم . ان عددهم يبلغ قرابة مائة وعشرين . وهذا رائدهم ، وهو رجل أحمر سمين لا يطيق الحر ، قد أخذت فى هذه اللحظة يؤنب عريف الدرك دانيلو ريباتس ، يؤنبه كما لا يؤنب رئيس مروءسا الا فى الجيش الالمانى ، يؤنبه فى صخب وتنطع دون أية مداراة من أى نوع . ان الرائد يشتكى من أنه هو وجنوده قد ماتوا من العطش ، وأن الأشياء التى لابد منها ولا يستغنى عنها تعوزهم بينما الدكاكين التى لعلها ملأى مغلقة حولهم ، رغم صدور الأوامر ببقائها مفتوحة .

ـ ماذا أنتم هنا ؟ أدرك أنتم أم دمى ؟ أيجب أن أموت هنا أنا ورجالى ؟ أم تراكم تريدون أن أفتحها عنوة كما يفعل اللصوص ؟ ينبغى العثور على أصحاب هذه الدكاكين فورا ، ليؤمن لنا التموين اللازم والشراب الجيد فورا . هل تفهم ما معنى هذه الكلمة : فورا ؟

كان الرائد كلما نطق بكلمة جديدة يزداد الدم ازدحاما فى وجهه . كان بملابسه العسكرية البيضاء ورأسه المحلوق يحترق بغضبه الشديد احتراقا كمشعل .

ـ نعم سيدى الرائد .. سأفعل حالا .. نعم حالا .. حالا ..

ثم ما لبث أن انتقل من ذهوله المشلول الى اضطراب مجنون ، فاستدار على كعبيه ومضى فى الحى التجارى . لكأن عريف الدرك ، من فرط اقترابه من الرائد الذى كان يشتعل غضبا ، قد انتقل اليه ذلك اللهيب ، فجعل يركض ويهدد ويضرب ما حوله .

وأول مخلوق صادفه أثناء ركضه انما هو على خجا . كان على خجا قد نزل من الحى الذى يقطنه ليتفقد دكانه . فلما رأى هذا

الفاكمايستور (١) التهير بيرانس يقبل عليه كالاعصار وقد تبدل تبدلا تاما . دهش أشد الدهشة وتساءل هل هذا الرجل المتوحش الذى يبدو أشبه بمجنون طار صوابه . هل هو حقا ذلك « الفاكمايستور » نفسه الذى كان يراه خلال سنين ، يمر أمام دكانه هادئا رصينا ودبعا لطيفا . انه الآن بيرانس آخر مظلم الوجه يحملق فيه بعينين لا تعرفان أحدا ولا تربان شيئا غير ما به من ذعر . وسرعان ما أخذ العريف يتكلم صارخا ساخطا كأنه يكرر ما رأى الرائد يفعله ويردد ماسمع الرائد يقول بالألمانية منذ لحظات .

ــ والله العظيم يجب أن تشنقوا . ألم تصدر اليكم الأوامر ببقاء الدكاكين مفتوحة ؟ هل يجب على بسببكم ..

وقبل أن يستطيع على الخجا المشدوه أن ينطق بكلمة واحدة ، صفعه العريف على خده الأيمن ، فوثبت عمامته عن أذنه اليمنى الى أذنه اليسرى .

وأسرع العريف طائش اللب تائه النظرة يجبر آخرين على فتح دكاكينهم . وعدل الخجا عمامته ، ثم أنزل مصراع دكانه ، فجلس عليه ولما يزل مشدوها . وتجمع حول بضاعته المعروضة جنود لهم هيئة غريبة ، ويرتدون ملابس لم ير مثلها فى حياته قط . أن هذا كله يشعره بأنه يعيش فى حلم . لكنه أصبح لا يدهش لشىء فى هذا الزمان الذى تنزل فيه الصفعات من السماء .

هكذا انقضى شهر بكامله : الجسر يقصف بالقنابل من حين الى حين . وقذائف المدافع تهز الروابى المجاورة ، وألوان الآلام وصنوف الشدة والعنف تتوارد من كل صوب ، والناس ينتظرون مزيدا من من العذاب والشقاء . ان أكثر سكان المدينة قد هجروها منذ الأيام الأولى ، بعد أن أصبحت بين نارين . وفى نهاية شهر أيلول (سبتمبر) بدأ الجلاء عنها جلاء تاما . انسحب أواخر الموظفين فى الليل : عبروا الجسر ومضوا فى الطريق الذى يخرج من المدينة ، لأن الخط الحديدى كان قد انقطع . ثم أخذت أفواج الجنود تنسحب هى أيضا من الضفة اليمنى ، شيئا بعد شىء ، ولم يبق فى ساحة المدينة الا عدد قليل من المدافعين والرواد ، وخفراء فرادى من رجال الدرك .. بانتظار أن يأتى دورهم فى الانسحاب .

وكان الجسر أشبه بمحكوم عليه بالاعدام ، لكنه كان ما يزال سليما كاملا بين عالمين يتحاربان .

(١) هذا النطق الردىء بالكلمة الالمانية : Wachmeister

الفصل الرابع والعشرون

فى الليل تلبدت السـماء بالسحب ، حتى ليظن المرء ان الوقت خريف وكانت السحب تتشبث بالجبال وبالسماء التى بينها . فانتهز النمسويون حلكة الليل لتنسحب آخر مفارزهم فما ان طلع الفجر حتى كانت جميع المفارز لا على الجبهة الأخرى من النهر فحسب ، بل كذلك فى الأعالى وراء منحدر جبل ليشته ، لا تقع عليهم الأبصار ولا تصل اليهم قذائف المدافع الصربية .

فلما طلع النهار أخذ يهطل على المدينة رذاذ من المطر خريفى . وكان أواخر رجال العسس يطوفون تحت هذا الرذاذ على البيوت وعلى المخازن قرب الجسر ، ليروا الا يزال فيها أحد . كان كل شىء يبدو ميتا : نادى الضباط ، فندق لوتيكا ، الشكنة المهدمة ، الدكاكين الثلاثة أو الأربعة التى تقع عند مدخل المدينة . ولكنهم فوجئوا بعلى خجا واقفا أمام دكانه . لقد وصل فى هذه اللحظة من بيته ، وأخذ يفتح أبواب الدكان . كانوا يعرفون الخجا ويعرفون أنه رجل غريب الأطوار ، فأمروه بالحاح أن يغلق دكانه فورا وأن يترك ساحة السوق ، لأن التلبث قرب الجسر ممنوع منعا باتا ، ولأن من يفعل ذلك يعرض حياته لخطر الموت .

فنظر اليهم الخجا نظرته الى سكارى يهرفون بما لا يعرفون ، وهم ان يجيبهم بقوله : ان حياتنا فى خطر منذ مدة طويلة ، واننا جميعا موتى منذ مدة طويلة ، رغم اننا ندفن واحدا بعد آخر ، لكنه عدل عن الكلام لأنه سبق أن عانى تجربة الأيام الأخيرة ، فقال لهم بلهجة هادئة طبيعية انه أتى ليأخذ من المخزن شيئا من الأشياء وانه عائد الى بيته فورا . وكان واضحا أنهم من أمرهم فى عجلة ، فكرروا له امرهم بترك هذا الحى بأقصى سرعة ممكنة ، ثم عبروا ساحة السوق متجهين الى الجسر . ونظر اليهم على خجا وهم يبتعدون بخطى صامتة على التراب الذى أحالته المطرة الأولى الى بساط

كثيف رطب . ونظر اليهم أيضا وهم يجتـــازون الجسر فتختفي اجسامهم وراء الافريز الحجرى فما يرى منها الا الاكتاف والرءوس وحراب البنادق الطويلة . وسـطعت الشمس على ذرى « صخور بوتوكور » .

قال علي خجا لنفسه : هذه الاجراءات كلها قاسية ، بل انهـــا سخيفة . وابتسم بينه وبين نفسه ابتسامة طفل خادع معلمه . ورفع مصراع الباب بحيث يستطيع أن يندس في الحانوت ، حتى اذا دخل ترك الباب يسقط ثانية ، فبدا الحانوت من ظاهره مغلقا . ها هو ذا في الظلام يلجأ الى حجرته الصغيرة في مؤخرة الدكان ، الحجرة التي طالما هرب اليها من الناس المزعجين ، ومن الأحاديث التي تسمم وتتعب ، ومن أسرته ومن همـــوم نفسه . وجلس على كرسي واطيء صلب طاويا ساقية تحته . وتنفس الصعداء . كانت نفسه المضطربة بكثير من الاحساسات الخارجية لا تزال تتأرجح ، وها هي ذي الآن تهدأ وتسترد توازنها ، كـكفتي ميزان دقيق . وسرعان ما امتلأت الحجرة الصغيرة بدفء جسمه ، وسرعان ما أحس الخجا بعذوبة الوحـــدة ، والأمن ، والنسيان الذي يحيل المكان الضيق المظلم الأغبر الى حدائق لا ترى ، الى بساتين لا نهاية لها ، الى جنات ذات ضفاف خضراء ومياه تدمدم في رفق .

في ظلمات هذا المـكان الضيق يشعر المرء بطراوة الصباح الماطر وشروق الشمس . وكان صمت غير مألوف يخيم في الخارج أيضا ، لا تكدره ـ وتلك معجزة ـ أية قرقعة ، ولا يقطعـــه أي صوت من اصوات البشر ، ولا يفســـده وقع خطوات الأقـــدام . ان شعورا بالسعادة والشكر يملأ قلب علي خجا . قال الخجا لنفسه : ها ان بضعة ألواح من الخشب تغدو كسفينة من سفن المعجزات ، فـاذا هي كافية الآن تحمي وأن تنقذ مؤمنـا من المؤمنين بالدين الحق ، تحميه وتنقذه من جميع الشرور ومن جميع ضروب الشقاء ، تحميه وتنقذه من الهموم التي لا مخرج منها ، تحميه وتنقذه من المدافع التي تتقيأ النيران ، مدافع عدوين يقتتلان فوق رأسك ، عدوين كلاهما كافر ، لست تدري أيهما شر من الآخر . وقال الخجا لنفسه فرحا : لم تهدأ الدنيا هذا الهدوء كله منـــذ أول أيام الحرب .. ما أعذب الصمت وما أجمله .. فبعودة الصمت تعود الى المرء ولو الى حين بقية من تلك الحياة الحقيقية الانسانية التي ما انفكت تضعف منذ مدة طويلة ، والتي تزول تحت قصف المدافع المسيحية زوالا

تاما . ان الصمت يناسب الصلاة . بل انه فى ذاته صلاة . . .

وفى تلك اللحظة ، أحس الخجا ان الكرسى الصغير يطير من تحته ويرفعه فكأنه ريشة فى مهب الريح . ان الصمت « العذب » قد انقطع واستحال فجأة الى رعد أصم ، ثم الى قرقعة مدوية تملأ الفضاء وتخرق أذنيه ، وتعم حتى تصبح فوق ما يطيقه سمع الانسان . وانخلعت أرفف الجدار المقابل . وطارت البضائع التى عليها نحوه . بينما اندفع هو نحوها أيضا . وأن الخجا : آخ ، أو قل ان فكره هو الذى أن ، لأنه لم يبق له صوت ولا سمع ، كما ان مكانه لم يبق فى هذه الدنيا . ان ضجة مصمة قد خنقت كل شىء ، وحطمت كل شىء ، واجتثت كل شىء ، وأطارت كل شىء . أغلب الظن أن هذا اللسان الصغير من الأرض الذى يقع بين النهرين وتقوم عليه المدينة قد انتزع من الأرض فأحدث انتزاعه هنا الدوى الفظيع ، وقذف فى الفضاء فهو يطير فيه ، وأن النهرين قد خرجا من مهاديهما وانعطفا نحو السماء ثم أخذا يسقطان الآن بثقل مياههما الضخمة ، كشلالين ما توقفا بعد ولا تحطما . أهى القيامة ؟ أهى الساعة التى يتحدث عنها كتاب الله ويتحدث عنها الراسخون فى العلم ؟ أهى الساعة التى يزول فيها هذا العالم الفانى بطرفة عين كأنه شرارة تنطفىء ؟ ولكن ما حاجة الله الى هذه الخريطة كلها وهو الذى اذا أراد شيئا قال له كن فكان ؟ لا ، ليس هذا من صنع الله . ولكن انى ليد انسان أن تملك هذه القوة الجبارة كلها ؟

هل كان الخجا قادرا على الاجابة عن هذا السؤال وقد بلغ ما بلغه من دهشة وخيبة واضطراب لهذه الضربة القاتلة التى تريد أن تخنق فيه كل شىء حتى الفكر ؟ انه لا يعرف هذه القوة الجبارة التى تحمله : انه لا يعرف أين تطير به ، ولا أين ستقف ، ولكنه يعرف أنه ، هو على الخجا ، قد كان على حق دائما فى كل أمر من الأمور . وأن الخجا مرة أخرى : آخ . . وكان أنينه فى هذه المرة اليما ، ذلك أن تلك القوة القوة نفسها التى رفعته ، ترده الآن فى عنف وقسوة ، لا الى المكان الذى كان جالسا عليه ، بل الى الأرض بين الجدار الخشبى والكرسى المنقلب . وشعر بضربة قوية تصيب رأسه ، وأحس بألم فى ركبتيه وفى ظهره . كل ما استطاع أن يميزه بعد ذلك هو أنه سمع ، كصوت متميز عن تلك الضوضاء العاملة الشاملة ، صدمة تلطم سقف الدكان لطمة قوية ، وأنه سمع

من وراء الحاجز قرقعة أشياء معدنية وخشبية . فكان جميع بضائع دكانه غدت كائنات حية فاخذت تطير وتتصادم أثناء طيرانها . وبعد تلك الصدمة هطل على السقف وعلى أرض الشارع وابل من حجارة صغيرة . لكن على خجا كان قد أغمي عليه ، فهو راقد فى حجرته الضيقة التى أصبحت تابوته . ساكنا لا يتحرك .

وحين صحا على خجا من غيبوبته كان النهار فى الخارج ساطعا . انه لا يستطيع أن يقول كم من الوقت ظل راقدا رقدته تلك . والذى أيقظه من اغمائه العميق انما هو نور وأصوات بشر فى الوقت نفسه . أفاق من غشيانه فى كثير من العناء . انه يعلم أنه كان جالسا فى ظلام تام . أما الآن فان ضوءا ينفذ الى الدكان من فتحة ضيقة . تذكر أن الدنيا قد غشيها دوى يصم الآن ، ويسقط القلب . والآن يخيم صمت . ولكنه صمت لا يشبه الصمت الذى كان يبدو له منذ حين عذبا كل العذوبة ، قبل الزلزال الذى طرحه أرضا ، وانما هو يشبه أخاه الخبيث ، الموت . وقد أدرك مدى عمق هذا الصمت حين سمع صوتا يناديه باسمه ، ويظهر له آتيا من مكان بعيد .

أدرك الخجا أنه ما يزال حيا ، وأنه ما يزال فى مخبئه الضيق ، فأخرج نفسه من ركام البضائع التى كانت قد هوت على رأسه ، ونهض وهو يئن ويردد صرخته الأليمة بفح انقطاع : آخ .. انه الآن يسمع الأصوات والنداءات الآتية من الشارع واضحة جلية . وانحنى وانسل من الممر الضيق الى الدكان . ان الدكان الآن ركام من حطام ومن أشياء منقلبة يغمرها نور الشمس . والباب مفتوح قد أسقطت الصدمة مصاريعه . وفى وسط هذه الفوضى وهذا الخليط من البضائع المبعثرة والأشياء المتساقطة فى كل صوب ، كان ثمة قطعة من حجر بحجم رأس الانسان . ورفع الخجا عينيه . ان نور النهار ينفذ الى الدكان من السقف . واضح أن الحجر قد ثقب السطح الواهن والسقف الخشبى . وعاد الخجا ينظر مرة أخرى الى هذا الحجر الأبيض ذى المسام ، المنحوت المقدود ، المصقول من جانبين ، المهشم من جوانبه الأخرى ..

آه .. الجسر .. هكذا قال الخجا لنفسه . لكن الصوت الذى يناديه من الشارع كان يزداد علوا ، ولا يسمح له بمزيد من التفكير .

وما هى الا لحظات حتى وجد الخجا نفسه ، وهو على هذه الحال من الانهيار ولما يصح من اغمائه كل الصحو ، ما هى الا لحظات حتى وجد نفسه أمام خمسة أو ستة من الشباب يرتدون ملابس

عسكرية رمادية . ويضعون على رءوسهم قبعات من قبعات الشرطة ، ويحتـذون نعالا من نعال الفلاحين ، وقد طالت لحاهم وغطـاهم الغبار . انهم جميعا مسلحون ، وعلى صدر كل منهم يتصالب صفان من رصاص صغير لماع . ان معهم فلاو مارتش ، القفـال ، ولـكنه لا يضع على راسه الآن قبعته المألوفة ذات الحافة البارزة ، وانما يضع طاقية ذات فراء ، وعلى صدره يتصالب صفان من الرصاص أيضا . وهذا هو احد الرجال يتقدم فورا من الخجا . لا شك أنه رئيسهم . انه شاب ذو شاربين دقيقين أسودين ، ووجه مرتب الملامح بارز القسمات ملتمع العينين ، وقـد وضع بندقيته فـوق كتفه على طريقة الصيادين ، وحمل بيده عصا نحيلة من فروع شجر الجوز .

تقدم من الخجا وهو يشتم غاضبا ، ثم رفع صوته وقال له :

ـ هيه .. أنت .. أيترك أحد دكانه مفتوحا هكذا على مصراعيه ؟ غدا ينقص من الدكان شيء فتزعم أن واحدا من جنودى هو الذى نهبها ؟ هل على انا أن أحرس بضائعك ؟ ..

ان وجه هذا الرجل هادىء يكاد يكون ساكنا ، لـكن صوته كان ثائرا وكان يلوح بعصاه مهددا متوعداً . وفى هذه اللحظة اقترب منه فلادو مارتش ، وقال له كلاما بصوت خافت فأجابه الرجل بقوله :

ـ أسلم بأنه رجل طيب وشريف . ولكن اذا رأيت حانوته مرة أخرى مفتوحا على مصراعيه بلا رقابة ، فلن يمر الأمر بسلام .

ثم استأنف الرجال المسلحون سيرهم . فقال الخجا لنفسه وهو يتابعهم بنظراته : « هؤلاء هم الآخرون . ما ان وصلوا حتى لقونى . ما من تغير يحدث فى هذه المدينة الا ويضربنى على رأسى » .

ان على الخجا واقف الآن قرب حانوته المنـكوب ، فاغرا فاه ، ثقيل الرأس ، محطم الجسم . وأمامه تنبسط السوق التى تلوح فى شمس هذا الصباح كأنها ميدان قتال ، فهى مغطاة بالحجارة كبيرة وصغيرة ، وبالقرميد ، وبحطام الأشجار . وانتقل بصر على خجا الى الجسر . ان الـكابيا ما تزال فى مكانها ، لـكن الجسر منهدم بعـدها فورا . ان العمود السابع قد زال فلا وجود له . وبين السادس والثامن فراغ فاغر يستطيع المرء بالرؤية الجانبية أن يلمح ميـاه النهر الخضراء تسل فيه . وبعد العمود الثامن يستمر الجسر ويبلغ الضفة الأخرى املس منتظما أبيض كما كان بالأمس وكما كان منذ كان طرف الخجا عدة مرات لا يريد أن يصدق هـذه الـكارثة التى

يراها ، ثم أغمض عينيه . فطافت في خياله ذكرى الجنود الذين رآهم منذ خمس سنوات أو ست يختبئون تحت خيمة خضراء ويحفرون في هذا العمودنفسه ، وتصور ذلك الترس الحديدى الذى ظل يغلق مدخل العمود الملغوم بعد ذلك عدة سنين ، وتصور الى جانبه ذلك الوجه الملغز البليغ معا ، ذلك الوجه الأصم الأعمى الأبكم ، وجه الضابط الوكيل برانكوفتش ، فارتعش على خجا ، وفتح عينيه من جديد ، لكنه لم ير الا المشهد الذى رآه منذ قليل : السوق وقد فرشت بالحجارة صغيرة وكبيرة ، والجسر وقد زال احد أعمدته ، والفراغ الفاغر بين قنطرتين هدمهما اللغم في وحشية . ان أمثال هذه الأشياء لا تقع ولا ترى الا في الحلم .. الا في الحلم .. ولكنه حين تحول عن هذا المنظر الذى لا يصدق ، وجد حانوته أمامه ، وبين بضائعه المتناثرة هنا وهناك ، رأى الحجر الكبير . انه قطعة من العمود السابع . اذا صدق أن هذا حلم ، فالحلم اذن في كل مكان . ودوى في مركز المدينة نداء . انه أمر يذاع بصوت عال باللغة الصربية . وسمع على خجا وقع خطوات سريعة تقترب . فبادر يغلق باب حانوته ، ويقفله ، ثم مضى يصعد نحو بيته .

لقد حدث له قبل ذلك كثيرا وهو يصعد الى بيته ، أن تقطعت أنفاسه ، وشعر بقلبه يخفض في غير مكانه . فهذه الرابية التى ولد عنيها قد أصبحت منذ مدة طويلة ، منذ أن بلغ الخمسين من عمره ، تبدو له عالية كثيرة العلو ، وما تنفك تزداد علوا ، كما أصبح الطريق الذى يؤدى الى بيته يبدو له طويلا كثير الطول وما ينفك يزداد طولا . لكنه لم يشعر بهذا كله في يوم من الأيام كما يشعر به في هذا اليوم الذى يود فيه لو يبتعد عن مركز المدينة ويبلغ بيته بأقصى سرعة . ان قلبه يخفق خفقانا غير طبيعى ، وان أنفاسه تنحبس . واضطر الى التوقف .

خيل اليه أنه يسمع غناء هنالك ، تحت . والجسر هنالك ، تحت ، مهدم مشطور شطرين ، على نحو رهيب قاس . ليس على خجا في حاجة الى الالتفات الى وراء ، ليرى ذلك المشهد كله . لا ولن يلتفت بأية حال من الأحوال : لقد غاص العمود في القاع بعد أن اجتث اجتثاثا كجذع عملاق ، والشظايا من حوله تتناثر آلافا وآلافا ، والقنطرتان عن يمينه وعن يساره محطومتان في عنف وقسوة ، والفراغ الفاغر بينهما يبلغ من الطول خمسة عشر مترا ، وهما تحاولان في كثير من الألم أن تتلاقيا .

. لا لن يلتفت على خجا بأية حال من الأحوال . لـكنه لا يستطيع أيضا أن يتقدم في سير صاعدا على الرابية ، فقلبه يزيده اختناقا شيئا بعد شيء ، وقدماه لا تطاوعانه . وأخذ على خجا يفرض على نفسه أن يتنفس تنفسا عميقا بطيئا منتظما ، تنفسا ما ينفك يعمق شيئا بعد شيء . ان ذلك كان يحسن اليه فى الماضى ، وهو يحسن اليه الآن . وشعر على خجا بشيء من انفراج الضيق فى صدره . لقد حقق نوعا من التوازن بين أنفاسه العميقة المنتظمة وبين خفقات قلبه . واستأنف سيره .

وتصور على خجا بيته وسريره ، فاستحثته صورة البيت والسرير على المسير . انه يمشى فى مشقة وبطء ، وأمام بصره ما ينفك ينبسط مشهد الجسر المتهدم . ليس يكفى أن تحول بصرك عن شيء من الأشياء حتى يكف عن مطاردتك وتعذيبك . ان على خجا لن يرى الا هذا المشهد ولو أغمض عينيه .

قال على خجا لنفسه بشيء من الانتعاش وقد تحسن تنفسه قليلا : الآن يرى الانسان فيم كانت تلك الأجهزة كلها وتلك الآلات كلها « فيم كان ذلك الاسراع كله وذلك النشاط كله (لقد كان دائما على حق ، فى أمر من الأمور ، ضد جميع الناس ، الا أن هذه العصمة من الخطأ أصبحت الآن لا تملأ نفسه رضى . انه لأول مرة يحفل بهذه الحقيقة : انه على حق) . لقد ظل يراهم خلال ذلك العدد كله من السنين فوق الجسر يعملون فيه : نظفوه ، وزينوه ، واصلحوا أسسه ، ومدا فيه أنابيب الماء ، وأقاموا عليه مصابيح الكهرباء ، ثم نسفوا ذلك كله فى الهواء ذات يوم ، كأنما هم ينسفون صخرة من صخور الجبل ، لا مبنى خيريا مفيدا جميلا . الآن يرى المرء ماذا كانوا ، وماذا كانوا يريدون . لقد عرف هو ذلك كله منذ أول الأمر ، غير أن أغبى غبى يستطيع الآن أن يراه . لقـــد حطموا شيئا هو بين سائر الأشياء أفواها وأبقـــــاها ، وسلبوا ما هو الله ، وليس يدرى أحـد أين سيتوقفون . حتى جسر الوزير أخذ ينفرط كما ينفرط عقد من اللؤلؤ ، والأمر متى بدأ لم يستطع أحدا أن يوقفه .

ووقف الخجا من جديد . ان أنفاسه تخونه ، والطريق الصاعد ينتصب فجأة أمامه . وحاول مرة أخرى أن يهدىء قلبه بالتنفس العميق . ومرة أخرى استطاع أن يسترد أنفاسه ، فشعر أنه يحيا من جديد ، واستأنف سيره بمزيد من السرعة .

وقال الخجا لنفسه : ولكن فليكن ما يكون . اذا كان الناس هنا يهدمون فانهم فى غير هذا المكان يبنون . فربما كان لا يزال فى الأرض بلاد هادئة وأناس عقلاء يحترمون ارادة الله . واذا كان الله قد ترك هذه المدينة البائسة التى تقع على نهر درينا ، فلعله لم يترك العالم بأسره ، لعله لم يترك جميع الأرض التى تحت السماء. وهؤلاء أنفسهم لن يفعلوا ما يفعلونه الآن الى آخر الزمان . ولكن من يدرى ؟ (آه ... ليته يستطيع أن يستنشق مزيدا من الهواء !) .. من يدرى ؟ لعل هذا الدين الباطل الذى ينظم أهله كل شيء ، فينظفون ويصلحون ويحسنون ، من أجل أن ينسفوا وأن يهدموا بعد ذلك فى لحظة واحدة كل شيء ، لعل هذا الدين الباطل سينتشر فى المستقبل على الأرض كلها ، فاذا أهله يجعلون من جميع هذا العالم الذى خلقه الله ساحة مقفرة لبنائهم المجنون وتخريبهم المجرم، ومرعى لجوعهم الذى لا يشبع ، وشهواتهم التى لا تفهم.. كل شيء ممكن . غير أن هناك شيئا واحدا يستحيل أن يكون ، وهو أن تخلو الدنيا خلوا تاما ، الى الأبد ، من رجال عظماء حكماء ، أصحاب نفوس سامية وهمم عالية ، يبنون فى سبيل الله مبانى باقية خالدة ، لتصبح الأرض أجمل ، وليعيش الانسان حياة أفضل وأسهل . فان اختفى أمثال هؤلاء الناس كان معنى ذلك أن حب الله قد انطفأ وزال من هذا العالم . وذلك ما لا يمكن أن يكون .

ان رأس الخجا يزدحم بهذه الأفكار ، وسيره ما ينفك يزداد مشقة وبطئا .

وهو الآن يسمع بوضوح أن فى المدينة غناء . ليته يستطيع فقط أن يستنشق مزيدا من الهواء .. ليت الطريق كانت أقل صعودا .. ليته يستطيع أن يصل الى بيته ليتمدد على فراشه ، وليرى ويسمع أحدا من ذويه . ذلك كل ما يتمناه . لكن هذا مستحيل .

لقد أصبح لا يستطيع أن يحقق تناسبا سليما بين تنفسه وضربات قلبه . ان قلبه قد حبس انفاسه تماما ، كما كان يقع له ذلك أحيانا أثناء النوم .

غير أنه كان فى الماضى يستيقظ من النوم ، فتحييه اليقظة بالسلامة ، أما الآن فهو يقظ ..

وفغر فمه وأحس أن عينيه تخرجان من رأسه . والطريق الصاعدة التى كانت ما تنفك تزداد صعوداً تقترب الآن من وجهه كل الاقتراب.

وامتلأت ساحة بصره كلهـا بالطريق الصلبة اليابسة التى استحالت الى ظلمات واستبدت بوجوده كله .

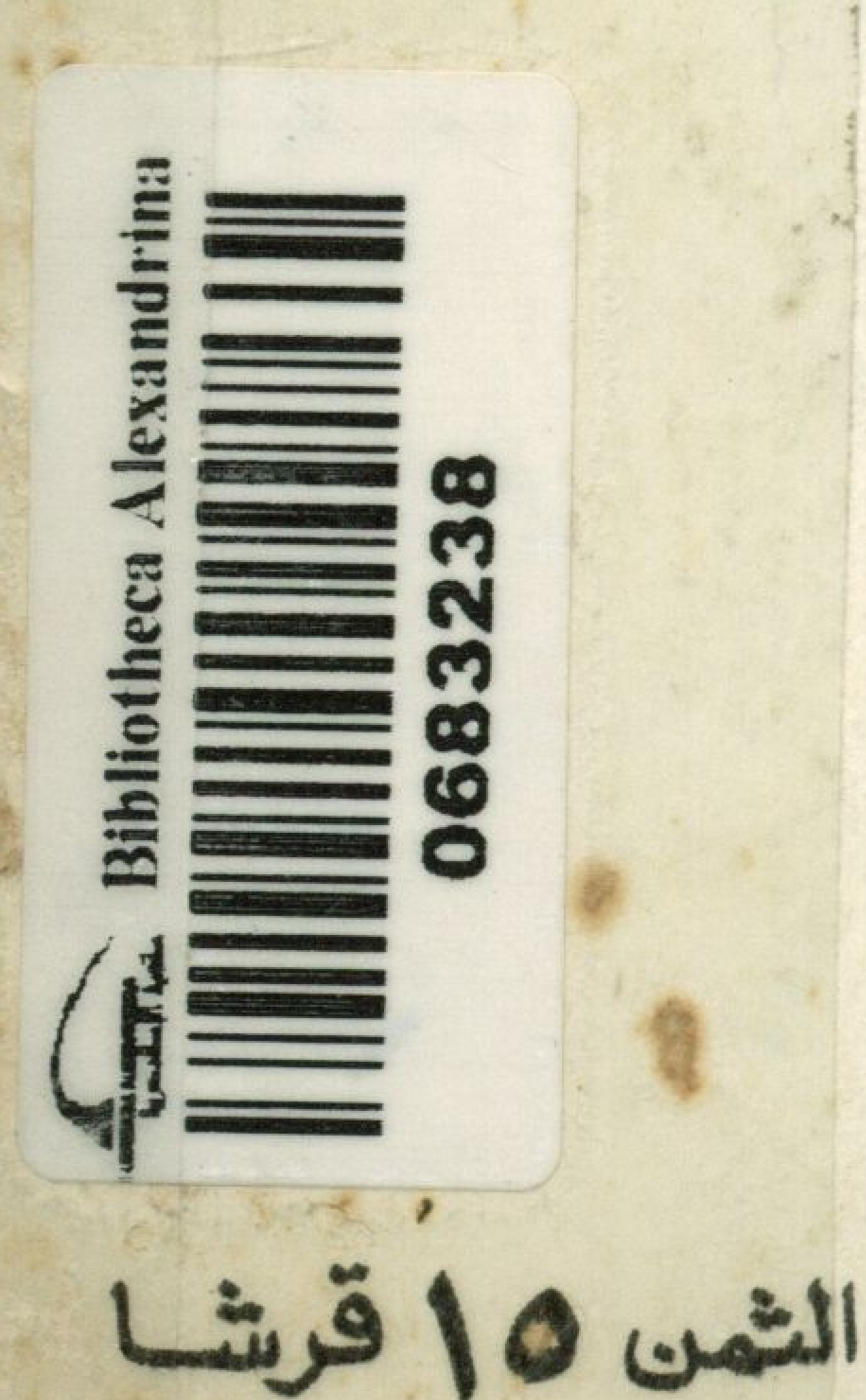
***

على الطريق الصاعدة التى تؤدى الى حى الميدان كان يرقد على خجا . وبحشرجات قصيرة ، لفظ على خجا روحه .

تمت

هــذه الرّوايـة

في الشــهر الماضي قدمت « روايات الهلال » القسم الأول من هـذه الرواية : « جسر على نهر درينا » الى القراء، وهذا هو القسم الثانى والأخير من هذه الرواية العالمية الرائعة ، وهى الرواية التى قـام بترجمتها وتقديمها الأديب العربى والمفكر الكبير الراحل الدكتور سامى الدروبى ·· الذى كان استاذا جامعيا ، ووزيرا للتربية والتعليم ، وسفيرا لسوريا فى يوغسلافيا وفى القاهرة وفى أسبانيا سنوات طويلة ، واذا كانت رواية « جسر على نهر درينا » تعتبر نموذجا رائعا من الأدب الروائى فى كل العصور، فان ترجمتها الى العربية بقلم سامى الدروبى تعتبر مثلا أعلى للترجمة الدقيقة التى تحافظ على جمـال الأصل وسحره · وقـد التقى سامى الدروبى مترجم الرواية بمؤلفها أكثـر من مرة ، وذلك عندما كان سـفيرا لسوريا فى يوغسلافيا ، وعنـدما زار « أندريتش » مصر وكان سامى الدروبى مقيما بهـا ، وكان أندريتش محبـا للعـرب متابعا للحضارة العربية الاسلامية ، وهو يعكس هذا الاهتمام فى روايته الخالدة التى نقدم قسمها الأخير الى القراء اليوم · وهكذا كانت ترجمة هذه الرواية قائمة على اختيار دقيق من جانب سامى الدروبى ·· وعلى معرفة منه لكاتبهـا وأدبه ، وعلى فكرة صائبة فى ذهن الدروبى هى ضرورة تعرفنا على آداب الشعوب الصغيرة التى تشترك معنـا فى الآلام والهموم والمشاكل ، ففى آداب الشعوب الصغيرة ·· من ينـابيع الجمال والفن والفكر ما يقف شامخا أمام أعظم آداب الشعوب الكبيرة · والدليل الساطع أمامنا على ذلك هو هذه الرواية العظيمة ··· « جسر على نهر درينا » ·



الثمن ١٥ قرشا